مشيخة

الطريقة العزمية

تقدم لك

أصول الوصول لمعية الرسول

صلى الله عليه وسلم

للإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من

شيخ الطريقة العزمية

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

المحامي بالنقض





Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار المدينة المنورة

تقدم لك

أصول الوصول لمعية الرسول

صلى الله عليه وسلم

للإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة الخرطوم

طبع بإذن من

شيخ الطريقة العزمية

السيد عز الدين ماضي أبو العزائم

المحامي بالنقض

التابعة لمشيخة السادة العزمية ١١٤ ش مجلس الشعب القاهرة -

طبعات الكتاب

الطبعة الأولى : ٣ رمضان ١٣٢٩ هـ الموافق ١٩١١/٨/٢٩ م

الطبعة الثانية : غرة محرم ١٣٨٦ هـ الموافق ١٩٦٦/٤/٢٢ م

الطبعة الثالثة : ٢ جمادى الآخرة ١٤٠٠ هـ الموافق ١٩٨٠/٤/١٧

الطبعة الرابعة : ٢٦ ربيع ثانى ١٤٠٦ هـ الموافق ١٩٨٦/١/٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

أحمدك ربى ، خلقت فسويت ، وقدرت وقضيت ، وعافيت وأبليت ، وعلى العرش استويت ، وعلى الملك احتويت ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الشمس المضيئة لكل الشموس ؛ والغيث المفاض لتزكية المفوس ، وعلى آله حجج الله وأوليائه ، وخاصة الله وأصفيائه ، ورحمة الله وبركاته على صحابته الهادين المهديين ، ورضى الله تبارك وتعالى عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم ، ونضر الله وجه خليفته الأول الإمام السيد أحمد ماضى أبو العزائم .. وبعد :

فتقدم دار المدينة المنورة ـــ وهى إحدى أوجه أنشطة مشيخة السادة العزمية لطبع ونشر وتوزيع تراث الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم ـــ الطبعة الرابعة من كتاب « أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ » فى الفقه . والفقه فى اللغة هو الفهم والعلم ، ومن ذلك قوله تعالى : « ما نفقه كثيراً مما تقول ...» وقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها » ، وقوله : « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ، وقوله : « لا يكادون يفقهون حديثا » .

وتطلق عند الفقهاء على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها ، ويستوى فى ذلك أحكام العقائد والتوحيد والصفات ، والأحكام العملية أو أحكام الفروع .

وقد ندب الله تعالى إلى تعلمه ونشره بين الناس وذلك بقوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » ، فقد جعل الله عز وجل ولاية الإنذار والدعوة للفقهاء ، وهذه درجة الأنبياء تركوها ميراثاً للعلماء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الأنبياء » ومشتملات الفقه الأسلامى تتناول حياة الفرد والجماعة والدولة ، دينية كانت أم دنيوية ، سواء أكانت من العقائد أم العبادات أم المعاملات أم الجنايات أم الأحوال الشخصية ، أو ما يتعلق بكل ذلك من القضاء والشهادة والمرافعات ، أم كانت متعلقة بالناحية الدستورية أو الأقتصادية أو الدولية ، وما يتعلق بذلك من حرب وسلم ومعاهدات .

ولقد تناول كتاب : « **أصول الوصول لمحبة الرسول ﷺ** » أربعة أبواب :

الباب الأول : فى التعريف بالعقيدة ، وفقه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وفضائل النطق واليقين بها . أما مدارس علم الكلام فنحيل إلى ما كتبه الإمام فى كتابه « عقيدة النجاة » . وأما ما يتعلق بصفات الذات وصفات المعانى فنحيل إلى كتاب الإمام « الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها » .

الباب الثانى : فى فقه العبادات وهى النظم التى شرعها الله ليأخذ المسلم بها نفسه فى علاقته بربه ، وسبيلها أداء الواجبات الدينية ــ من صلاة وصوم وزكاة وحج ــ وقد جاءت فريضتا الصوم والحج فى هذا الكتاب موجزتين وذلك لأن الإمام أفرد لفريضة الصيام كتاب : « صيام أهل المدينة المنورة » ؛ وأفرد للحج كتاب « هداية السالك إلى علم المناسك » .

الباب الثالث : فى فقه المعاملات ، وهى أحكام الدين الإسلامى فى المعاملات ، والأحوال الشخصية ، كى يعلم المسلم أحكام دينه فإنه إذا عرف أحكام دينه فى البيع والشراء ، والزواج ، واستبانت له سماحة الإسلام ــ مع دقته فى التشريع وإحاطته بكل صغير وكبير ، مما يجرى فى المعاملات بين جميع طوائف البشر ومما يتضاءل بازائه تشريع المشرعين وتقنين المقننين من غربيين وشرقيين ــ دعته عظمته وحملته دقته وسماحته إلى الأخذ به والتعويل عليه .

أما ما يتعلق بالوضع الدستورى فى الفقه فقد وضع الإمام له باباً فى كتابه : « النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين » بين فيه علاقة الحاكم بالمحكوم ، وتكلم عن الشورى .

أما ما يتعلق بالعلاقات الدولية فى الفقه الإسلامى فقد بينها الإمام فى كتابه : « الجهاد » وكتابه : « وسائل نيل المجد الإسلامى » وقد تناول الإمام فى هذين الكتابين موضوع السلم والحرب ، ونظام الأسرى والمعاهدات .

أما ما يتعلق بأحكام الجنايات ، كالسرقة والقذف وقطع الطريق والزنا والقتل العمد وشبه العمد والخطأ إلى غير ذلك ، وما يتعلق بأحكام العقوبات من حد وتعذير وديّات وقصاص . وما يتعلق بأحكام المرافعات ونظم الإجراءات القضائية ، ووضع قواعد الدعاوى ، وجعل البينة على المدعى واليمين على من أنكر ، وما يشترط فى الشهود

وسماعهم . وما يتعلق بالوضع الاقتصادى والمالى فى الفقه الإسلامى ووضع قواعد العدالة الاجتماعية ، والاحتكار والعقود التى تؤثر على الاقتصاديات ، ونظم الموارد المالية كأحكام الغنائم والركاز والكنوز ، ونظام الخراج والعشر ونظام الفدية .

كل ذلك سأتجه بعون الله إلى البحث عنه وإخراجه من تراث الإمام أبو العزائم تباعاً .

الباب الرابع : فى التعريف بالأخلاق وهو موضوع علم التصوف . لأن التصوف فى الإسلام هو الكمال فى الإيمان ، والكمال فى كل شأن من شئون الحياة ، إنه الخلاصة الزكية لكل دعوة ربانية ، إنه الصدق والأمانة والوفاء والإيثار والنجدة والكرم ونصرة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، والتعاون على البر والتقوى ، والتواصى بالحق والصبر ، والتسابق إلى فعل الخير أيا كانت سبله ووجهاته . إنه النضال لعزة الوطن الإسلامى ، ونصرة العقيدة الحقة ، وسيادة الإيمان ، إنه الصيحة الرهيبة فى وجه الطغيان والاستبداد والعدوان .

لقد استطاع التصوف أن ينشر الدعوة الإسلامية وأن يجعلها عالمية بدون سلاح وغزو ، فهو الذى حمل نورها وهداها إلى اندونسيا والفلبين والصين وقلب أفريقيا ، وهو الذى صمد فى وجه التيارات الإلحادية والإنحلالية ، وهو الذى وقف حصنا شامخاً يدفع عن الجماهير الإسلامية وثنية التتار ، وعصبية الصليبيين وفتكات الاستعمار . حتى أن الجبرتى ليحدثنا أن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر ، انما كانت على أيدى رجال المقاومة الشعبية من أبناء الطرق الصوفية وشيوخها الذين جعلوا من الأزهر والأحياء الشعبية حصوناً لا تقتحم ومشاعل للثورة لا يخمد لهيبها .

والإمام أبو العزائم فى هذا الباب يجلى التصوف ويرفع عنه الحجب ، ويمسح عن جبينه ما دُس عليه وأضيف إليه ، ويبينه للناس صراطاً مستقيماً ، ومنهجاً ربانيا ، وقوة روحية هى أسمى المثاليات فى مناهج الأخلاق ، والسلوك والتربية .

ويعلمنا رضى الله عنه أنه كما قام رجال الفكر والعلم يحافظون على الفكر الإسلامى ، والعلم الإسلامى فنشأت مدارس الفقه والحديث والتفسير .

وكما اجتهد الفقهاء فى الفروع ، وكما وضع رجال الحديث القواعد للرواة والسند ، كما تحدث علماء التفسير عن مناهجهم فى أسباب النزول والرواية ، وكما سن علماء الكلام مبادئهم فى البحث عن الصفات والأسباب والمسببات والقضاء والقدر ، يجتهد

الصوفية فى بيان أن علم التصوف له قواعده فى العبادات والأخلاق ؛ ومناهجه فى السلوك ومعالجة أمراض القلوب ، وعلل النفوس ، وإذكاء نوازع الخير بأنوار الذكر والطاعة ، وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة كذلك يحفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد فى استنباط الأدلة ، واستخراج الحدود والفروع ، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص ، وترك أمره للاجتهاد والاستنباط ، فكذلك لعلماء الصوفية أن يستنبطوا آداباً وأذواقاً ومنهجاً للمريدين والعابدين فى السلوك والمعرفة والأخلاق والآداب والأذكار والأوراد والفتح وكشف أسرار النفس .

ويجىء هذا الكتاب : « أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ » لمن يرغب فى الإلمام بفقه الشريعة وعلم الحقيقة ويجد السبيل إلى هذه المعرفة شاقا فى الكتب الأخرى ، فيمهد وييسر للراغب طريق المعرفة والإلمام دون مشقة وعناء ، فى أسلوب سهل لين ، دون اختصار مخل أو تطويل ممل ، ولكنه وسط بين ذلك قواما ، يرشد الباحث ويشبع القارىء .

ذلك بعض معارف الإمام أبو العزائم وصورة لعلم من علومه رضى الله عنه فى هذا الكتاب واننا لنرجو من الله مزيداً من الهدى والتوفيق لنشر كل علومه قدس الله سره خاصة وقد جاءت أيام الله الطيبة المباركة لننهض بدعوة الإمام المجدد ورسالته رسالة الحق والخير والإيمان ، رسالة الطهر والأخلاق والكمال .

والله يهدى إلى الحق ، ويرشد إلى صراط مستقيم .

مشيخة السادة العزمية

فى يوم الخميس ٢٨ ربيع ثانى ١٤٠٦ هـ
٩ ينـــايــر ١٩٨٦ م

شيخ الطريقة العزمية
السيد عز الدين ماضى أبو العزائم
المحامى بالنقض

الباب الاول

الأصول التى يلزم أن يعتقدها المؤمن

إعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يتعلمون من رسول الله ﷺ الإيمان ، ثم يتعلمون القرآن ، فيكون القرآن هو الحجة البالغة الذى ينزل إليه الغالى ويلحق به المتهاون ، وقد جاء القرآن مبينا أصول الدين التى هى العقائد الواجب التصديق بها ، مقرراً لتلك العقائد بالحجج النظرية ، والبراهين الحسية ، بحيث أنه لم يصدم العقل عند تقرير أى أصل من أصول التوحيد ، بل أقام الحجج والبراهين القوية ، على أنه سبحانه وتعالى أبدع الكون إنشاء على غير مثال سبق ولا مادة ، حتى اطمأنت القلوب وسلمت العقول .

ثم أطلق سبحانه للعقول العنان فى أن تفكر فى آياته الظاهرة فى الآثار ، وأن تنظر فى حكمة وبدائع صنعه ، لتقتنع تمام الاقتناع أنها عاجزة عن إدراك كمال صنعته ، وغرائب تصريف قدرته ، والحيطة بلطيف آياته وتحققها بالعجز عن هذا مع ظهوره للحس ، تحقيق بالعجز عن إدراك أسرار الألوهية ، فسبحان من : ﴿ **لا تُدْرِكُه الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وهُو اللطِّيفُ الخبيرُ** ﴾ [1]

ثم تفضل سبحانه وتعالى فبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم الكتب فيها تبيان لكل شيء من العقيدة الحقة ومن العبادات والمعاملات ، وأمرهم سبحانه وتعالى أن يبينوا للناس بعملهم وقولهم وحالهم ما اختلفوا فيه ففصلوا المجمل ووضحوا المشكل ، وبينوا المبهم ، ونصوا على مواضع التخصيص والتعميم ، وتلقى ذلك النور خيرة الخلف

---

(١) سورة الأنعام الأية ١٠٣ .

عن السلف وهكذا و« **لا تزال طائفة من الأمةُ قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله** » .[1]

ولما كان المريد لابد له من أن يعقد قلبه على عقيدة مجمع عليها من أئمة السلف الصالح أهل السنة والجماعة حتى تصح إرادته وتحسن بدايته ، ويشيد ويبنى على أساس مكين ، ويسير على طريق أمين وصراط مستقيم ، لزم أن تُشرح له عقيدة أهل السنة إجمالا ، حتى يتمكن من معرفتها ، حتى إذا صارت حالته سنية ، لانتهاجه على الأصول السنية ؛ تشرح له عقيدة أهل المشاهدات والتمكين من أهل العلم واليقين ، فأبدأ بالعقيدة اللازمة للمريد .

العقيدة

أما العقيدة التى أجمع عليها أهل السنة والمذاهب التى أخذوا بها فى فروع الأحكام فكما يأتى : أجمعوا على أن الله تعالى واحد فرد صمد ، قديم أزلى ، باق أبدى ، وأن ما سواه فهو صنعه وخلقه لا شريك له ، ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شبيه له ، موصوف بكل ما وصف به نفسه من الحياة ، والعلم ، والقدرة والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، مسمى بكل ما سمى به نفسه ، ليس بجسم فإن الجسم ما كان مُؤَلَّفاً والمؤَلِّف يحتاج إلى مؤلِّف ، ولا هو بجوهر فإن الجوهر ما كان متحيزاً والرب سبحانه وتعالى ليس بمتحيز ، بل هو خالق كل متحيز ، ولا هو عرض فإن العرض لا يبقى ، ولأنه يحتاج إلى الجوهر وهو سبحانه وتعالى لا يكيفه العقل ، ولا يمثله الفكر ، ولا تلحقه العبارات ولا تعينه الإشارات ، ولا تحيط به الأفكار ، ولا تدركه الأبصار ، العقول محجوبة عن درك حقيقته ، إذ العقول للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

وقالوا فى الاستواء : ما قاله مالك بن أنس رحمه الله حين سئل عن ذلك ، فقال : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » ، وكذلك مذهبهم فى النزول . وأجمعوا على أن كلام الله تعالى قديم غير محدث .

---

(١) من حديث البخارى رواه قيس عن المغيرة بن شعبة .

وأجمعوا على جواز رؤية الله تعالى فى الدار الآخرة بالأبصار ، وأوجبوه بالآيات الظاهرة ، والأخبار الصحيحة ، وإنما نفى الله تعالى الإدراك بالأبصار ، لأن ذلك يوجب كيفية وإحاطة ، وليست كذلك الرؤية ، والنبى ﷺ شبه النظر بالنظر ، لا المنظور بالمنظور إليه ، بقوله ﷺ : « **إنكم سترون ربكم** »[1] الحديث .

وأجمعوا على الإقرار والإيمان بجملة ما ورد فى الكتاب العزيز ، وجاءت به الروايات الصحيحة عنه ﷺ ، من إعادة الأرواح إلى الأبدان وبعثها للحساب ، والمجازاة ، والجنة ، والنار ، واللوح ، والقلم ، والحوض ، والصراط ، والشفاعة والميزان ، والصور ، وعذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وإخراج قوم من النار بالشفاعة ، وأن أهلها فيها مخلدون غير أهل الكبائر من المؤمنين فإنهم لا يخلدون فى النار .

وأجمعوا على أنه خالق لأفعال العباد ، وأن الخلق كلهم يموتون بأجلهم ، وأن المقتول يموت بأجله ، وأن الشرك والمعاصى كلها بقضاء الله وقدره من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة ، بل لله الحجة البالغة ، ولا يرضى لعباده الكفر ، والمعاصى والرضا غير الإرادة ، ويرون الصلاة خلف كل بار وفاجر من الولاة ، ولا يوجبون الثواب بالطاعة ، ولا العقاب بالكبيرة ، وينكرون على المعتزلة ، والقدرية ، والجهمية ، والمشبهة ، والمعطلة ، والخوارج ، والروافض ، وسائر أهل البدع ، ولا يرون الخروج على الولاة وإن كانوا ظلمة ، وأجمعوا أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء ، وأن الله ختم به النبوة ، وأجمعوا على تفضيل الرسل على الملائكة ، وأن بين الملائكة تفاضلا كما بين الأنبياء .

وأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، وأن من ترك الإقرار فهو كافر ، ومن ترك التصديق فهو منافق ، ومن ترك العمل فهو فاسق ، وأن الإيمان يزيد وينقص ، وأن المعرفة بالقلب لا تنفع ما لم يتكلم بكلمتى الشهادة إلا أن يكون له عذر يثبته بالشرع ، ويرون الاستثناء فى الإيمان من غير شك .

وأجمعوا على أن أفعال العباد ليست بسبب للسعادة والشقاوة ، لقوله ﷺ : « **السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه** »[2]

---

(١) أخرجه البخارى عن خالد وهشيم عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله .

(٢) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ونسبه للطبرانى ورمزله بالصحة : ونسبه المناوى للبزار والديلمى وقال : كلهم عن أبى هريرة .

فإن العقاب والثواب ليسا من جهة الاستحقاق ، بل من جهة الفضل والعدل والمشيئة ، وأن الخوف والرجاء زمامان للعبد من سوء الأدب ، وأن كل قلب خلا منهما فهو خراب ، وأن الصفات الذميمة تنفى من العارفين ولا تحمد فى حق المريدين ، وأن العبد ينتقل فى الأحوال والمقامات حتى يصل إلى نعت الروحانيين ، فتظهر عليه الكرامات ، وأن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان فى الدين ، وأوجبوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن نبوة الأنبياء لم تثبت بالمعجزة ، بل بإرسال الله تعالى إياهم ووحيه إليهم . وأما المعجزة فهى لإثبات الحجة على المنكرين ، وأن الأنبياء متعبدون بإظهار المعجزة لإثبات الحجة والأولياء متعبدون بكتمان الكرامة لدفع الفتنة ، وأنكروا المراء فى الدين ، ومنعوا من المناظرة والجدال فى أحكام الدين ، ويرون الاقتصار على الأدون من الثياب دون النفيس منها ، والخلقان والمرقعات أفضل من الجديد ، لأن النبى ﷺ فعل ذلك ، وفعله أهل الصفة وغيرهم من أجلاء الصحابة . وفى البخارى : أن ستين من أصحاب الصفة لم يكن لهم أردية .

المذاهب التى أخذوا بها فى فروع الدين :

وأوجبوا طلب العلم وتعلمه لقوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » .(١)

واختاروا من المذاهب فى أحكام الفروع مذهب فقهاء أصحاب الحديث ، ويرون أن اختلاف الفقهاء فى الفروع رحمة . من الحديث الوارد .

وأوجبوا طلب الحديث وسماعه وحفظه وروايته وكتابته ، وعظموا المحدثين لأنهم أساس الدين وحراس السنة المدافعون عنها ، وعظموا الفقهاء والمتكلمين والمفسرين ، لقيامهم بعلوم الدين ، وإظهارهم العلوم الخفية ، وتقريرهم الأحكام بالأدلة وردهم على المبتدعين والمخالفين .

---

(١) هذا الحديث ذكره الغزالى فى الإحياء وأخرجه ابن ماجه عن أنس .

العقيدة التى يجب أن يكون عليها كل مسلم :

إعلم أن المريد إذا اعتقد تلك العقيدة ، وعمل بما علمه من العبادات والمعاملات والأخلاق ، يورثه الله تعالى من مشاهد التوحيد ، وغرائب تصريف القدرة ، وبدائع حكم الكائنات ما يجعل قلبه مطمئناً ، ونفسه ساكنة إلى الله تعالى ، ويجعله مقبلا على الله بكله منصباً بكليته إلى جانب القدس الأعلى ، هذا ومواجيد علوم اليقين ، ومشاهدات عين اليقين ، والتمكين فى حق اليقين ، غوامض الأسرار ، تتلقى من الحى للحى ، بعد تزكية النفوس ، ولا يسطر منها إلا ما لابد منه لأهل التسليم .

وبقدر هذا سأشرح لك عقيدتى عن فقه معنى كلمة شهادة التوحيد ، والله أسأل أن يجعلها نوراً للقلوب إنه مجيب الدعاء .

الفصل الاول

فقه شهادة أن لا إله إلا الله

هى ما أجمع عليها أئمة الهدى من السلف الصالح من أهل العلم بالله تعالى ، والخشية من جنابه سبحانه وتعالى ، وهى أول فرض فرض على المؤمنين ،.لأن أول واجب أجمع عليه السلف الصالح هو شهادة التوحيد ، ووصف فضائلها ، وهى شهادة المقربين ، وشهادة الرسول ﷺ .

قال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ **فاعْلَمْ أنّهُ لا إلـٰهَ إلّا الله واسْتَغْفِرْ لِذَنبك** ﴾ .[1] وقال لعباده المؤمنين يأمرهم بمثل ذلك : ﴿ **فاعْلَمُوا أنّما أُنزِلَ بِعِلْم الله وأن لا إلهَ إلّا هُوَ** ﴾ ،[2] ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد ، لا من عدد ، وأول لا ثانى له ، موجود لا شك فيه ، وحاضر لا يغيب ، وعالم لا يجهل ، قادر لا يعجز ، حى لا يموت ، قيوم لا يغفل ، حليم لا يسفه ، سميع بصير ، ملك لا يزول ملكه ، قديم بغير وقت ، آخر بغير حد ، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته ، لم يحدثها لنفسه ، دائم أبد الأبد ، لا نهاية لدوامه ، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه ، لابداية لكينونيته ولا أولية لقدمه ، ولا غاية لأبديته ، آخر فى أوليته ، أول فى آخريته ، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه ، وأنه أمام كل شىء ، ووراء كل شىء ، وفوق كل شىء ومع كل شىء ، وأقرب إلى كل شىء من نفس الشىء ، وأنه مع ذلك ليس محلا للأشياء ، وأن الأشياء ليست محلا له ، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه ، وأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وبكل شىء محيط ، الجو وجه ، والفضاء من ورائه ، والهواء وجه ، والمكان من ورائه ، والحول وجه ، والبعد

---

(١) سورة محمد الأية ١٩ .

(٢) سورة هود الأية ١٤ .

من ورائه ، وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات متصلات بالأجرام اللطاف ، ومنفصلات عن الأجسام الكثاف – من الكثافة – وهى أماكن لما شاء ، داخلة فى قوله : « **ومن كل شيء خلقنا زوجين** » .[٣]

وهى داخلة فى قوله ﷺ : « **ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد** »[١] .

والله جل جَلاله وعظم شأنه هو ذات منفرد بنفسه ، متوحد بأوصافه ، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء بائن من جميع خلقه ، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض ، ليس فى ذاته سواه ، ولا فى سواه من ذاته شيء ، ليس فى الخلق إلا الخلق ، ولا فى الذات إلا الخالق : ﴿ **فتبارَكَ اللهُ أحْسَنُ الخالقين** ﴾ .[١]

وأنه تعالى ذو أسماء وصفات وقدرة وعظمة وكلام ومشيئة وأنوار كلها غير مخلوقة ولا محدثة ، بل لم يزل قائما موجوداً بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته ، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت ، له الخلق والأمر والسلطان والقهر ، يحكم بأمره فى خلقه وملكه ما شاء كيف شاء ، لا معقب لحكمه ، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته ، إن شاء شيئاً كان ، ولا يكون إلا ما شاء ، لاحول لعبد عن معصية إلا برحمته ، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته ، وهو واحد فى جميع ذلك لا شريك له ولا معين فى شيء من ذلك ، ولا يلزمه إثبات الوعيد بل المشيئة إليه فى العفو ، ولا يجب عليه فى الأحكام ما أجرى علينا ولا يختبر بالأفعال ولا يشار بالمقال ، حكيم عادل بحكمة وعدل هما صفتاه ، لا تشبه حكمته بحكمة خلقه ، ولا يقاس عدله بعدل عباده ، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم . ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم ، قد جاوز العقول وفات الأفهام والأوهام والمعقول .

هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه ، نصفه بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﷺ ، وأنه ليس كمثله شيء فى كل شيء بإثبات الأسماء والصفات ، ونفى

---

(١) سورة الذاريات الأية ٤٩ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى عن على بن أبى طالب ورواه مسلم عن أبى عبيدة بن عبد الله .

(٣) سورة المؤمنون الأية ١٤ .

التمثيل والأدوات ، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل موجوداً بصفاته كلها ولم تزل له ، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك ، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية . بل بتوحيد هو متوحد به ، وتفريد هو منفرد به ، لا يجرى عليه القياس ، ولا يمثل بالناس ، ولا ينعت بجنس ، ولا يلمس بحس ، ولا يجنس بشىء ، ولا يزدوج إلى شىء ، وأن ما سوى أسمائه وأنواره وكلامه من الملك والملكوت ، محدث كله ، ومظهر حدث بعد أن لم يكن ، ولم يكن قديماً ولا أول بل كان بأوقات محدثة ، وأزمان مؤقتة .

والله تعالى هو الأزلى الذى لم يزل ، الأبدى الذى لم يحل ، القيوم بقيومية هى صفته ، الديموم بديمومية هى نعته ، أول بلا أول ، ولا عن أول ، آخر لا إلى آخر بكينونة هى حقيقته ، أحد صمد لم يلد ؛ وبمعناها لم يولد ، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شىء ، ولم يتولد منه شىء ، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شىء كما لم تخلق ذاته من شىء ، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علواً كبيراً .

هذا ما انطوى عليه القلب من علم كلمة ﴿ أشهد أن لا إله إلا الله﴾ الذى فرضه الله على المؤمنين ، بنص كتابه كما تقدم فى الآية ، ومتى تحقق القلب باليقين بها باشره حق اليقين ، فشهد من مشاهد التوحيد ، وبدائع حكمة الحكيم ، وعجائب تصريف قدرة القادر ، وأنوار غيب الواحد الأحد ؛ ما يعجز عنه البيان ، ويقصر عن إدراكه العقل ، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومتى وهب شرح الصدر ، وصفى الخيال .

الفصل الثانى

فقه شهادة أن محمداً رسول الله

قال الله تعالى فى محكم تنزيله : ﴿ وإذْ أخذَ اللّهُ مَيثاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتيْتُكمْ منْ كتابٍ وَحِكْمةٍ ثم جاءَكُمْ رسُولٌ مُصَدّقٌ لما مَعَكُمْ لتُومِنُنَّ به ولَتَنصُرُنَّه قال أأقْرَرتُمْ وأخذْتُم على ذَلِكُمْ إصْرِى قَالُوا أقْرَرْنَا ، قال فاشْهَدوا وأنا معكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [1] ، وقال عز وجل : ﴿ منْ يطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطاعَ الله ﴾[2] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إنَّ الذينَ يُبايِعونك إنّما يُبايعون الله ﴾ [3] ففرضها علينا أن نشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، خاتم الأنبياء لانبى بعده ، وكتابه خاتم الكتب لاكتاب بعده ، وهو مهيمن على كل كتاب ، ومصدق لما سلف من الكتب قبله ، وأن شريعته ناسخة للشرائع ؛ قاضية عليها ، إلا ما أقره كتابه ووافقه ، وكتابه شاهد على الكتب ، وحاكم عليها ، وأنه هو الذى بشر به عيسى عليه السلام أمته ، وهو الذى أخبربه موسى عليه السلام أمته ، وهو المذكور فى التوراة ، والإنجيل ، وسائر كتب الله عز وجل المنزلة ، وهو الذى أخذ الله ميثاق النَّبِيِّينَ أن يؤمنوا به ، وينصروه لو أدركوه ، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم ، وهو الذى أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به ، وأمرتهم بتصديقه ، وأخبرتهم بظهوره ، وأن موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول فى شريعته ، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرة بالله ، لجحودهم رسالته ، وأن إيمانهم بكتابه مفترض عليهم مأمور به فى كتبهم ، وعلى ألسنة رسلهم ، وأن طاعته ومحبته فريضة واجبة على الكافة ، كطاعة الله تعالى ، واتباع أمره ،

(١) سورة آل عمران الأية ٨١ .
(٢) سورة النساء الأية ٨٠ .
(٣) سورة الفتح الأية ١٠ .

واجتناب نهيه ، مفترضان على الأمة إيجابا أوجبه الله تعالى له ، وفرضا افترضه على خلقه متصلا بفرائضه .

فضائل النطق واليقين بها :

قال الله تعالى ﴿ **قُلْ إِنْ كُنتُم تُحِبُّون اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لكمُ ذنوبكم** ﴾[1] ، وقال الرسول ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من أهله وماله والناسِ أجمعينَ** » .[2] وقال ﷺ : « **لو أدرَكَنِي موسى وعيسى ما وسِعَهمُا إلا اتباعى** » .

وقال الله تعالى فى تحقيق المحبة :﴿ **يُحِبّونَ مَن هَاجَرَ إليْهِمْ** ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ **وَيُؤثِرُون على أنفُسِهِمْ ولَوْ كان بهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾[3] . فمن محبة الرسول ﷺ إيثار سننه على الرأى والمعقول ، ونصرته بالمال والنفس والقول ، وعلامة محبته اتباعه ظاهراً وباطناً ، فمن اتباعه ظاهرا أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بشمائله وآدابه ، والاقتفاء لآثاره ، والتحسس عن أخباره ، والزهد فى الدنيا والإعراض عن أبنائها ، ومجانبة أهل الغفلة والهوى ، والترك للتكاثر والتفاخر من الدنيا ، والإقبال على أعمال الآخرة ، والتقرب من أهلها ، والحب للفقراء ، والتحبب إليهم ، وتقريبهم وكثرة مجالستهم ، واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا ، ثم الحب فى الله للقريب المحب ، وهم العلماء والعباد والزهاد ، والبغض فى الله للبعيد المبغض ، وهم الظلمة المبتدعة والفسقة المجاهرون . ومن اتباع حاله فى الباطن مقامات اليقين ، ومشاهدات علوم الإيمان مثل : الخوف والرضا والشكر والحياء والتسليم والتوكل والشوق والمحبة وإفراغ القلب لله ؛ وإفراد الهم بالله ، ووجود الطمأنينة بذكر الله ، فهذه معاملات الخصوص وبعض معانى باطن الرسول ﷺ ؛ وهو من اتباعه ظاهراً وباطناً ، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيب موفور ، أعنى قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُم اللهُ** ﴾[4] .

---

(١) سورة آل عمران الأية ٣١ .

(٢) ذكره الغزالى فى الإحياء متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم .

(٣) سورة الحشر الأية ٩ .

(٤) سورة آل عمران الأية ٣١ .

وقد كان سهل يقول : علامة المحبة لله اتباع الرسول ، وعلامة اتباع الرسول ﷺ الزهد فى الدنيا . وقال أيضا فى تفسير قوله : ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسُولَ فأولئِكَ مَعَ الَّذين أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ** ﴾[1]

قال : يطع الله فى فرائضه ، والرسول فى الدخول فى سننه ، فإذا اجتنب العبد البدع ، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ ، فقد اتبعه وقد أحب الله تعالى ، وكان معه ﷺ غدا مرافقاً فى منزلته .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩ .

الباب الثانى

العبـــادات

الفصل الاول

الصـــــلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه ، وشكر للمنعم متجددٌ على عميم نعماه مكررٌ فى كل يوم جديد ، وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه محمد ﷺ ، واختار لهم الصلاة ، فقال تعالى : ﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً** ﴾ [1]

وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى : ﴿ **إنّمَا الْمُؤْمِنُون الذينَ إذا ذُكِرَ الله وجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإذا تُلِيَت عليهِم آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً وعلى رّبهِم يَتَوَكَّلونَ . الّذِيْنَ يُقِيمُونَ الصَّلاة** ﴾[2] .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : « **سألت رسول الله ﷺ أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة لوقتها**[3] ، وقال ﷺ : « **بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة** »[4] . وقال رسول الله ﷺ : « **مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع**[5] » .

---

(١) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٢) سورة الانفال الآية ٢ ، ٣ .

(٣) متفق عليه من حديث ابن مسعود ،

(٤) رواه مسلم عن جابر .

(٥) حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن .

وقال الله تعالى :﴿ **إنَّ الصَّلاةَ كانتْ على المؤْمنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**[1] ﴾ ومن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع .

الطهارة :

قال الله تعالى : ﴿ **فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتطهَّروا والله يُحِبُّ المطَّهِّرين**[2] ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « **لا يقبل الله صلاة بغير طهور**[3] » ،

وقال عليه الصلاة والسلام :« **الطهور نصف الإيمان**[4] » ، وقال ﷺ : « **مفتاح الصلاة الطهور** [5] » .

أول الطهارة الاستنجاء :

والاستنجاء هو إزالة الحدث بالماء أو بالأحجار ، ويشترط فى الماء أو الأحجار الطهارة ، واعتقاد زوال الخبث .

سننه :

سننه وتر الاستجمار ، وأقله حجر واحد إن أوعب . أى إن كفى . وأفضله ثلاث إلى سبع ومباشرة الأذى بالشمال ، بأن يأخذ الحجر بشماله . ويسن فى الماء أن يباشر بالشمال ولا يستقبل القبلة فى الفضاء ، ولا يستجمر بعظم ولا روث ، وأن يرفع عقب قدمه اليمنى عن الأرض عند الحاجة تسهيلا لها .

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٨ .

(٣) رواه الترمذى عن ابن عمر .

(٤) من حديث الترمذى وهو حسن .

(٥) من حديث على وقال الترمذى صحيح .

الوضوء :

قال رسول الله ﷺ : «**من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**[1] » . وقال ﷺ : « **ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط** »[2] رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

موجبات الوضوء :

قال رسول الله ﷺ : « **لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ** »[3] وموجبات الوضوء أحداث أو أسبابها .

الحدث :

ما يخرج من أحد المخرجين معتاداً فى الصحة .

أنواعهما : البول والمذى والودى من الفرج للرجال والنساء ، والاستحاضة والهاذى من النساء ، والفساء والضراط والغائط من الدبر .

أسباب الحدث :

النوم ، السكر، الإغماء ، مس الاجنبية مع قصد اللذة أو وجودها ، لمس الذكر بباطن الكف مباشرة . قال رسول الله ﷺ : « **لا وضوء إلا من صوت أو ريح** »[4] ، وقال ﷺ : « **من المذى الوضوء ، ومن المنى الغسل** »[5] ، وقال ﷺ « **إذا أفضى أحدكم إلى ذكره بيده وليس بينه وبينها شيء فليتوضأ**[6] » .

(١) أخرجه النووى عن عثمان بن عفان : ورواه مسلم .

(٢) الحديث فى سنن النسائى : وأورده السيوطى فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٤) أخرجه الترمذى برواية أبى هريرة وقال حسن صحيح .

(٥) اخرجه الترمذى عن على بن ابى طالب وقال حسن صحيح .

(٦) ذكره الشافعى فى مسنده ، وفى الأم ، والبويطى بأسانيده ، ورواه البيهقى عن أبى هريرة .

العمل فى الوضوء :

قيل لعبد الله بن زيد بن عاصم : « كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فدعا بوضوء فأفرغ على يده اليمنى فغسل يديه مرتين وهو سنة ، ثم مضمض واستنثر ثلاثا وهما سنة ، ثم غسل وجهه ثلاثا وغسل الوجه فرض والتثليث سنة ، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين وغسلهما فريضة ، ثم مسح رأسه بيديه وهو فريضة فأقبل بهما وأدبر ، وبدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه والرد سنة ، ثم غسل رجليه . وهو فريضة » .

وفى رواية : تمضمض واستنشق ثلاثاً بثلاث غرفات من ماء . وفى رواية : مضمض واستنشق من كف واحدة فعل ذلك ثلاثا ، وقال : مسح برأسه فأقبل بهما وأدبر مرة واحدة ، ثم غسل رجليه إلى الكعبين .

وورد أنه ﷺ « **توضأ مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ثم توضأ مرتين مرتين فقال : من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين ، ثم توضأ ثلاثاً وقال : هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ، ووضوء إبراهيم عليه السلام** »[1]

فرائض الوضوء :

يشترط أولا طهارة الماء ، وأول الفرائض النية ، ثم غسل الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن ، ومن وتد الأذن اليمنى إلى وتد اليسرى ، وغسل اليدين إلى المرفقين ، ومسح جميع الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، ودلك الأعضاء عند الغسل ، والترتيب من غير تأن .

سنن الوضوء :

غسل اليدين إلى الكوعين ثلاثا ، المضمضة والاستنشاق والاستنثار ثلاثاً ثلاثاً ، رد مسح الرأس ، مسح الأذنين ، وتجديد الماء لهما ، ويستحب وضع الإناء المفتوح جهة

---

(١) من حديث ابن عمر .ذكره الغزالى فى الإحياء .

اليمين ، وغسل اليدين خارجه أولا ، والسواك عند كل صلاة . وقال رسول الله ﷺ : « **السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**[1] » .

الغسل :

ما يوجب الغسل ، قال رسول الله ﷺ : «**إذا جلس الرجل بين شعبها الأربع وأجهدها وجب الغسل وإن لم ينزل** . »[2]

موجبات الغسل خمسة :

إنزال المنى فى النوم ، إدخال الذكر أو رأسه فى فرج مطيق ، ولو لم ينزل الماء ، إنزال المنى بلذة معتادة بجماع أو بفكر فى اليقظة ، والحيض ، والنفاس .

العمل فى الغسل :

أكمل العمل فى الغسل أن يضع الإناء عن يمينه ، ثم يسمى الله تعالى ويفرغ الماء على يديه ثلاثاً قبل إدخالهما الإناء ، ثم يغسل ذكره ويستنجى ، ثم يتوضأ للصلاة كاملا إلا غسل قدميه ، ثم يدخل يديه فى الإناء ويحمل الماء ويغسل رأسه ثلاثاً ووجهه وعنقه وأذنيه ، ثم يغسل شقه الأيمن إلى فخذه وساقه ثلاثاً ظهراً وبطناً ، ثم يغسل شقه الأيسر ، كذلك ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه ، و يدلك جميع جسده بيديه معاً ، مع العناية بتخليل شعر الرأس ودلكه ، ثم ينتقل من محله ويغسل قدميه .

فرائض الغسل :

النية ، وتعميم الجسد بالماء ، ودلك جميع الجسد ، وتخليل الشعر ، وما عدا ذلك فسنن .

---

(١) رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحيهما : ورواه البخارى ورواه الطبرانى فى الأوسط والكبير :

(٢) أخرجه البخارى برواية أبى هريرة .

الغسل المسنون :

قال رسول الله ﷺ : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل »[1]

وقال ﷺ : « **حق على كل مسلم كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده** »[2] ويسن للكافر إذا أسلم أن يغتسل ، ويندب الغسل يوم العيدين .

التيـــمـــم :

قال رسول الله ﷺ : « **فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وجعلت لنا تربتها طهوراً** » ، التيمم فرض فاقد الماء ، أو العاجز عن استعماله .

العمل فى التيمم :

سئل مالك كيف التيمم وأين يبلغ به ؟ فقال : يضرب ضربة لوجهه وضربة لليدين ويمسحهما إلى المرفقين ، وكل ما صعد على الأرض من تراب وسباخ وحجر ومدر فهو صعيد طيب . والتيمم يبيح الصلاة ولايرفع الحدث ، ويتيمم الجنب للصلاة ، ولِمَسِّ المصحف ، وللطواف بالكعبة إذا كان فرضه التيمم .

الرعـــاف :

هو الدم الراشح أو السائل أو القاطر من الأنف ، فإن حصل فى الصلاة . فتل فى الرشح على أطراف الأصابع أى : إذا أخذ المصلى السائل الراشح من الأنف على أطراف أصابعه ، وكذلك فى السائل والقاطر يخرج المصلى فيغسل الدم ثم يرجع فيتم صلاته التى كان بها . والأولى للجنب أن يبادر للغسل قبل نومه فإن لم يستطع فليتوضأ ثم ينام أو يأكل إن شاء .

---

(١) رواه الترمذى والبخارى عن ابن عمر .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

المسح على الجبيرة :

من كان به قرحة فى أعضاء الوضوء يضرها الماء ، فالسنة المسح عليها مباشرة إن كان لا يضر ، أو على اللزقة التى توضع عليها إن أمكن ، أو اللفافة ، ولو أخذت أكثر من القرحة ، وإذا سقطت اللفافة فعليه أن يسرع فى ردها ومسحها ، وإلا بطل الوضوء إن تهاون ، وتبطل الصلاة إن سقطت فى الصلاة .

المسح على الخفين :

يرخص المسح عليهما سفراً وحضراً بشرط أن لا يلبسهما ترفاً أو كبراً أو رياء ، بل لمرض أو لخوف مرض ، والرخصة فيهما بشرطين .

شرط فى اللابس . وشرط فى الخفين .

شروط الخفين خمسة :

أن يكون جلداً طاهراً ، مخرزاً ، ساترا لعضو الوضوء ، ممكنا المشى فيه متتابعاً .

شروط اللابس :

أن يلبسهما على طهارة مائية تامة لغير ترف ولا عجب ، واختلف العلماء فى زمنه ، فقال بعضهم : يوم وليلة ، وقال بعضم : سبعة أيام ، وقال بعضهم : ثلاثة ، واستحسن أن يخلع للغسل المسنون أو الواجب ، ولا حد أى ولا زمن محدد والله أعلم .

أوقات الصلاة :

قال رسول الله ﷺ : « **وقت الظهر إذا زالت الشمس ما لم تحضر العصر ، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ، ووقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس ما لم يسقط الشفق ، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط ، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس ، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها**

تطلع بين قرنى شيطان » . ووقت الصبح من طلوح الفجر إلى الإسفار البين ، فإذا أدركه قبل الشمس فهو أداء وإلا فهو قضاء ، ووقت الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله ، وهو أول وقت العصر ، وآخر وقت الظهر الاختيارى ، ويستمر إلى اصفرار الشمس ، وبمغيب الشمس فهما قضاء . ووقت المغرب غروب الشمس وبقدر الفعل . ووقت العشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى الثلث الأول من الليل ، ثم تستمر المغرب والعشاء ضرورين إلى طلوع الفجر فتكونان قضاء .

الآذان والإقامة :

لفظ الأذان هكذا ، الله أكبر ، الله أكبر ، ثم يقول سراً أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، ثم يرفع صوته بهما ثم يقول : حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ؛ لا إله إلا الله ، ويزيد فى الصبح قبل التكبير الأخير ، الصلاة خير من النوم مرتين .

الإقامة :

ولفظها الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله .

شروط الصلاة :

الطهارة ، وستر العورة وهى من السرة إلى الركبة ، واستقبال القبلة ، ودخول الوقت .

العمل فى الصلاة :

قال رسول الله ﷺ : « **لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع**

والسجود[1] » . وقال ﷺ : « **لا تجزىء صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود** »[2] ، ورأى ﷺ رجلا يصلى لا يقيم ظهره فى ركوعه وسجوده فقال له : « **ارجع فصل فإنك لم تصل ، ثم رآه لا يطمئن فى الركوع والسجود فأمره أيضاً بإعادة الصلاة ، ثم علمه الطمأنينة بينهما والقيام فيها ، فقال : حتى تطمئن مفاصلك وتسترخى** »[3].

فعلى المصلى بعد أن يكون قد تحصل على ما يجب عليه للصلاة من الشروط المتقدمة أن ينوى ، والنية هى العزم على العمل المقصود لله تعالى ملاحظاً فى ذلك أنه واقف أمام ربه لعمل أوجبه عليه ، ويجاهد نفسه أن لا يشغل قلبه بغير ما هو فيه . والنية فريضة ، ثم يرفع يديه إلى كتفيه وهو مندوب ، ثم يفتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام ، ولفظها الواجب (الله أكبر) وهى فريضة ، ويقولها واقفاً إلا لعذر ، ثم يقرأ الفاتحة واقفاً فى كل ركعة وهى فريضة فيها ، فإن كان فى العشاء أو الصبح أو المغرب جهر فى الركعة الأولى والثانية وأسر فى الباقى ، ويسر فى الظهر والعصر ، والسر أو الجهر سنة ، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورة من القرآن فى الركعة الأولى والثانية قائماً وهى سنة ، ثم يركع والركوع فرض ، فيهوى مكبراً ويسن أن يمكن كفيه من ركبتيه ، ويفرج بين ذراعيه وبين شقيه إلا إذا كان المصلى امرأة فإنها تنضم ، ويسن أن يجعل ظهره مستوياً مع رأسه ، وأن يسبح فى الركوع ، والطمأنينة فى كل عمل فريضة ، ثم يرفع من الركوع حتى يستوى قائماً والرفع فريضة ، ويسن قوله « سمع الله لمن حمده » للإمام ، و « ربنا ولك الحمد » للمأموم والجمع بينهما للمنفرد ، ثم يهوى ساجداً والسجود فريضة ، والفرض فيه تمكين الجبهة من الأرض ، ويسن أن يكون على سبعة أعظم ؛ الوجه واليدين والركبتين وطرف القدمين، ويندب أن تنبسط اليدان محاذيتين الأذنين ، وأن لا يضمهما لجنبيه ، وأن يباعد بين فخذيه وبطنه ، إلا إذا كان المصلى امرأة فانها تنضم ، ويكبر عندما يخر ساجداً ويدعو بما شاء ، والرفع من السجود فريضة ، والتشهد سنة ، والصلاة على النبى ﷺ سنة ، والسلام على اليمين فريضة .

---

(١) رواه أحمد من حديث أبى هريرة بإسناد حسن .

(٢) أخرجه الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى حسن صحيح .

(٣) الحديث رواه النسائى والبخارى ومسلم عن أبى هريرة .

أحب العمل فى الصلاة :

وأحب العمل فى الصلاة إلىّ . ما ثبت عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وأخبروا عنه أنه عمل رسول الله ﷺ ، واستنبط من الأحاديث الواردة فى الموطأ والصحيحين وغيرها ، وما تلقيته بالعمل عمن صحبتهم من أهل الرواية عملا ، المحافظين على السنة العملية . والعمل كما أبين : أن يقف المصلى ناظراً ببصره إلى موضع قدميه ، واضعاً ذقنه على صدره ، موجهاً وجهه وجسمه إلى القبلة ، خاشع الظاهر لأنه دليل على خشوع الباطن ، ثم بعد النية يرفع يديه إلى شحمة الأذنين ، وقد ورد أن رسول الله ﷺ رفعهما إلى شحمة الأذنين ، ولكتفيه ، ولأعلى الأذنين ، ثم يقول : الله أكبر ، ويرسل يديه بخشوع ورفق ثم يضع يده اليمنى على يده اليسرى قابضاً على زند كفه اليسرى تحت صدره بخشوع وذل ، ويتوجه إن كان منفرداً قائلا : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلما وما أنا من المشركين . إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

ثم يقرأ الفاتحة ، فإن كان وراء الإمام لا يقرأ التوجه ، ولكن يقرأ الفاتحة عند سكتة الإمام ، وأحب إلى أن يفتتح بالبسملة ملاحظاً فى ذلك السنة ، وأن يختم الفاتحة بآمين ، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورة من القرآن أو ثلاث آيات من أى سورة ما ، ثم ينحنى راكعاً ويرفع يديه عند الركوع ، ويمكن راحتيه من ركبتيه ، ثم يعتدل فى ركوعه ، فيسوى رأسه بظهره ويباعد يديه عن جنبيه قليلا ، ويكبر فى انحطاطه للركوع ، ويسبح فيه ثلاثاً إلى عشر ، ثم يرفع رأسه قائلا : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » ، إذا كان منفرداً حتى يرجع كل إلى موضعه ، مطمئنا فى كل ذلك ثم يرفع يديه ويخر ساجداً فيجافى يديه عن جنبيه ، ويضع راحتيه على الأرض حذاءَ أذنيه أو كتفيه ، ويمكن جبهته وأنفه من الأرض ، ويفرج بين فخذيه من غير أن يحمل بطنه على شيء من فخذيه ، ويدعو الله بما شاء .

وأحب إلىّ أن يسأل الله تعالى المغفرة ، والعفو ، والعافية من فتنة الدنيا ، وفتنة المحيا والممات ، فإذا جلس افترش رجله اليسرى ونصب قدمه اليمنى فجعل صدره جهة القبلة ، ثم يجلس على مقعدته ويضع كفه اليمنى على ركبته اليمنى ، واليسرى على اليسرى ، وأشار بأصبعه السبابة من يده اليمنى ، ويجوز فى الجلوس الوسط أن يجلس على بطن قدمه اليسرى بعد نصب اليمنى ، ويكبر فى سجوده ورفعه ، ولا يرفع يديه .

وأحب إلىَّ فى الركعة الأولى والثالثة ، أن يرفع من السجود جالساً ثم يقوم مكبراً ، وأن يكبر بعد القيام إذا قام بعد التشهد الأول ، ويسلم جهة يمينه لاويا عنقه حتى يرى من على يمينه خده الأيمن من غير أن يتحول جسمه عن القبلة ، ويسلم من على يساره كذلك ، والأولى للمصلي بعد السلام أن يجلس بهيئته مسبحاً مكبراً حامداً الله ثم يرفع يديه لمولاه متملقاً ضارعاً . وأحب إلى أن يسأل ربه خير الدنيا والآخرة ، وصلاح حال المسلمين .

التشهد :

التحيات لله ، الزاكيات لله ، الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . وقد ورد التشهد بروايات أخرى .

الصلاة على النبى بعد التشهد :

اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد ، وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد .

الدعاء فى التشهد :

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيخ الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم ، اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كبيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى فإنك أنت الغفور الرحيم .

العمل فى صلاة المسبوق :

من سبقه الإمام بالقراءة وأدركه راكعاً فليكبر للإحرام مطمئنا ويركع ، فإن مكن كفيه من ركبتيه قبل رفع الإمام اعتد بالركعة وأتم صلاته وراء الإمام ، وإن أدرك الإمام

فى سجود أو جلوس كبر تكبيرة الإحرام ، واتبع الإمام فيما هو عليه ، فإذا قام الإمام قام بدون تكبير وإذا سلم الإمام قام بدون تكبير ولا يعتد بشيء من عمله ، ومن أدرك الإمام فى الثانية أو فى الثالثة أو فى الرابعة يعمل فى صلاته بما أبينه ، فمن أدركه فى الثانية يتبع الإمام حتى يسلم ، فإذا سلم قام فقضى الأولى قراءة وأدى الرابعة عملا ، فيقرأ الفاتحة والسورة فى رابعته سراً فى السر وجهراً فى الجهر ، وتسمى الصلاة ذات الجناحين ، لأن الفاتحة والسورة فى الأولى والرابعة ، وإن أدركه فى الثالثة تابع الإمام ، ثم قام بعد تسليم الإمام فقضى الأولى والثانية قراءة ، بأن يقرأ فى الثالثة والرابعة الفاتحة والسورة سراً أو جهراً ، ويؤدى الثالثة والرابعة عملا ، وتسمى الصلاة المقلوبة ، لأن الثالثة والرابعة بفاتحة وسورة ، وإن أدرك الإمام فى الرابعة تابع الإمام حتى يسلم فيقوم بعد سلام الإمام ، يقضى الأولى قراءة ، وهى ثانية فى العمل ، فيقرأ الفاتحة وسورة ثم يجلس للتشهد فتكون أولى قولا وثانية عملا ، ثم يقوم للثالثة فيجعلها ثانية ، قولا وثالثة عملا ، يقرأ فيها الفاتحة وسورة ثم يرفع من السجود قائماً ، ثم يقوم للرابعة فيصليها رابعة قولا وعملا ، وتسمى ذات القلب ، لأن الركعة الثانية والثالثة بفاتحة وسورة ، والأولى والرابعة بفاتحة .

قضاء الفوائت :

الأولى أن يقضى من عليه فوائت تساهل فيها . اليوم : فى الوقت الواحد على الأقل وإن قصر عن ذلك فيصلى اليوم بين وقتين ، بأن يصلى الصبح والظهر والعصر بعد ارتفاع الشمس ، والمغرب والعشاء قبل صلاة الظهر الحاضرة ، وأحب أن لا يتحرى أوقات الكراهة فى تأدية القضاء إلا لضرورة ، ومن دخل فى صلاة وذكر فائتة وهو وراء الإمام . الأولى أن يتمها نافلة ، ثم يصلى التى نسيها والحاضرة ، وإن كان منفرداً سلم من ركعتين وصلى ما عليه ، ولا بأس بصلاة النوافل فى جماعة فى غير المساجد ، ولا يصلى المصلى فريضة وراء نافلة ، والأولى لمن صلى منفرداً أن يعيد وراء الجماعة مفوضاً .

السهو فى الصلاة :

السهو هو الذهول الخفيف عن سنة مؤكدة أو أكثر ، أو عن ركن من الأركان أو بزيادة ركن ، فمن سها عن سنة مؤكدة أو أكثر ، بأن ترك قراءة السورة بعد الفاتحة فى

الركعة الأولى ، أو فيها وفى الثانية ، أو ترك التشهد والصلاة على النبى ﷺ ، أو ترك التسميع والتحميد فى ركعة أو أكثر ، أو ترك تكبيرتين أو أكثر غير تكبيرة الإحرام ، جبر ذلك بسجدتين قبل السلام ، وإن سها عن ركن قولى كالفاتحة أو تكبيرة الإحرام ، أو فعلى كالركوع أو الرفع منه أو السجود ، فإن ذكر المتروك قبل تمام الركوع الذى يليه تداركه ، وإن ذكره بعد تمام الركوع الذى يليه ألغى الركعة التى وقع فيها السهو ، فمثال التدارك بأن سها عن الفاتحة وذكرها وهو فى السورة ، فإنه يتداركها ، أو ذكرها وهو منحن للركوع قبل أن يرفع من الركوع رفع بقصد التدارك وقرأ الفاتحة وأتم صلاته ، فإن ذكرها بعد الرفع من الركوع أو بعد القيام من السجود وكان فى الركعة الأولى أو بعد التشهد إن كان فى الثانية ، ألغى الركعة التى حصل فيها السهو ، وصارت الرابعة التى هى فيها أولى أو ثانية ، بحسب الركعة التى سها فيها . فإن كانت التى سها فيها الأولى صارت الثانية أولى ، وإن كانت الثانية صارت الثالثة ثانية .

وإن سها فى الرفع من الركوع فإن ذكره فى السجود قام منحنياً ، ثم يطمئن ويرفع ويسجد ، وإن ذكر ذلك فى التشهد فعل ما تقدم ، وإن ذكره بعد قيامه وهو ما دام لم يركع تدارك الركوع بأن يركع ويتم الركعة بسجدتيها بحسب حكمها ، إن كانت أولى أو ثانية أو غير ذلك ويلغى ما وقع منه ، وإن ذكر ذلك بعد الركوع الذى يلى ركعة السهو ألغى ركعة السهو بأن يسقطها من العدد ، وإن سها عن الركوع كله وذكره جالساً أو ساجداً وقف وقرأ آية قرآن ثم ركع ، وإن ذكره من الركعة التى تليها وهو واقف قبل ركوعها فعل ما تقدم بأن يتدارك راكعاً ، وإن سها عن سجدة فإن ذكرها جالساً أتى بها ، وإن ذكرها واقفاً قبل الركوع جلس مطمئنا ثم سجد سجدة وقام واقفاً ، وإن ذكرها بعد الركوع الذى يليها أسقط تلك الركعة من العدد ، ومن تلك المُثُل يمكن المصلى أن يستنبط الأحكام ، وفى كل ذلك يسجد سجدتين بعد السلام أو قبله ما لم يكن ترك سنة مؤكدة أو أكثر فإنه يسجد قبل السلام فى كل ذلك قال ﷺ : **« إن أحدكم إذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه حتى لايدرى كم صلى ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس »**(١)

(١) رواه البخارى والترمذى .

السهو فى العدد :

قال رسول الله ﷺ : « **إذا شك أحدكم فى صلاته فلم يدركم صلى ثلاثاً أو أربعاً فليطرح الشك على ما استيقن ، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم ، فإن كان صلى خمساً شفعها بهاتين السجدتين ، وإن كان صلى إتماماً لأربع كانتا ترغيما للشيطان**[1] » .

عن عبد الله بن مسعود قال « **إن رسول الله ﷺ صلى الظهر خمساً فقيل له : أزيد فى الصلاة ، فقال : وما ذاك ؟ قالوا : صليت خمساً فسجد سجدتين بعدما سلم وقال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى ، وإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه ، ثم ليسلم ثم يسجد سجدتين**[2] » فحكم من سها فى عدد صلاته أن يبنى على الأقل ثم يسجد قبل السلام سجدتين أو بعده .

حكم من سها ، فقام فى الثانية قبل التشهد ، أو قام فى الرابعة ، أو جلس فى الأولى ، أو الثالثة : حكم من قام فى الثانية أنه لا يجلس ولو ذكرأو ذكره غيره ، وعليه أن يسجد سجدتين قبل السلام ، ومن قام فى الرابعة فعليه أن يجلس عند ذكره أو تذكيره ويسجد بعد السلام ، ومن جلس فى الأولى أو الثالثة يجب عليه أن يقوم عند ذكره أو تذكيره .

ورد أن النبى ﷺ صلى الظهر فقام فى الركعتين الأوليين ، لم يجلس فقام الناس معه حتى إذا تم وانتظر الناس تسليمه كبر تكبيرتين أى سجد سجدتين قبل أن يسلم ثم سلم .

الجماعة وفضلها :

قال رسول الله ﷺ : « **صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين مرة** » ، وفى رواية : « **صلاة الجماعة تسبق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة** » .[3]

---

(١) رواه مسلم بإسناد صحيح وبمعناه رواه أبو سعيد الخدرى .
(٢) راوه البخارى ومسلم .
(٣) ذكره النووى عن ابن عمر متفق عليه .

تسوية الصف :

قال أبو مسعود الأنصارى رضى الله « عنه : **كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم**[٢] » .

الموقف :

يصلى الواحد على يمين الإمام والأكثر وراءه ، فإن كان رجلا وامرأة وقف الرجل يمين الإمام والمرأة خلفهما ، وإن صلى رجال ونساء وصبيان تقدم الرجال ، وتأخر النساء وتوسط الصبيان ، ولا يقف الإمام فى مقام أرفع من مقام المصلين وراءه ، قال رسول الله ﷺ : « **إذا أم الرجل فلا يقف فى مقام أرفع من مقامهم أو نحو ذلك** » .

الإمامة :

قال رسول الله ﷺ : « **يؤمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، قال : فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سناً ، ولا يؤمُّ الرجل الرجل فى سلطانه – ويروى فى أهله ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه وإذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم بالإمامة أقرؤهم** »[٤]

وقال ﷺ : « **إذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا** » . وقال ﷺ : « **ليؤذن لكم خياركم وليؤمكم أقرؤكم** » ، وقد استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى ، والصلاة جائزة خلف كل مسلم ، باراً كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبو مسعود الأنصارى وأخرجه الترمذى ومسلم .

تخفيف الإمام :

قال ﷺ : « **إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول** » (١) .

المتابعة :

كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قال سمع الله لمن حمده لا ينحنون للسجود حتى يضع النبى ﷺ جبهته على الأرض . فحكم الله تعالى أن المأمومين إذا كبر إمامهم كبروا ، وإذا قال ولا الضالين يقولون آمين ، وإذا ركع يركعوا ، وإذا قال سمع الله لمن حمده قالوا ربنا ولك الحمد . قال رسول الله ﷺ : « **إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فلا تختلفوا عليه ، فإذا ركع فاركعوا ، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد ، وإذا سجد فاسجدوا** » (٢) .

الجمعة :

قال رسول الله ﷺ « **إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه** » .(٣) .

والجمعة لها شروط خاصة بها زيادة على شروط الصلاة المتقدمة : منها أنها لا تصلح إلا فى المسجد ، ولا تصح إلا فى جماعة ، وأقل عددهم اثنا عشر رجلا من أهل الوطن ، ولا بد فيها من الخطبه قبل الصلاة ، ومن تركها مرة لغير عذر اسود ثلث قلبه ، والأولى أن تكون فى المسجد العتيق ، إلا إذا تعددت المساجد لضيق العتيق ، وإلا لاتصح إلا فيه ومن ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه ، وتجب الجمعة على كل مسلم ، إلا امرأة أو صبيا أو مملوكا ، ولا تجب على مسافر يقصر الصلاة ؛ وتصح منهم جميعاً .

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .
(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .
(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

النظافة والتبكير للجمعة :

قال صلى ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلاغفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[1] . وقال ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول » وقال ﷺ : « ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنة ثم كالذى يهدى بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر »[2] والمُهَّجر هو الذى يخرج مبكرا إلى صلاة الجمعة .

أدب المصلى :

لا يقول لأخيه لغوت عند الخطبة ، ولا يقيم أخاه ويجلس موضعه ، ولكن يقول تفسحوا ، ولا يتخطى الناس فإذا كان أمامه فرجة سعى إليها من بين الصفوف ، أو من جوار الجدران ، والأولى أن يأتى مبكراً حتى يتمكن من الجلوس فى الصفوف الأولى ، فإذا تأخر جلس حيث أفضى به المجلس ، ولا يأكل الثوم والبصل قبل الصلاة ، وأن يجلس مستحضرا أنه فى بيت ربه ، وأن ربه أمامه فى قبلته ، مستحضراً عظمة ربه بقلبه ، ويجعل لسانه رطبا بذكره ، ويفسح لأخيه فى المجلس ويغض بصره وصوته خشية من الله تعالى ، لأن ذلك من آداب الجمعة ودليل على يقظة قلب المصلى ، ويصلى ركعتين تحية المسجد عند دخوله ، ويباح له أن يسأل العالم قبل الخطبة بما شاء ، ويباح للعالم أن يجلس للناس قبل الجمعة وبعدها يسألونه فى أمور دينهم .

وقت الجمعة :

وقت الجمعة هو وقت الظهر إلا أن السنة أن الإمام يصليها فى أول وقت الظهر فى أيام البرد ، ويؤخرها إلى نصف القامة فى أيام الحر حتى يأتى الناس مستظلين .

---

(١) أخرجه البخارى عن سلمان الفارسى .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

أذان الجمـــعـة :

كان الأذان للجمعة فى عهد رسول الله ﷺ إذا ارتقى ﷺ المنبر ، ودام هذا العمل فى زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فلما كثر الناس فى زمن عثمان رضى الله عنه ، أمر بأذان ثان وعليه العمل للآن .

الخـــطبة :

كان ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين ، يجلس بينهما ، والخطبة الواجبة يجب أن تجمع حمد الله تعالى ، والصلاة على نبيه ﷺ ، والشهادتين ، والبشارة ، والنذارة . ومن السنة تقصير الخطبة بحسب مناسبة الوقت ، وإطالة الصلاة .

وكان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وارتفع صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، وكان يقرأ القرآن فى كل خطبة ، وكان يكثر من قراءة ق والقرآن المجيد فى خطبه .

المسبوق فى الجمعة :

إذا أدرك المسبوق ركعة من الصلاة أتم جمعته وإذا أدرك الإمام فى التشهد أو السجود قام مصلياً للظهر .

فضائل يوم الجمعة :

يوم الجمعة خير أيام الأسبوع ، فإذا سلِم سلِم الأسبوع ، ليله ونهاره بركة ، وهو اليوم الذى كتبه الله على موسى وعيسى ، ولكن أخطأه اليهود والنصارى ووفقنا الله له ، فعلى المريد الصادق إحياء ليلها ونهارها بنوافل البر وقربات الخير .

الصلوات المسنونة :

إما مؤكدة أو غير مؤكدة . السنن المؤكدة خمس : الوتر ، والعيدان ، والخسوف ، والكسوف ، والاستسقاء .

الوتر وهو ختام صلاة الليل :

وأكثر صلاة صلاها رسول الله ﷺ على ما ورد ثلاث عشرة ركعة أو إحدى عشرة ، وورد أنه ﷺ صلى الوتر فى أول الليل ، وفى وسطه ، وفى آخره ، وهو واسع فمن صلى فى أول الليل أربعا ، ثم قام فى وسط الليل فصلى ست ركعات كل ذلك مثنى مثنى ثم أوتر بواحدة فقد أتى بالسنة ، ومن صلى قبل نومه ثلاث أو خمساً أو سبعاً أو تسعاً أو إحدى عشرة أو ثلاث عشرة أو بعد نومه فى وسط الليل أو آخره فقد أتى بالسنة .

قال رسول الله ﷺ : « **من خاف أن لا يقوم فى آخر الليل فليوتر أوله ، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة آخر الليل مشهودة**[1] » . وذلك أفضل وقال ﷺ : « **إن الله تعالى وتر يحب الوتر فأوتروا ياأهل القرآن** »[2] . وكان ﷺ يقرأ فى الركعة الأولى ، بسبح اسم ربك الأعلى ، وفى الثانية بقل ياأيها الكافرون ؛ ويوتر بقل هو اللهأحد والمعوذتين . وكان ﷺ بعد الوتر يقول سبحان الملك القدوس ، ثلاثاً يرفع صوته فى الثالثة . وكان ﷺ فى آخر وتره يقول : « **اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك** » .

صلاة العيدين :

سنة مؤكدة ، وقتها : حل النافلة . أى : وقت صحة صلاة السنن ، والسنة المجمع عليها أن تصلى العيد بدون أذان وإقامة ، وهى كالجمعة وتختلف عنها بأن وقتها ضحوة ، وأن الخطبة بعد الصلاة ، وأن خطبتها تفتتح بالتكبير ، وأن التكبير فى الركعة الأولى سبع تكبيرات بتكبيرة الإحرام ، وفى الثانية ست بتكبيرة القيام ، والسنة أن تصلى فى الصحراء ، مالم يكن مطر ، والسنة أن الإمام لا يخرج من بيته إلى الصلاة إلا إذا حلت الصلاة . والمصلى الأولى له أن يمكث بعد صلاته حتى يسمع الخطبة ويسن أن يفطر قبل خروجه للصلاة ، فى عيد الفطر ، وبعد رجوعه من الصلاة فى عيد الأضحى ، ويسن له

---

(١) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب ورواه مسلم وابن ماجه والترمذى .

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن خديج وأخرجه المنذرى .

أن يغتسل ويتطيب ، ويتجمل لشهود الصلاة ، وما يباح فى غير يوم العيد فهو سنة فيه من اللعب والأغانى ، والتردد على الإخوان ، والأكل والشرب ، وإدخال السرور على المسلمين .

صلاة كسوف الشمس :

إذا كسفت الشمس أو بعضها يسن صلاة ركعتين فى جماعة كل ركعة بركوعين يطيل القراءة والركوع بقدرها ثم بعد أن يركع الركعتين ، يسجد سجدتين طويلتين كالركوع ، ثم يقوم للركعة الثانية فيركع ركعتين كالأولى ، ثم يسجد سجدتين ثم يخطب بعد السلام يفهم الناس فيها تلك الآية وقدرة الله والخوف من عقوبته .

صلاة خسوف القمر :

إذا خسف القمر أو بعضه يسن على من تجب عليه الصلاة أن يصلى منفردا وفى بيته أفضل ركعتين ركعتين حتى ينجلى .

صلاة الاستسقاء :

إذا حبس المطر ، أو تأخرت زيادة النيل ، يسن على المسلمين أن يخرجوا والأولى أن يشهد هذا المشهد الرجال والنساء ، والعبيد والإماء ، والأولى أن يكونوا بهيئة رثة وخشوع وذل ، ثم يصلون ركعتين فى الصحراء ، ثم بعد الصلاة يستقبل الإمام القبلة ويحول رداءه ، ويستقبل الجماعة القبلة ويحولون أرديتهم ويرفع يديه ، ويدعو ، مبتهلا ويؤمنون ، ثم يخطب لهم خطبة ويعظهم ويحثهم على التعاطف ، والتراحم ، والتواصل ، والتوبة ، ويكرر هذا العمل فى أيام متعددة حتى يمطرهم الله الغيث .

نوافل البر :

ركعتا الفجر قبل صلاة الصبح ، ركعتا الإشراق ، ركعتا الضحى أو ثمان ركعات ، ركعتا الهاجرة أو أربع قبل الظهر ، وركعتان بعده أو أربع ، وركعتان قبل العصر أو أربع ، وركعتان خفيفتان قبل المغرب ، وركعتان أو ست بعده ، وركعتان قبل

العشاء ، وركعتا القيام بعد صلاة العشاء قبل النوم أو أكثر ، وركعتا التهجد بعد النوم أو أكثر كما تقدم فى صلاة الوتر . والسنن التى رغب فيها رسول الله ﷺ سبع عشرة ركعة بما فيها الوتر .

صلاة الجنازة :

يقف الإمام تجاه رأس الرجل ، وتجاه صدر المرأة ، ويكبر أربع تكبيرات بين كل تكبيرة وتكبيرة يحمد الله تعالى ، ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويدعو للميت بما شاء ، وأحب الدعاء ما ورد عن رسول الله ﷺ بالسند الصحيح وهو : « **اللهم إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به ، اللهم إن كان محسناً فزد فى إحسانه ، وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيآته ، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده** » . وتؤنث الضمائر ؛ فيقال « **اللهم إنها أمتك وبنت أمتك ، كانت تشهد أن لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، وأنت أعلم بها ، اللهم إن كانت محسنة فزد فى إحسانها ، وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيآتها ، اللهم لا تحرمنا أجرها ، ولا تفتنا بعدها** » .

المشى أمام الجنائز :

السنة أن يمشى الناس أمام الجنازة ، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، والخلفاء رضى الله عنهم ، والأولى أن الناس يمشون أمامها ، والذين يتنافسون فى الأجر ممن يتبادلون حملها يمشون خلفها ، وعن يمينها وعن شمالها وأمامها والراكب يمشى خلفها .

البكاء على الميت :

أما دمع العين وحزن القلب فمن الرحمة التى أودعها الله فى القلوب ، وإنما يرحم الله من يرحم ، وليس فى ذلك إثم ، وإنما الإثم قول الجاهلية ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب ، وتسويد الأيدى والثياب .

وفى الحديث اشتكى سعد بن عبادة شكوى فأتاه النبى ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم ، فلما دخل وجده فى غاشية ، فبكى النبى ﷺفلما رأى القوم بكاء النبى ﷺ بكوا فقال : « **ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه . أو يرحم ، وأن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه** [١] » . وقال ﷺ : « **ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية**[٢] » . وقال : « **أنا برىء ممن حلق وسلق وخرق**[٣] » . أى أنه برىء ممن أزال شعر رأسه وصاح ورفع صوته ، وشق ثوبه ومزقه .

فالبكاء على المريض عند الموت رحمة ، وبعد الموت الأولى الاسترجاع والصبر إلَّا ما كان من دمع العين ، وحزن القلب فإنه مشهد عبرة وذكرى للآخرة يجعل كل حى يتأهب له ويستعد . ومن السنة صنع الطعام لأهل الميت لشغلهم به ، وتخرج الصدقات التى وصى بها من ماله ، ولا يُتصدق من ماله بعد موته من غير وصيته إذا كان له ورثة قصر فإنها نار لمن أخذها ، ولا بأس بأن يتصدَّقُ عليه من مال والده أو ولده الرشيد .

ومن البدع المضلة التى تملأ القبور ناراً ، ما يعمله النساء من البكاء عند القبور صباحا ومساء ومن لطم الخدود ، وما يعمله الرجال من إعداد الفرش الفاخرة والأنوار الكثيرة ، وإحياء الليالى الكثيرة رياء وفخراً وضياعا لمال الأيتام .

والأولى أن يكفن الميت بالثياب البيضاء بعد تغسيله ثلاث مرات ، أو خمس مرات بالماء والسدر ، والأولى أن لا تتبع الجنائز بالنار كالمباخر ، والسنة الصمت أمام الجنائز والتوجه إلى الله بالقلوب أن يقبل الميت ويغفر له ، ويتفكر معتبراً فى عاقبة الدنيا ويجعل نفسه شفيعاً عند الله للمتوفى . والسنة أن يلحد الميت فى لحد مسنما ، ومن البدع بناء القبور وتجصيصها وعمل الشرافة عليها ، ولو أن كل القبور المجصصة هدمت وسويت بالأرض لكان خيراً ، وإنى لأحب أن يحفر لى ويعمق ويوسع ، ثم ألحد وينصب على اللبن ثم تسوى الأرض فوق وتزرع ، وأرجو أن يكون روضة من رياض الجنة .

---

(١) أخرجه البخارى عن ابن عمر وابن عباس .
(٢) أخرجه البخارى عن مسروق عن عبد الله .
(٣) أخرجه البخارى .

قصر الصلاة :

لما كان المسلم مطالبا بحقوق كثيرة يحتاج للقيام بها إلى الأسفار ، كالحج وطلب العلم ، وصلة الرحم ، والإصلاح بين المتخاصمين ، وعيادة المريض ، وزيارة الإخوان ، والمسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان ، وجلب المتاجر من الثغور الأجنبية إلى بلاد الإسلام ، وكالرحلة فى تعليم الصنائع النافعة ، وكالسياحة فى مشاهدة آثار الله تعالى ، وكالسفر معاونة على البر والتقوى ، لتلك الحكم ولغيرها مما هو فروع عنها رخص الله تعالى للمسلمين أن يقصروا الصلاة .

القصر سنة بشرط أن يكون فى الصلاة الرباعية التى وجبت عليه بعد مفارقته بساتين البلد لأهل الحضر ، ولأهل الخيم بعد مفارقة البيوت ، وبشرط أن يكون السفر سفر طاعة من الأنواع المذكورة ، وأن تكون المسافة قصر وهى أربعة برد تقدر بثمانية وأربعين ميلا ، ويقضى الرباعية إذا فاتته فى السفر ، إذا صلاها بعد رجوعه صلاة سفرية ، ويتم من وصل إلى داره أو وصل إلى بلد ينوى بها إقامة أربعة أيام . وبدخوله محل زوجة دخل بها ولو كان فى نصف طريقه ، ولا يتم إذا نزل ببلد ينوى السفر منها ولم ينو الإقامة أربعة أيام ، وحبسه فى البلد حاجة ينتظر تسهيلها ولو مكث شهور ، وكره اقتداء مسافر بمقيم ، فمن نوى القصر وأتم ساهيا بطلت عليه وبالأولى عامدا ، أما إن سها فى الصلاة ، بأن زاد ركعة فأحكامه أحكام السهو المتقدم . والأولى للمسافر أن يدخل على أهله نهاراً ، وأن يتحفهم بهدية ، وأن يسرع فى الرجوع بعد قضاء حاجته ، وتلك الرخصة لكل مسافر ، براً وبحراً وجواً .

صلاة الخوف :

لما كان الجهاد إنما شرع لإعلاء كلمة الدين ، والمحافظة على أركانه ، فإن وجبت الصلاة فى وقت الجهاد ، فإما أن يكون المسلمون فى ملحمة كبرى ، وهو امتزاج جيش المسلمين بجيش العدو ، فالصلاة على ظهور الخيل ، وبالإيماء ، والمصلى يضرب بسيفه وهو فى صلاته ، ويهجم على العدو وهو فى صلاته ، وإن كان الجيش فى استعداد فالصلاة أن يقسم الإمام الجيش إلى قسمين يأخذ قسما يصلى به ، فإن كانت الصلاة سفرية ، أو كان فى الصبح ، صلى بهم ركعة ثم وقف . وصلى الجماعة . الثانية وهو واقف ، ثم انصرفوا إلى إخوانهم فاحتلوا أماكنهم وجاء النصف الثانى فأدرك الإمام واقفاً

فنووا الصلاة معه وكبروا وقرأ الإمام وصلى بهم الركعة الثانية له التى هى أولى لهم ثم سلم الإمام ، وقاموا فأتوا بالثانية وسلموا وأتوا إخوانهم ، وفى صلاة المغرب يقسم الإمام الجيش نصفين نصف يقف أمام العدو ، والنصف الآخر يصلى ركعتين من المغرب ، ثم يقومون مع الإمام للثالثة ، فيقف الإمام ويتم الجماعة من غير الإمام ثم يسلمون وينصرفون فيحلون محل إخوانهم أمام العدو ، وينصرف من كان أمام العدو إلى الإمام وهو واقف فيصلى بهم ركعة ويسلم ويتمون بعد سلامه المغرب . وإن كانت الصلاة . رباعية قسم الجيش كما تقدم وعمل كما عمل فى الصلاة الثنائية ، إلا أنه يصلى بالقسم الأول ركعتين ويقف وهم يتمون ويصلى بالقسم الثانى الركعتين ويسلم وهم يتمون .

سجود التلاوة :

لما كان الاقتداء بمن هداهم الله مشروعاً فى العقيدة والأخلاق الجميلة ؛ سن رسول الله ﷺ الاقتداء به فى الأعمال الفاضلة ، فسن رسول الله ﷺ سجود التلاوة ويتأكد لقارىء أو سامع توفرت فيه شروط الصلاة ولو كان فى صلاة فريضة أو نافلة عند تلاوة الآى التى تأكد السجود عندها ، والآى التى يسن السجود عند تلاوتها أو سماعها يسجد الإنسان بتكبيرة إحرام ، والأولى تركها ويكبر حال سجوده ، ثم يرفع بتكبير من غير تسليم ، والأولى تلاوة هذا الدعاء فى السجود : **(سجد وجهى للذى خلقه ، وشق سمعه وبصره اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، وامح عنى بها وزراً ، واغفر لى بها كما غفرت لعبدك داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام)** .

الآى التى يتاكد السجود عندها أربعة عشرة آية :

آخر الأعراف عند قوله تعالى : (وله يسجدون) ، وعند قوله تعالى : (والأصال) فى الرعد ، وعند قوله تعالى : (يؤمرون) فى النحل ، وعند قوله تعالى : (خشوعاً) فى الإسراء ، وعند قوله تعالى : (وبكيا) فى مريم ، وعند قوله تعالى : (ما يشاء) فى الحج ، وعند قوله تعالى : (نفوراً) فى الفرقان ، وعند قوله تعالى : (العظيم) فى النمل ، وعند قوله تعالى : (لا يستكبرون) فى السجدة ، و عند قوله تعالى : (وأناب) فى ص ، وعند قوله تعالى : (تعبدون) فى فصلت ، وعند قوله تعالى (واعبدوا) فى النجم ، وعند وقوله تعالى لا يسجدون فى الأنشقاق ، وعند قوله تعالى (واقترب) فى العلق . وكره لمحصل الشروط تركها .

صلاة التسابيح :

عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أن النبى ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب : **ياعماه ، ألا أعلمك ، ألا أمنحك ألا أفعل بك عشر خصال ، إذا أنت فعلت ذلك غفر لك ذنبك أوله وآخره ، خطؤه وعمده ، صغيره وكبيره ، سره وعلانيته ، أن تصلى أربع ركعات ، تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة قلت وأنت قائم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ، ثم تركع فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً ، ثم تهوى ساجداً فتقولها عشراً ، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ، ثم تسجد فتقولها عشراً ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم ، فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تفعل فكل جمعة ، فإن لم تفعل ففى كل شهر ، فإن لم تفعل ففى كل سنة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة**[1] » .

الخواطر فى الصلاة :

اعلم أن المصلى يناجى ربه فعليه ما استطاع أن يوجه قلبه إلى صوب القدس الأعلى لترد عواطف اللطائف وأنوار العوارف ، وعلىّ الواردات حتى يتلقى بقلبه عن ربه سبحانه حكم الصلوات ، وجمال القرب .

ولما كان القلب يلم به لمة من الملك ، ولمة من النفس ، ولمة من الشيطان ، فعلى المصلى إذا أورد الله عليه وارداً ذكره بخير من علم أو حال أو عمل فعليه أن يسارع لفهمه فى العلم ، ويتحلى به فى الحال ، ويسارع إلى عمله فى العمل ، فوارد العلم كفهم الآيات التى يتلوها ، وكشف حكم الصلاة ، ووارد الحال كوارد الحق بانكشاف أسرار عظمة الذى وجه وجهه له ، فيحصل له الخشوع والخشية ، ووارد العمل كوارد الحق الذى يذكره بحق عليه لله أو للخلق ، أو بعمل من أعمال البر ، كان ناسياً له .... الخ .

فى هذا كله يجب عليه المسارعة إلى العمل لأن الله تعالى واجهه بها وهو فى أحب الأعمال إليه ، وذكره بها وهو فى أجمل الأحوال .

---

(١) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب عن عكرمة عن ابن عباس .

وما خطر على قلبه مما يكرهه الله تعالى ويمقت المصلى عليه . فعليه أن يتباعد عنه لأنه سبحانه وتعالى ما أورده عليه فى وقت الصلاة وهو فى مواطن القرب إلا ليوبخه أو يعاتبه ، فالتباعد عنه قربة من الله جلت قدرته ، وعلامة على عنايه الله بالعبد .

وما خطر على قلبه من خواطر التمنى والهوى ، أو ذكر ما مضى من الحظوظ ، أو ما سيأتى فإن ذلك من وسوسة الشيطان . كره أن يفوز المصلى بالأنس بربه ، وبكمال فراغ قلبه وقالبه لجنابه العلى ، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كل ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من تدبير ، أو تعظيم ، أو حمد ، أو دعاء ، أو استغفار .

وما خطر على قلبه من أمر معاشه ، وتصريف أحواله ، وتدبير شأنه من المناجاة ، فذلك من قبل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا ، أما إن خطرت على قلبه همة محظورة ، أو فكرة فى معصية مأزورة ، فهذا هو الهلاك . والبعد يكون عن وصف النفس الأمارة باستحواذ العدو المغوى فهو علامة الإبعاد ، والحجاب دليل المقت والإبعاد والإعراض ، فإذا ابتلى المصلى فى صلاته بهذه المعانى فقد اختبر بذلك ، فعليه أن يعمل فى نفيه مع نَفَسٍ بُدُوِّه ، أى وقت ظهوره ؛ ولا يمكنه من الظهور من قلبه فيملكه ، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه ، ولا يحادثه ولا يطاوله فيخرجه من حد الذكر واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة ، وكل عمل محظور فالهمة به محظوزة ، وفيه نقص ، وكل عمل مباح فالهمة به مباحة ، وفيها فضيلة .

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلها فليعقد النية بذلك ، فإنه قد ذكر به وأريد منه ، ثم ليمض فى صلاته ، ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون ، ومتى يكون ، أو كيف أكون فيه وعنده إذا كان ، فيفوته الإقبال فى الحال بتدبير شأنه فى المآل ، وهذا هو استراق من العدو عليه ، وإلقاء من خدوعه إليه أى استعباد الشيطان وغوايته له ، فإن جاهد هذا المصلى نفسه عن مسامرة الفكر ، وقابل عدوه فى قطع وسوسة الصدر كان مجاهداً فى سبيل الله تعالى ، مقاتلا لمن يليه من أعداء الله تعالى له أجران . أجر الصلاة للتقرب إلى الكريم ، وأجر المصارمة والمحاربة لعدوه الرجيم .

الفصل الثانى

الصيام[1]

الإمساك عن شهوتى البطن والفرج ، وحبس الجوارح عن المحرم ، والاستطالة فى المباح .

ذكر فرائض الصيام :

اعتقاد الصائم أن الصوم إيجاب لله تعالى عليه ، وقربة منه إليه ، وإخلاص به له ، وسقوط فرض عنه ، وأن يجتنب الأكل ، والشرب ، والجماع بعد طلوع الفجر الثانى ، وأن يتم الصيام إلى سقوط قرص الشمس ، وأن لا ينوى فى تضاعيف النهار الخروج من الصوم .

فضائل الصوم ووصف الصائمين :

صوم الخصوص حفظ الجوارح الست ، غض البصر عن الاتساع فى النظر ، وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم أو وزر ، أو القعود مع أهل الباطل ، وحفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة مما إن كتب عنه كان عليه ، وإن حفظ له لم يكن له ، ومراعاة القلب بعكوف الهم عليه ، وقطع الخواطر والأفكار التى كف عن فعلها ، وترك التمنى الذى لا يجدى ، وكف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة ، وحبس الرجل عن السعى فيما لم يؤمر به ولم يندب إليه من غير أعمال البر ، فمن صام تطوعا بهذه الجوارح الست ، أو أفطر بجارحتى الأكل والشرب والجماع فهو عند الله تعالى من

---

١ - راجع كتاب (صيام أهل المدينة المنورة) للإمام أبى العزائم .

الصائمين فى الفضل ، لأنه من الموقنين الحافظين للحدود، ومن أفطر بهذه الست أو بعضها وصام بجارحتى البطن والفرج فما ضيع أكثر مما حفظ ، فهذا مفطر عند العلماء ، صائم عند نفسه .

وقد قال أبو الدرداء : ياحبذا نوم الأكياس كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم ، ولذرة من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين ، ولا يقبل الرجل امرأته فى الصيام إلا إذا كان متمكناً قاهراً لشهوته . وفى الخبر : « **كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش** » ،[1] وهو الذى يصوم عن الحلال ويفطر بالغيبة ، ولا يغض بصره ، ولا يحفظ لسانه . قال رسول الله ﷺ : « **الصوم جنة . أى : وقاية ما لم يخرقها بكذب أو غيبة** »[2] » ، والمراد من الصيام مجانبة الآثام لا الجوع والعطش ، كما أن المراد من الصلاة الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، قال ﷺ : « **من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه** »[3] .

والصيام المفروض ، صيام شهر رمضان للحاضر البالغ العاقل القادر بشرط خلو المرأة من الحيض والنفاس .

والصيام المسنون صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وستة أيام من شوال ، وعرفة ، وعاشوراء ، وسن صيام شعبان إلا أقله ، ويندب كثرة الصيام فى الأشهر الحرم ، ومن تقرب بصيام الاثنين والخميس فقد أحسن إلى نفسه .

---

(١) أخرجه النسائى عن أبى هريرة .
(٢) رواه النسائى والبيهقى فى شعب الإيمان .
(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

الفصل الثالث

الزكاة

هى الطهرة والنمو والبركة ، والحجة الدالة على أنك بعت مالك ونفسك لله سر قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اشْتَرَىٰ من المؤْمنين أنْفُسَهُمْ وأمْوَالَهُم بأنَّ لهمْ الجنَّة ﴾[1] فهو سبحانه يملك النفس والمال ، فيتصرف فى ماله الذى هو فى خزانته التى أقامك خليفة عنه فى تنفيذ أوامره ، بأن تعطى لعياله الفقراء منها ما حكم به لهم وتبقى الباقى فى خزانة الله عندك تتصرف فيه بأمره وحكمه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار ، فأحمى عليها فى نار جهنم ، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره ، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قيل : يارسول الله فالإبل ؟ قال : ولا صاحب الإبل لا يؤدى منها حقها ، من حقها ، حلبها يوم وردها ، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلا واحداً تطؤه بأخفافها ، وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قيل : يارسول الله فالبقر والغنم ، قال : ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شىء ، ليس منها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء ، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قيل : يارسول**

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

الله فالخيل ؟ قال : الخيل ثلاثة هى لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، فأما الذى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات ، ولو أنه قطع طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له ، وأما الذى هى له ستر ، فرجل ربطها تغنيا وتعففاً ثم لم ينس حق الله تعالى فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر . وأما الذى هى عليه وزر، فرجل ربطها فخراً ورياء ونواء لأهل الإسلام فهى على ذلك وزر[1] » . وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « ما أنزل الله على فيها شىء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[2] .

فرائض الزكاة أربع :

الحرية ، صحة الملك ، وجوب النصاب ، وهو مائتا درهم من الفضة ، ومن الذهب عشرون ديناراً ، واستكمال الحول ، وهو من شهر إلى مثله .

الأنواع التى تجب فيها الزكاة :

العين وهى الذهب والفضة والنقدان منهما ، والماشية وهى الإبل والبقر ، ويدخل فيه الجواميس والغنم ويدخل فيها المعز ، والحرث وهو الحبوب المأكولة ، ومن الثمار الزيتون والتمر والزبيب .

النصاب من كل نوع :

لا زكاة فى العين من الذهب فى أقل من عشرين ديناراً ، ومن الفضة لازكاة فى أقل من مائتى درهم .

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٢) سورة الزلزلة آية ٧ ، ٨ .

نصاب الإبل :

لا زكاة فى أقل من خمسة من الإبل ، ومن الغنم لا زكاة فى أقل من أربعين شاة ، ومن البقر لا زكاة فى أقل من ثلاثين .

ما يخرج من كل نوع :

أما ما يخرج من العين فربع العشر ، وأما ما يخرج من الحبوب المأكولة فالعشر إن كانت سقياها بغير آلة ، ونصف العشر إن كانت بآلة ، أما الماشية فزكاة الإبل على كل خمسة من الإبل شاة إلى تسع ، وعلى العشرة منها شاتان إلى أربع عشرة ، وعلى خمس عشرة ثلاث : إلى تسع عشرة ، وعلى عشرين أربع إلى أربع وعشرين ، وهذا الخارج من الزكاة من غير نوع المزكى ، ومن خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين ابنة مخاض ، فإن لم توجد ابنة مخاض فابن لبون ذكر ، ومن ست وثلاثين إلى خمس وأربعين ابنة لبون ، ومن ست وأربعين إلى ستين . حقة طروقة الفحل ، ومن إحدى وستين إلى خمس وسبعين جذعة ، ومن ست وسبعين إلى تسعين ابنتا لبون ، ومن إحدى وتسعين إلى مائة وعشرين حقتان طروقتا الفحل ، فما زاد عن عشرين ومائة من الإبل ففى كل اربعين ابنة لبون ، وفى كل خمسين حقة .

ما يخرج من الغنم :

إنما تزكى الغنم السائمة فإذا بلغت أربعين ففيها شاة إلى مائة وعشرين ، ومن مائة وإحدى وعشرين شاتان حتى تبلغ مائتين ، وفى إحدى ومائتين إلى ثلاثمائة ثلاث شياه ، فإن زادت عن ذلك ففى كل مائة شاة ، ويتحرى عامل الزكاة أن لا يأخذ الفحل ، ولاكرامها ، ولا يقبل هرمة ، ولا عوراء ، ولا عجفاء ، ولا يجمع المالك بين مفترق ، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة ، وما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسوية .

ما يؤخذ من البقر : لا تزكى إلا البقر السائمة لا العاملة ، فيؤخذ منها من كل ثلاثين عجلا تبيعاً إلى تسع وثلاثين ، وفى الأربعين مسنة .

زكاة التجار :

التاجر المحتكر يزكى ماله يوم بيع عروضه أى بضاعته عن سنة واحدة ولو حبسها أكثر ، أما التاجر المدير فانه يقوم ماله فى كل سنة ويزكيه ولو كان متفرقاً فى أيدى العمال ، ولا يزكى الدين إلا بعد قبضه عن سنة واحدة ، ولو تأخر أكثر ، ومن أودع وديعة فعليه أن يزكيها عن كل سنة ، ومن فقد مالا ثم رد عليه فعليه زكاة سنة واحدة ، ولو تأخر عنه أكثر وإذا أخرج من زيت الزيتون فعليه نصف العشر .

حكم الخليطين فى الماشية :

أن يؤخذ منهما الزكاة ثم يعود كل منهما على صاحبه بقدر ماشيته ، بشرط أن يكون الماء والفحل والراعى واحداً ، هذا إذا كان لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، أو كان لكل واحد منهما ما لا تجب فيه الصدقة ، فإن كان لأحدهما ما تجب فيه الصدقة وللآخر ما لاتجب فيه ، بأن كان لأحدهما أربعين شاة وللآخر أقل من الأربعين فالزكاة على الأول .

نصاب الحرث :

لا زكاة فى الحرث فى أقل من خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعا . والصاع أربعة أمداد ، والمُدُّ رطل وثلث .

الوجوه التى تصرف فيها الصدقة :

قال الله تعالى : ﴿ **إنّما الصَّدقاتُ للفقراءِ والمساكِين والعَاملينَ عليها والمؤَلَّفةِ قلوبُهُمْ وفى الرّقابِ والغَارمينَ وَفى سَبيلِ الله وابنِ السَّبِيلِ**[1] ﴾

والأمر عند العلماء أن الوالى أو مالك المال له أن يجتهد فى أن يدفع صدقته فى أى نوع إذا رأى المصلحة فى ذلك بحسب الاجتهاد ، ومقتضيات الاجتهاد .

---

(١) سورة التوبة آية ٦٠ .

من لا تحل له الصدقة :

قال رسول الله ﷺ :« **لا تحل الصدقة لغنى . إلا لخمسة : لغاز فى سبيل الله ، أو لعامل عليها ، أو لغارم ، أو لرجل اشتراها بماله ، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغنى ، ولا تحل الصدقة لآل محمد ، ولا لمواليهم** » .

زكاة الفطر :

فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، على العبد والحر ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة ، فعلى أهل كل بلد أن يخرجوا زكاة صومهم صاعاً من الحبوب المأكولة غالباً فى بلدهم ، أو من الزبيب أو التمر أو اللبن .

فضل الصدقة :

قال رسول الله ﷺ : « **ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**[1] » . ومن حسن معاملة الله فى إعطاء الصدقة أن تتحقق بأنك أخذت بإعطائك أكثر مما أعطيت ، فضلا عن أن الله تعالى أغناك وأفقر الآخر ، والأولى لك أن تنزل نفسك منزلة الفقير وتنزله منزلة الغنى ، وبدل أن يسألك تسأله ، فتسأله أن يقبل منك والأفضل فى المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفقراء على غيرهم من الأجانب .

روى عن على رضى الله عنه : لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلى من أن أتصدق بعشرين درهما ، ولأن أصله بعشرين درهماً أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم ، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلى من أن أعتق رقبة ؛ ولأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب فكان فضل الصدقة على الصديق دون البعيد كفضل الصدقة على الأقارب دون الأباعد ، لأنه ليس بعد صلة الرحم فى معناها أفضل من صلة الإخوان .

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب .

وكان بعض السلف يقول : أفضل الأعمال صلة الإخوان ، وإعطاء الزكاة لفقراء الصوفية وصلتهم بالهدايا مما يقرب إلى الله تعالى ، لأن قلوبهم مشغولة بالله وبذكره وأبدانهم عاكفة على الله ، وإذا أصابهم جوع أو حاجة شغلتهم عن إقبالهم فمن أعانهم فكأنه أعان على خير عظيم ، ولأنهم إذا وصلهم أحد بهدية أو بصدقة شكروا الله تعالى ورأوا النعمة منه سبحانه وتعالى ، فيكون المعطى أعان على شكر الله الخالص ، ومن أعان على خير فله مثله ثم يجعل زكاة ماله فى أرحامه الذين لا تجب عليه نفقتهم . الأقرب فالأقرب من أخ وأخت وخال وعم وفروعهم ، ثم جيرانه من الفقراء ، ثم أهل ود والديه الفقراء ، كل ذلك يجعل المنفق على مزيد من فضل الله تعالى محبوباً عند الله تعالى ، مطمئن القلب على ماله ونفسه من آفة أو بلية حتى لو قدرها الله تعالى يتداركه باللطف .

الاعتكـــــاف :

هو لزوم المسلم مسجداً مباحاً عكوفا على طاعة الله تعالى ، وفراغاً لقلبه وبدنه لعبادته ، ولا يكون إلا بالصّيام لقوله تعالى : ﴿ **ولا تُباشِرُوهُنَّ وأنتم عاكفون فى المساجد**[1] ﴾ بعد إباحة المباشرة فى ليالى رمضان فذكر الاعتكاف عند ذكر الصيام ، يؤخذ منه أن الصيام ركن فيه ، وعمل رسول الله ﷺ يعين ذلك حيث كان يعتكف فى رمضان .

والأولى للمعتكف أن لا يخرج من المسجد إلا لحاجة الإنسان ، فلا يخرج لعيادة المريض إلا ماراً مُسلِّماً ، ولا يشيع الجنازة ولو جنازة أبيه ، والاعتكاف مندوب فى كل مسجد إلا من نوى أياما يدخل فيها الجمعة ، فالأولى له أن يعتكف بمسجد الجمعة . لأنه بخروجه يفسد الاعتكاف ، والأحب أن يدخل قبل غروب الشمس من الليلة التى يريد أن يعتكف فيها ، والمعتكف مشتغل بالعكوف على ربه لا يشتغل بغيره من التجارات وغيرها ، ويجوز له أن يأمر بأعماله ومصلحة أهله من الأعمال التى لا تشغله فى نفسه ، وكان ﷺ يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، وعمل المعتكف قراءة القرآن ، وذكر الله تعالى ، والتبتل ، والتضرع ، والابتهال لجنابه العلى ، وبه تزكو النفس ، ويصفو القلب .

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٧ .

النـــــــذر :

هو التزام مسلم مكلف عاقل عملا أو بذلا ، قال ﷺ : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه** »[1] ومعنى قوله ﷺ : « **من نذر أن يعصى الله فلا يعصه** » كأن ينذر الرجل أن يمشى إلى الشام أو إلى مصر أو ما أشبه ذلك مما ليس لله بطاعة بأن يقول : إن كلمت فلاناً فلله على أن أمشى إلى الشام أو الى مصر أو ما أشبه ذلك ، وإنما يوفى لله بما له فيه طاعة ، والأولى لمن أراد أن ينذر أن يجعل النذر لله ويعين مصرفه ، ومن البدع المضلة نذر النذور لتذبح عند القبور وهى جاهلية ، وإنما يكون النذر خالصاً لله تعالى ، ولك أن تعين مصرفه كيف شئت .

اليميـــــن :

هو القسَم بالله أو باسم من أسمائه سبحانه أن يعمل أو لا يعمل ، والأيْمان ثلاثة أقسام : يمين غموس ، وهو الذى يغمس صاحبه فى النار ، وذلك أن يفعل الشىء ويقسم أنه لم يفعل ، وهذا يغمس صاحبه فى النار ، ويمين حنث : أن يقسم أن يفعل كذا فهو على حنث حتى يفعل ، ويمين بر : وهو أن يقسم أن لا يفعل فهو على بر حتى يفعل ، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أكثر ما كان النبى ﷺ يحلف « **لا ومقلب القلوب** » . وقال رسول الله ﷺ : « **ألا إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**[2] » . وقال رسول الله ﷺ :« **من حلف فقال فى حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق**[3] » . ومن أقسم على شىء لا يفعله ورأى فعله خيراً فعل وكفر عن يمينه ، ومن أقسم أن يفعل ورأى الترك خيراً ترك وكفر عن يمينه .

كفارة اليمين :

صيام ثلاثة أيام ، أو إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم ، أو عتق رقبة ، قال رسول الله ﷺ « **إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير**[4] » .

---

(١) أخرجه البخارى عن عائشة .
(٢) أخرجه البخارى عن ابن عمر .
(٣) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .
(٤) أخرجه البخارى عن أبى موسى الأشعرى .

الفصل الرابع

الحـــج[1]

هو قصد بيت الله تعالى الحرام ، تأدية لشعائر الله ، وتعظيما لحرماته سبحانه وتعالى . والحج كمال الشريعة ، وتمام الملة ، لقوله تعالى فى القرآن الشريف ورسول الله ﷺ بالموقف الأكبر : ﴿ **اليَوم أكْمَلتُ لكمْ دِينكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ورَضِيتُ لكُمْ الإسْلامَ دِيناً** ﴾[2] ومن مكنه الله تعالى بفضله ونعمته أن يقصده ويزوره فى بيته ، ويقف لمناجاته ولم ينشرح صدره لذلك وتهاون فقد قطع ما بينه وبين ربه . وفى الخبر : **من لم يمنعه من الحج مرض قاطع أو سلطان جائر ومات ولم يحج فلا يبالى مات يهوديا أو نصرانيا**[3] . » وقال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا .

وعن سعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، ومجاهد ، وطاوس : لو علمت رجلا غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه ، وبعضهم كان له جار موسر فمات قبل أن يحج فلم يصل عليه . وقال ابن عباس : من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وفسره فى الآية « **قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت**[4] » ، قال : أحج ، ومثله فيقول : ﴿ **رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وأكُن مِنَ الصالحين** ﴾[5] قال : أزكى وأحج .

---

(١) راجع كتاب هداية السالك إلى علم المناسك للإمام أبى العزائم .
(٢) سورة المائدة آية ٣ .
(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة .
(٤) سورة المؤمنون آية ٩٩ – ١٠٠ .
(٥) سورة المنافقون آية ١١ .

شروط الحج :

الإسلام ، البلوغ ، العقل ، الحرية ، الاستطاعة ، الزاد والراحلة ، وأمن الطريق ، وبدل الزاد الحرفة أو الصنعة النافعة فى الطريق ، وبدل الراحلة القوة على المشى ، وبدل أمن الطريق الرفقة التى تدفع عن نفسها.

فرائض الحج :

أجمع أكثر العلماء على أن فرائض الحج أربعة : الإحرام بالحج ، والوقوف بعرفة إلى ما بعد غروب الشمس من يوم عرفة ومدته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر . وطواف الإفاضة أو الزيارة الذى يقع بعد وقوف عرفة وبعد رمى جمرة العقبة الأولى . والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج سواء كان قبل الوقوف أو بعده ، وغير هذه من الأعمال ، فإما واجب يجبر تركه بنسك ، أو سنة لا شىء عليه فى تركها ، أما هذه الأعمال الأربعة فتركها أو أحدها مبطل للحج .

فضائل الحج :

قال الله تعالى : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**[1] ﴾ . وأشهر الحج شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة .

الرفث والفسوق فى الحج :

فالرفث اسم جامع لكل لغو وخنا وخبث وهجر من الكلام ، ومغازلة النساء وملاعبتهن والتحدث فى شأن الجماع ، والفسوق جمع فسق وهو اسم جامع لكل خروج من طاعة ، ولكل تعدى حد من حدود الله تعالى .

(١) سورة البقرة آية ١٩٧ .

الجـــــدال :

هو وصف مبالغ للخصومة ، والمراء فيما يورث الضغائن ، وفيما لا نفع فيه فهذه ثلاثة أقسام جامعة مختصرة لهذه المعانى المثبتة أمر الله تعالى لتنزيه شعائره ومناسكه منها لأنها مشتملة على الآثام وهن أصول الخطايا والإجرام .

أول فضائله :

حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى ، وأن تكون النفقة حلالا ، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب ، وتفرق الهم ، ويكون الهم مجرداً ، والقلب ساكناً مطمئناً مملوءاً بالذكر ، فارغاً من الهوى ناظراً أمامه غير ملتفت إلى ورائه ، وصحة القصد بحسن الصدق ثم طيب النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد وبذل ذلك ، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى ، والدرهم بسبعمائة درهم ، والحج من سبيل الله روى ذلك عن رسول الله ﷺ . وكان ابن عمر وغيره ويقول : من كرم الرجل طيب زاده فى سفر أى حله ، وكان يقول : أفضل الحجاج أخلصهم نية ، وأزكاهم نفقة ، وأحسنهم يقينا . قال ﷺ : « **الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة** »[٢] وسئل ﷺ « **ما بر الحج ؟ قال : طيب الكلام وإطعام الطعام** » .

---

(١) أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

الباب الثالث

المعاملات

اعلم أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : لا يدخل أسواقنا أحد قبل أن يتعلم البيوع . وكان السلف الصالح رضى الله عنهم يتعلمون الضرورى من الدين عند الدخول فى كل عمل ، فيتعلمون الصلاة عند التمييز ، ويتعلمون الصوم عند رمضان ، ويتعلمون البيوع عند المعاملة ، حتى كان الرجل منهم لا يعمل عملا من الأحكام إلا وقد علم حكم الله فيه ، والعلم فريضة على كل مسلم ، ومن عامل بدون علم وقع فيما حرم الله تعالى من الربا وغيره .

الفصل الأول

عقود التمليكات

أولا : البيـــوع :

قبل أن نتكلم على البيوع نتكلم على الأحاديث الواردة فى الكسب وطلب الحلال . قال رسول الله ﷺ : « **ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه . وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يديه**[1] » وقال ﷺ: « **إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين** »[2] ، فقال :

(١) رواه البخارى عن المقدادبن معديكرب .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

﴿ يأيها الرُّسُلُ كلُوا من الطَّيِّباتِ [1] ﴾ ، وقال : ﴿ يَاأَيُّهاالذّين آمَنُو اكُلُوا مِنَ طِيبّات مَاَ رَزَقْناكُم [2] ﴾ . وقال ﷺ : « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم » ، وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت وكل لحم نبت من السحت كانت النار أولى به [3] » وقال ﷺ : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة له [4] » ونهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب وكسب الزمارة .

المساهلة فى المعاملة :

قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، قال أبو ذر : خابوا وخسروا من هم يارسول الله ؟ قال : المسبل إزاره والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » [5] .

وقال ﷺ : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [6] » .

البيـــــع :

عقد يحتوى على معاوضة البائع والمشترى وأركانه ثلاثة : الأول : صيغته ، الثانى : بائع ومشتر ، والثالث : تقرير ثمن ومثمن .

ويكفى فى الصيغة من المشترى ما يدل على الرضا من إشارة أو كتابة ، أو تسليم ، ويلزم أن يكون البائع عاقلا ، فخرج المجنون ، والصبى الصغير ، والمغمى عليه والمكره إلا من أكرهه السلطان على بيع لوفاء دين . وشرط لزومه تكليف ورشد فى بيع متاع

---

(١) سورة المؤمنون آيه ٥١ .
(٢) سورة البقرة آية ١٧٢ .
(٣) رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى عن أبى بكر الصديق .
(٤) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير تحت رقم ٤٩٥٣ .
(٥) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه وأبو داود والنسائى عن أبى ذر .
(٦) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى .

نفسه ، وشرط العين المباعة . الطهارة ، والانتفاع بها ، والقدرة على تسليمها ، وأن تكون غير منهى عن بيعها ، وأن تكون معلومة للمشترى .

الخيار فى البيع :

هو أن يشترط المشترى لزوم البيع بعد التجربة والمعاينة ، وهذا إنما يتحقق فى الدار والدابة والمملوك ، وما عدا ذلك من المأكول والمشروب وغيرهما ، فلا يتحقق فيه هذا الشرط ، ولذلك فالأولى أن نفهم قوله ﷺ عليه وسلم : « **المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا**[1] » إلا بيع الخيار فلو شرط المشترى أن له خيار النظر أو التجربة فله ذلك فى البيت لشهر ، وفى العبد لجمعة ، وفى الدابة ليوم ، وهذا ما عليه عمل أهل المدينة ، فالبائع والمشترى فى غير العقارات ، والدابة ، والمملوك ، والثوب ، هما بالخيار ما لم يتفرقا وفيها للمشترى خيار الشرط .

الــــربــــا :

معاوضة الذهب بالذهب بزيادة أو استزادة ، أو الفضة بالفضة ، أو الشعير بالشعير ، أو البُر بالبُر ، أما المبادلة فيها مثلا بمثل ، يداً بيد ، سواء بسواء ، فليس رباً ، أما إذا اختلفت الأنواع فى المعاوضة بأن بعت بُراً بذهب أو ذهباً بفضة بزيادة أو استزادة فهو بيع حل . قال سيدنا جابر رضى الله عنه : « **لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه**[2] » .

ثانيــــاً : القــــــرض :

وهو السلف عرفا ، وهو ذو قيمة يعطى لمقترض فى نظير عوض مماثل صفة وقدراً فى ذمة المقترض ، لينتفع به المقترض فقط لا لنفع من أعطى ولا لنفعهما معاً وإلا كان ربا ، وإنما يجوز أن يقترض الرجل الحيوان ، والعروض والنقود ، لا الدار ، والحانوت ، والخان والأرض ، والجارية التى تحل للمقترض . وحرم قرض جر نفعا لمن أعطى

---

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن ابن عمر .

(٢) رواه الترمذى .

كهدية ، وركوب دابة المقترض ، والأكل فى بيته لأجل الدين ، بل وشرب قهوته ، والتظلل بجداره ، كما تحرم الهدية للقاضى ، وذى الجاه ، إلا لوجه شرعى سابق على الولاية والجاه ، وفسد القرض إن جر نفعاً لصاحب المال ولو قليلا ، ورد المقترض على صاحب الدين مثله قدراً وصفة إن تغير ، وعينه إن لم يتغير ، وإن رد أفضل مما اقترضه كان خيراً له إذا لم يشترط ذلك فى العقد ، وإذا اشترطه منع وتعين رد المثل ، وثواب القرض أعظم من ثواب الصدقة عند الله تعالى ، لأن المقترض أحوج ممن يسأل الناس فمن أغاثه أغاثه الله .

ثالثا : الإجـــارة :

عن عبد الله بن مغفل أنه قال : زعم ثابت أن رسول الله ﷺ نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة وقال : لا بأس بها . وقال : احتجم رسول الله ﷺ وأعطى الحجام أجره ، وقال ﷺ : « **ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم** » ، **فقال أصحابه : وأنت ، فقال : نعم** « **كنت أرعى على قراريط لأهل مكة** »[1] .

وقال ﷺ : « **ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر . ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره** » .[2] وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ مروا بماء فيهم لديغ . فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راق إن فى الماء رجلا لديغاً فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاة ، فبرأ . فجاء بالشاة إلى أصحابه فكرهوا ذلك ، وقالوا أخذت على كتاب الله أجراً حتى قدموا المدينة ، فقالوا : يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجراً ، فقال رسول الله ﷺ : « **إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله** »[3] .وفى رواية للبخارى : « **أصبتم اقسموا واضربوا لى معكم سهماً** » .

والإجارة والكراء سواء ، إلا أنهم اصطلحوا على العقد على منافع الآدمى إجارة ، وعلى العقد على منافع الأرض والدور وما ينقل من سفينة وحيوان كراء . وهى عقد معاوضة على تمليك منفعة فخالفت البيع . فإنه : عقد معاوضة على تمليك عين ، وتكون المنفعة بعوض بصيغة أو ما يدل على تمليك المنفعة وأركانها أربعة .

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٣) رواه الترمذى عن أبى سعيد والبخارى عن ابن عباس كشف الخفاجـ٥٩ صـ ١ .

الركن الأول : بائع المنفعة ومشتريها من مؤجر ومستأجر .

الركن الثانى : الصيغة ، فهى كالبيع فتنعقد بما يدل على الرضا .

الركن الثالث : أجرة ، بشرط أن يكون طاهراً منتفعاً به مقدوراً على تسليمه معلوماً ذاتاً وأجلا .

الركن الرابع : منفعة ، وهى المعقود عليها ، لها قيمة معلومة مقدور على تسليمها للمستأجر غير حرام وغير متعينة على المؤجر كالصلاة .

شروطها :

شروط صحتها . العقل ، والطوع ، وشروط اللزوم ، التكليف والرشد ومن أراد المزيد فعليه بالمطولات من الكتب .

رابعـــاً : الإعـــــارة :

عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « **كان النبى ﷺ عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام ، فضربت التى النبى فى بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع النبى ﷺ فلق الصحفة ، ثم جعل يجمع فيها الطعام ويقول غارت أمكم ، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها ، فدفـع إلى التى كسرت صحفتها وأمسك المكسورة** »[1] .

عن أمية بن صفوان عن أبيه : « **أن النبى ﷺ استعار منه أدراعه يوم حنين ، فقال : أغصبا يامحمد ، قال : لا بل إعارة مضمونة** » . وعن أبى أمامة أنه قال : « **سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العارية مؤداة ، والمنحة مردودة ، والدين مقضى ، والزعيم غارم** »[2] وهى أن يملك صاحب العين منفعة العين لغيره زمنا أو عملا بلا عِوض ، وهى مرغب فيها لمعونة المسلمين بالخير .

---

(١) أخرجه البخارى عن أنس .

(٢) رواه الترمذى عن أبى أمامة .

وأركانها أربعة :

الركن الأول : المالك الذى يملك المنفعة لغيره ، ومن وهبت له المنفعة ، والعين المستعارة ، والصيغة أو ما دل على القبول من كتابة أو إشارة ، أو تسليم . وجاز لمالك المنفعة أن يملكها لغيره بالإعارة ، وإنما يملك المنفعة من له التصرف المطلق لا الصبى والمجنون ، والمملوك والسفيه ، وإن جاز لبعضهم التجارة لأنها تمليك بعوض .

الركن الثانى : الممنوح ملك المنفعة وهو المؤهل لأن يتبرع عليه بمثل تلك المنفعة فلا يتبرع بعمل إنسان مسلم لكافر ، ولو كان العامل عبداً ، ولا بمصحف أو كتب أحاديث لعدم أهليته ، ولا تعار آلة الجهاد الحربى .

الركن الثالث : العين التى تملك منفعتها . وشرطها : أن تكون ذات منفعة مباحة من ثياب أو حيوان أو أرض أو بيت ينتفع به مع بقاء لعينه ليردها لصاحبها بعد الانتفاع بها ، فلا تتحقق العارية فى طعام أو شراب أو دنانير لأنه لا يمكنه رد عينها وإنما هى قرضة ، ولا تجوز إعارة جارية للاستمتاع بها ولا لخدمتها عند غير محرم ، ولا يعار رقيق لمن يعتق عليه كوالد لولد ووالدة لولد وأخ .

الركن الرابع : ما دل عليها من صيغة أو إشارة أو كتابة ، وقد تقدم بيانها . ولما كانت الإعارة بلا عوض ، فقولك : أعنّى بدابتك اليوم ، أعنك بدابتى غداً . ليس من الإعارة لأنها بعوض ، وضمن المستعير ما يتهم فيه مما يدعى هلاكه أو ضياعه إلا ببينة كالحلى والثياب ، وما يتجمل به مما شأنه الخفاء . بخلاف ما لا يتهم فيه كالحيوان والعقار والقول للمستعير فى التلف أو الضياع .

الفصل الثانى

عقود الإطاقات

الوكـــالة :

عن عروة بن أبى الجعد البارق : « **أن رسول الله ﷺ أعطاه ديناراً ليشترى له شاة فاشترى شاتين فباع إحداهما بدينار ، وأتاه بشاة ودينار ، فدعا له رسول الله ﷺ فى بيعه بالبركة فكان لو اشترى تراباً لربح فيه** » .

الوكالة : نيابة عن آخر بإذنه فى حق مالى أو غيره بغير شرط موت الموكل ، ولا شرط إمارة لأن الإمارة والقضاء نيابة عن الخلافة لا توكيل ، والتوكيل يكون فى عقد نكاح ، أو بيع ، أو إجارة ، أو فسخ عقد ، أو طلاق ، وإقالة وخلع ، أو أداء دين أو قضائه ، أو عقوبة لمن له ذلك من أمير أو سيد أو زوج ، وتعزير وحد يجوز التوكيل فيها ، وحوالة وإبراء من حق وحج فى غير الفريضة ، وفى الهبة والصدقة والوقف وقبض حق وفى كل ما يقبل النيابة ، لا فيما لا يقبل النيابة من الأعمال البدنية كاليمين والصلاة والصيام ، ولا فى معصية .

أركانها أربعة :

موكل ، ووكيل ، وموكل فيه ، وصيغة ، فلابد من الصيغة أو ما يدل عليها ككتابة أو إشارة أو ما دلت عليه العادة كتصرف الزوج فى مال زوجته ، أو تصرف الأخ الأكبر فى مال إخوته ، ولا بد من قبول الوكيل ولابد من تعيين ما وكل فيه ، فلا تصح بمجرد قوله وكلتك . بل لابد أن يقول للوكيل : فوضت لك الأمر أو وكلتك وكالة

مفوضة ، أو يعين له فى شىء خاص كنكاح أو بيع ، أو شراء ، وللوكيل الموكل على البيع قبض الثمن من المشترى ، وللموكل على الشراء قبض العين التى اشتراها ، وله ردها بعيب ظهر فيها ويطلب من الوكيل الثمن ، وبالعين التى باعها إلا أن يصرح بالبراءة من ذلك ، وفعل الوكيل المصلحة وجوبا ومنع توكيل غير المسلم فى بيع لمسلم أو شراء أو تقاض منه ، وتوكيل عدو على عدوه ، ومنع أن يشترى الوكيل ما وكل فى بيعه لنفسه ، والفروع تعلم من المطولات .

الفصل الثالث

عقود الشركات

الشــركة :

قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل يقول : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما** » . وقال ﷺ : « **أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك** » .

والشركة إما اختياراً وإما قهراً ، فالشركة قهراً كشركة الورثة ، وشركة المجاهدين فى الغنيمة ، والشركة اختياراً كالشركة فى التجارة ، والشركة فى العمل ، والمراد هنا الشركة اختياراً . والشركة عقد مالكين لمالين فأكثر من مالكين على الاتجار فيهما سواء اتحدا فى محل واحد ، أو قام كل واحد منهما فى محل الآخر . أو عقد عاملين على اتحادهما فى عمل ، كخياطة أو حدادة أو نجارة والربح بينهما ، ولزمت الشركة بما يدل عليها لفظا كشاركنى . فيرضى الآخر بسكوت أو إشارة أو كتابة .

فأركانها ثلاثة : العاقدان . والمعقود عليه وهو المال أو الصنعة ، والصيغة وشرطها أن يكونا من أهل التصرف ، والمتصرف هو الحر البالغ الرشيد الذى يصح منه التوكيل بمالين منهما إن اتفقا صرفا ووزنا وجودة ، وتصح بعرضين ، وبنقد من أحدهما وعرض من الآخر ، فإن كانت القيمة قدر العين ، فالشركة بالنصف ، وإن كانت قدرها مرتين ، فالشركة بالثلث والثلثين وتحفظ هذه النسبة بين كل شريكين .

أولا : شركة المفاوضة :

أن يطلق كل واحد التصرف لشريكه فى البيع والشراء ، والأخذ والعطاء بدون توقف على إذن منه ، وهذه الشركة تبيح لكل واحد منهما التبرع فى مال الشركة بهبة

وحطيطة .الحطيطة : هى ما يحط من جملة الحساب فينقص منه . وإعارة آلة وإطعام فقير ، وأن يقارض ويوكل غيره ويودع ، وله أن يشارك وأن يقبل المعيب ويقر بدين لمن لا يتهم عليه ، ويكون الربح على قدر المال .

ثانيـــاً : شركة العنان :

وهى أن يشتركا بشرط أن لا يتصرف أحدهما إلا بإذن الآخر ، وسميت عنانا من عنان الدابة فكأن كل واحد منهما أخذ بعنان صاحبه ، فلو تصرف أحدهما رد الآخر تصرفه ، إن كان تصرفه بدون إذنه ، وضمن إن ضاع ما تصرف فيه . وإن اشترط فى الشركة أن يكون لأحد الشريكين التصرف المطلق ، بأن يستبد بالعمل ، وشريكه ليس له أن يتصرف فى شيء إلا بإذنه ، أرى أن الشركة تكون فاسدة إذا كانا عاملين فيها معا ، وإذا كان المال من شخص والعمل من شخص فلا بأس من تقييدها بشروط مخصوصة .

ثالثاً : شركة العمل :

يجوز لعاملين أو أكثر أن يشتركا إن اتحدا فى العمل ، أو تلازما ، ولكل واحد بقدر عمله ، وحصل التعاون بينهما ، وإن كان كل واحد بمكان إن اشتركا فى آلة العمل كدواء الطبيب وآلة التجارة ، وغيرها بملك أو إجارة ، ويلزم كل واحد منهما ما قبله الآخر ، وما ضمنه بلا إذن منه لأنهما صارا كالرجل الواحد ، فان افترقا فما قبلاه فى اجتماعهما أو قبله أحدهما فى غيبة شريكه لمرض أو عذر إلى ثلاثة أيام فعليهما ضمانه وإلا فعلى من قبل دون الآخر .

رابعـــاً : المساقاة والمزارعة :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « **أن رسول الله ﷺ دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر ، وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم ولرسول الله ﷺ شطر ثمرها ، ويروى على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها** » . وقال ﷺ : « **من زرع فى أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شيء وله نفقته** » .

المزارعـــــة :

هى عقد شركة عمل ، وتقدم أن شركة العمل لا تلزم إلا بمباشرة العمل فلا تلزم بالعقد وإنما تلزم بالبذر ، وقد رأى بعض العلماء أنها عقد إجارة بين المالك وبين الزارع والخلاف بين العلماء فى مدلول المزارعة ، فمن رآها شركة عمل لا يراها لازمة بالحرث وتسوية الأرض وريها حتى يطرح البذر ، ومن رآها عقد إجارة يحكم بلزومها بمجرد العقد ، وعلى العموم فهى من أنواع الشركة ، وينتج من هذا أنه يصح الرجوع عن المزارعة بعد الحرث وتسوية الأرض وريها حتى يحصل البذر قال : وصحت بشرطين :

الشرط الأول : السلامة من كراء الأرض بممنوع .

الشرط الثانى : أن يأخذ كل واحد منهم بقدر ما أخرج .

فان توفر الشرطان صحت وإلا فسدت ، ومسائلها ظاهرة .

الفصل الرابع

عقود التأمينات

الرهـــــن :

ما يضعه المحتاج عند من اقترض منه فيقبضه توثقاً به ، قال الله تعالى : « **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة** »(١) ، وقالت عائشة رضى الله عنها : « **أن النبي ﷺ اشترى طعاماً من يهودى ورهنه درعاً من حديد** »(٢) . وقال رسول الله ﷺ : « **الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونا ، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا ، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة** » ، وقال ﷺ : « **لا يغلق الرهن من صاحبه الذى رهنه . له غنمه وعليه غرمه** » ، ومن أراد أن يعامل الله تعالى ويرغب فيما عنده . فحكم الله فى الرهن كما أبين : أن من رهن نخلا أو كرْماً فثمره لمالكه إلا إذا شرط الراهن ذلك بأن تقوم الأثمار وتسقط من الدين ، ومن رهن داراً أو أرضاً فليس له أن ينتفع بها . إلا أن يؤجرها من مالكها كما يؤجرها الأجنبى بدون محاباة ، فإن وضع يده على الأرض واستغلها مدة تأخير الدين ، أو أقرضه بشرط أن يؤجر له الأرض أو الدار بأقل من قيمتها فهو ربا .

وحكم الله فى الرهن الذى يسمونه بيعاً وفائياً فى هذا الزمن الذى صورته : أن يعطيه داراً أو أرضاً قيمتها مائة ويأخذ منه سبعين ويرهنها له لمدة خمس سنين ، فإذا لم يدفع له المبلغ بعد الخمس سنين صار ملكا للراهن ، فالحكم فى هذا أن مالك الأرض له أن يرد

(١) سورة البقرة آية ٢٨٣ .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى .

هذا المبلغ له بعد مضى الأجل ، وعلى الراهن أن يرد له العين المرهونة ، وأرى أن المال الذى استغله من الأرض رباً ، ولا يرهن النجس كالخمر ، وجلد الميتة والخنزير ، وما أشبهها ، ومن رهن دابة أو عبداً فله أن ينتفع بظهر الدابة وبلبنها وبخدمة العبد لما ينفقه ، وله أن يرهن الثمار قبل أن يبدو صلاحها ، وفى غير وجودها ، بخلاف البيع فإنه ليس له أن يبيع الثمار إلا إذا حان صلاحها .

الغصب :

قال ﷺ : « **من أخذ شبراً من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين** »[١] ، وقال : « **لا يحلبن أحد ماشية امرىء بغير إذنه ، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته فينتقل طعامه ، فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم** » .
عن عبد الله بن زيد عن النبى ﷺ : « **أنه نهى عن النهبة والمثلة** » .

عن سعيد بن زيد عن رسول الله ﷺ **أنه قال** « **من أحياأرضاً ميتة فهى له** »[٢] ، **وليس لعرق ظالم فيه حق** » .وقال : « **ألا لا تظلموا ، ألا لا يحل مال أمرىء إلا بطيب نفس منه** » ، وعنه ﷺ أنه قال : « **لا حلب ولا جنب ولا شغار فى الإسلام ومن انتهب نهبة فليس منا** » . وعنه ﷺ أنه قال : « لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعباً جاداً فمن أخذ عصا أخيه فليردها عليه » .

فالغصب هو أن يقهر إنسان إنسانا على أخذ ماله بلا حرابة ، والغصب غير السرقة وغير الاعتداء على المنفعة . كمن يقهر آخر على أن يزرع أرضه أو يسكن داره أو يأتيه ليلا مختلسا هذا غير غاصب . والغصب من الكبائر وليس له حد مخصوص فى الشريعة والواجب أنه يؤدب بحسب ما يراه الحاكم وما يناسب الغاصب ولو صبياً . بضرب فقط أو بضرب وحبس . وبضرب ونفى ، أو بحبس ونفى ، خصوصاً إذا كان ذا بغى وطغيان مشهوراً بالشر .

وحكم الغصب أن يضمن الغاصب المميز المغصوب بمجرد استيلائه عليه ولو تلف بالقضاء والقدر ، وهذا الحكم يسرى على من جحد الوديعة وهلكت بعد إقراره بها ،

---

(١) رواه أحمد عن أبى هريرة وذكره المنذرى .
(٢) أخرجه البخارى من حديث عمر .

ويضمن من أكل من المغصوب مع علمه بأنه مغصوب قيمة ما أكله لصاحب المال ، وللمغصوب منه الرجوع أوّلا لأنه بأكله منه صار غاصباً .

ويضمن من أكل من المغصوب جاهلا أنه مغصوب إذا عجز الغاصب عن العوض ، ومن اغتصب حيواناً فذبحه فلصاحبه أخذ القيمة ، أو أخذ الحيوان المذبوح بدون زيادة ، كل مغصوب نوعه الغاصب بأن ذبح الحيوان ، أو طحن القمح ، أو فصل العروض ثياباً ، أو اشترى بالنقود طعاما أو غير ذلك ، فالقيمة فى ذمته ، وجاز الأكل منه وشراؤه ولا يلزم الآكل ولا المشترى إثم ولا يرجع عليه المغصوب منه ، لأن قيمته صارت فى ذمةَ الغاصب مع جهل المشترى والآكل ، ومن أنواع الغصب أن يحفر الرجل بئراً فى طريق العامة أو فى ملكه أو فى ملك غيره للضرر ، فإنه يضمن ما يقع فيها ، ومنه من أغرى ظالماً أو قهر غيره على عمل ، ولو كان فى ذلك العمل دفع الضرر عن نفسه فإن عليه الضمان . لأن الإنسان لا يدفع الضرر عن نفسه بمضرة غيره .

اللقطـــــــــة :

عن زيد بن خالد رضى الله عنه أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن اللقطة ، فقال : « **إعرف عفاصها ووكاءها ، ثم عرِّفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها** ، **قال** : **فضالة الغنم** ، **قال** : **هى لك أو لأخيك أو للذئب** ، **قال** : **فضالة الإبل** ، **قال** : **مالك ولها معها سقاؤها وغذاؤها . ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها** »[1] وفى رواية : « **ثم استنفق فان جاء ربها فأدها إليه** » ، وقال : « **من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرفها** » .

وقال ﷺ : « **من وجد اللُّقطة فليشهد ذا عدل أو ذوى عدل ولا يكتم ولا يغيب ، فإن وجد صاحبها فليردها إليه وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء** » ، وقال جابر رضى الله عنه : **رخص لنا رسول الله ﷺ فى العصا والسوط والحبل وأشباهه يلتقطه الرجل ينتفع به** ، فقال ﷺ : « **ألا لا يحل ذو ناب من السباع ، ولا الحمار الأهلى ولا اللقطة من مال المعاهد ، إلا أن يستغنى عنها مالكها** » .

واللقطة : مال مملوك شرعاً لمالكه وجد ضائعاً ببلد أو ببادية ، فالصيد ليس لقطة ، والإنسان الحر والكنوز ، ومال الحربى ، والصبى الصغير المطروح الذى لا عائل له يقال

---

(١) رواه البخارى عن زيد بن خالد .

له لقيط ، والمال الملتقط إما نقداً أو حماراً وفرساً وشاة وكلب صيد وعروضاً ، ووجب رد اللقطة لمن عرف الكيس الذى فيه النقود ، والخيط الذى ربط به ، ومن عرف الكيس والخيط يقضى له باللقطة على من عرف عددها ووزنها بيمين ، وإن عرفها شخصان لم يبلغ الآخر تعريف الأول لها حلفا وقسمت اللقطة بينهما ، والملتقط إذا دفع اللقطة لمن عرفها وجاء ثان لا يضمن ، وللقاضى أن يعمل بالحكم الأول بين من استلم اللقطة وبين من ادعاها ، ووجب على من وجد لقطة أخذها إن خاف عليها الهلاك ووثق من نفسه حفظها وإلا فلا .

حكمها :

يجب على الملتقط إذا كانت اللقطة أكثر من الدينار وكانت لا تفسد من فاكهة وطعام أن يعرفها سنة كاملة على أبواب المساجد ، وفى الأماكن التى يظن أن يجد صاحبها بأن يقول من له أمانة ضائعة ، أو من له مال ، بدون أن يبين شيئاً من علاماتها وأناب غيره بالتعريف ، فإن تهاون وهلكت ضمن ، ولا يعرف الجنيه فما دونه إلا يومين أو ثلاثة . ولا يعرف مالا تلفت إليه النفس كالدرهم والعصا والسوط ، وله أخذها . وقليل من الطعام فله أكله ، وللملتقط بعد السنة أن يتصدق بها أو ينفقها على نفسه .

واختلف فى لقطة مكة فقيل : يجب تعريفها أبداً ، ومن التقط شاة أو بقرة فى الصحراء فله أكلها ولا ضمان عليه إن تعسر عليه ردها للعمران .

حكم الإبل :

لقطة الإبل تترك مطلقا سواء كانت بالصحراء أو بالعمران . وقيل : إن خاف عليها من سبع أو خائن أخذها إلى العمران ، وعرفها سنة ثم يردها لمحلها .

ووجب على من وجد طفلا صغيراً لا قدرة له على القيام بمصالح نفسه أخذه للحفظ . وجوب عين على من وجده بعيداً عن الناس ، ووجوب كفاية على الجماعة ، وأنفق عليه حتى يبلغ ويقدر على الكسب ، ولا رجوع له عليه إلا إن وهب له مال أو تصدق عليه ، أو وجد معه مال حال التقاطه ، واللقيط حر لا رقيق ، وولاؤه للمسلمين ، وحكم بإسلامه إن التقطه مسلم ، والأولى أخذ الآبق ليوصل لسيده .

الفصل الخامس

الـــزواج

قال رسول الله ﷺ : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[1] أى وقاية ، وقال ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك[2] وقال ﷺ : « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة[3] » . وقال جابر رضى الله عنه : « كنا مع النبى ﷺ فى غزوة ، فلما قفلنا وكنا قريباً من المدينة قلت : يارسول الله إنى حديث عهد بعرس ، قال : تزوجت ؟ قلت : نعم ، قال : أبكر أم ثيب ؟ قلت : بل ثيب ، قال : فهلا كانت بكراً تلاعبها وتلاعبك[4] » . وقال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله »[5] .

النظر إلى المخطوبة :

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : « إنى تزوجت امرأة من الأنصار ، قال : فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا[6] » ، وقال رسول الله ﷺ : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » ، وعن المغيرة بن شعبة

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله ابن مسعود .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٣) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه عن إبن عمرو بن العاص .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه الترمذى وابن حبان .

(٦) رواه مسلم عن أبى هريرة .

رضى الله عنه أنه قال : خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ : « **هل نظرت إليها ، فقلت : لا ، قال : فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما**[1] » ،

بيان العوارت :

قال رسول الله ﷺ : « **لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد ، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد** » ، وقال : « **ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحاً أو ذا رحم محرم** » ، وقال رسول الله ﷺ : « **إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل : يارسول الله أرأيت الحمْوَ ، قال : الحمو الموت**[2] » ، عن جرير بن عبد الله أنه قال : « **سألت النبى ﷺ عن نظر الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى**[3] » . عن جابر رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن المرأة تقبل فى صورة شيطان . وتدبر فى صورة شيطان إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت فى قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها ، فإن ذلك يرد ما فى نفسه**[4] » ، وقال ﷺ لعلى : « **ياعلى لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة** [5] » ، وقال ﷺ : « **لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما**[6] » .

الولى فى النكاح واستئذان المرأة :

عن عائشة رضى الله عنها : « **أن النبى ﷺ قال : أيما امرأة نُكِحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل (ثلاثا) فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها ، فإن اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له** »[7] ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه

---

(١) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة .
(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .
(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .
(٤) رواه الترمذى ومسلم عن جابر .
(٥) رواه أحمد والترمذى .
(٦) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى عن عقبة بن عامر .
(٧) رواه الترمذى وابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود .

قال : « **البغايا اللاتى تنكحن أنفسهن بغير بينة** »[١] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اليتيمة تستأمر فى نفسها ، فإن صمتت فهو إذنها وإن أبت فلا جواز عليها**[٢] » ، وقال رسول الله ﷺ « **لا تنكح الثيب حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن ، وإذنها الصموت** [٣] » . وقال ﷺ : « **الأيم أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسهاوإذنها صماتها** [٤] » .

إعلان النكاح والخطبة والشرط :

عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها أنها قالت : جاء النبى ﷺ فدخل حين بُنى على فجلس على فراشى ، فجعلن جويريات لنا يضربن الدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر . إذ قالت إحداهن : وفينا نبى يعلم ما فى غد ، فقال : « **دعى هذا وقولى ما كنت تقولين**[٥] » ، وقال ﷺ : « **أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتهم به الفروج**[٦] » ، وقال ﷺ : « **لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ، حتى ينكح أو يترك**[٧] » ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما « **أن رسول الله ﷺ نهى عن الشغار** » والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق ، وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال رسول الله ﷺ : « **أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد ، واضربوا عليه بالدفوف**[٨] » . وقال ﷺ : « **فصل ما بين الحلال والحرام الدُّفُّ فى النكاح**[٩] » .

---

(١) أخرجه الترمذى عن أبن عباس .

(٢) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة .

(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة .

(٤) أخرجه الترمذى عن ابن عباس ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(٥) أخرجه البخارى والترمذى عن خالد بن ذكوان .

(٦) أخرجه البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر .

(٧) أخرجه البخارى عن أبى هريرة .

(٨) رواه الترمذى .

(٩) أخرجه الترمذى وابن ماجه .

الخطبة :

قال رسول الله ﷺ : « كل خطبة ليس فيها تشهد ، فهي كاليد الجذماء[1] » ، وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال « علّمنا رسول الله ﷺ التشهد في الصلاة والتشهد في الحاجة[2] » .

ستر الوطء :

قال رسول الله ﷺ : « إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها وتنشر سره[3] » .

الصداق :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : « يارسول الله إني وهبت نفسي لك ، فقامت طويلا ، فقام رجل فقال :يارسول الله زوجنيها ، إن لم تكن لك بها حاجة ، فقال : هل عندك من شيء تصدقها ، قال : ما عندي إلا إزاري هذا ، قال : فالتمس ولو خاتماً من حديد ، فالتمس فلم يجد شيئا ، فقال رسول الله ﷺ ، هل معك من القرآن شيء ، قال : نعم سورة كذا وسورة كذا ، فقال زوجتكها بما معك من القرآن فعلّمها[4] » . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ألا لا تغالوا صدقات النساء . وقال رسول الله ﷺ : « من أعطى في صداق امرأته ملء كفيه سويقاً أو تمراً فقد استحل » ، وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنه قال : « أتى النبي ﷺ رجل من بني فزارة ، ومعه امرأة له ، فقال : إني تزوجتها بنعلين – المراد أحضرت لها نعلين أي حذاءين مهراً – ، فقال لها : أرضيت ؟ فقالت : نعم ولو لم يعطني لرضيت ، قال : شأنك وشأنها[5] » .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٥) رواه الترمذي عن عبد الله بن عامر بن ربيعة .

الوليمة :

عن أنس رضى الله عنه « **أن النبى ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة ، فقال : ما هذا ، قال : إنى تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب ، قال : بارك الله لك ، أولم ولو بشاة**[1] » ، وقال أنس رضى الله عنه : « **أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزينب بنت جحش فأشبع الناس خبزاً ولحماً** » . وقال ﷺ : « **شر الطعام طعام الوليمة ، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء ، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله**[2] » ، وقال ﷺ : « **إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما باباً وإن سبق أحدهما فأجب الذى سبق**[3] » . وقال رسول الله ﷺ : « **طعام أول يوم حق وطعام اليوم الثانى سنة وطعام اليوم الثالث سمعة ، ومن سمّع سمّع الله به**[4] » .

عشرة النساء :

عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « **للبكر سبع وللثيب ثلاث**[5] » ، وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : « **اللهم هذه قِسْمتى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك**[6] » . وقال ﷺ : « **إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط**[7] » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج**[8] » ، وقال ﷺ : « **إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج . وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها**

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى عن أنس بن مالك .
(٢) أخرجه البخارى ومسلم وابو داود والنسائى .
(٣) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة .
(٤) رواه الترمذى عن ابن مسعود .
(٥) أخرجه البخارى عن أنس .
(٦) أخرجه الترمذى عن عائشة .
(٧) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة .
(٨) أخرجه البخارى ومسلم عن ابى هريرة .

طلاقها[١]» . وقالت عائشة رضى الله عنها : « **كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقنعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معى** » ، وقالت رضى الله عنها : « **والله لقد رأيت النبى ﷺ يقوم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بالحراب فى المسجد ورسول الله ﷺ يسترنى بردائه لأنظر إلى لعبهم بين أذنه وعاتقه ، ثم يقوم من أجلى حتى أكون أنا التى أنصرف فاقدروا اقدروا الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو**[٢] » . وقالت رضى الله عنها : « **قال لى رسول الله ﷺ إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية . وإذا كنت على غضبى ، فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال : إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : قلت أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك**[٣]» .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح**[٤]» . وفى رواية إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها ، وقال رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع : « **اتقوا الله فى النساءِ فإنكم أخذتموهن بأمانةِ الله واستحللتم فروجهنَّ بكلمةِ الله ، ولكم عليهن أن لا يُواطِئن فُرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف**[٥]» » ، وقال أنس رضى الله عنه : « **آلى رسول الله ﷺ من نسائِه وكانت انفكت رجله فأقام فى مشربة تسعاً وعشرين ليلة ، ثم نزل فقالوا : يارسول الله آليتَ شهراً ، فقال : إن الشَّهر يكون تسعاً وعشرين**[٦]» .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم والنسائى .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد عن عائشة .

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة وأخرجه البحارى وأبو داود والنسائى .

(٥) رواه بن ماحه والترمذى .

(٦) رواه البحارى والترمذى عن أنس .

وقال جابر : عزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين ثم نزلت هذه الآية : ﴿ يَأَيُّها النَّبيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَميلاً . وَإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الله وَرَسُولَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فإنَّ الله أعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أجْرَاً عَظِيماً[1] ﴾ . فبدأ بعائشة رضى الله عنها وقال : ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت : وما هو يارسول الله فتلا عليها الآية ، فقالت : أفيك يارسول الله أستشير أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخِرَة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت ، قال : لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله تعالى لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما ميسراً » ، عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع رسول الله ﷺ فى سفرة قالت : « فسابقتهُ فسَبَقْتُه على رجلى فلما حملت اللحم سابقْتُه فسبقنى ، فقال: هذه بتلك السبقة[2] » وعنها رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى وإذا مات صاحبكم فادعوا له[3] » . عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المرأة إذا صلت خمسها وصامت شهرها ، وأحصنت فرجها وأطاعت بعلها فلتدخل من أى أبواب الجنة شاءت[4] » . قال ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها[5] » . وقال ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة[6] » . عن طلق بن على أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور[7] » . عن معاذ رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنياإلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا[8] » .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٨ - ٢٩ .
(٢) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة
(٣) رواه ابن ماجه والحاكم .
(٤) رواه أحمد والطبرانى .
(٥) رواه الترمذى عن أبى هريره .
(٦) رواه ابن ماجه والترمذى عن أم مسلمة .
(٧) رواه الترمذى .
(٨) رواه ابن ماجه والترمذى .

عن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه أنه قال : « **قلت : يارسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبِّح ولا تهجر إلا فى البيت** » .

أحكام النكاح :

الحكم الأول : النكاح سنة لمن استطاع الوطء ، والصداق ، والنفقة ، على الزوجة ، والقيام بتربية الأولاد ، فمن لم يستطع فليس بسنة فى حقه ، والسنة الصيام إن خشى على نفسه العنت .

الحكم الثانى : أن السنة أن يتزوج المرأة لمالها ولحسبها وجمالها ودينها وذات الدِّين أولى ، والأولى أن يتزوج الرجل البكر .

الحكم الثالث : السنة أن الرجل له أن ينظر إلى من يريد زواجها ولها أن تنظر إليه ، وأدب الشريعة فى هذا أن الخاطب يطلب من الوالد أو الولى أن يعلم المرأة بهذا . ويجمع بينه وبينها مع الولى أو الوالد ويكون ذلك قبل إعلام الناس ، فإن رضى ورضيت أشاع الأمر وإن أبت المرأة أو الرجل لعيب فالأولى ستر هذا الأمر خشية من إشاعة العيوب عن الرجل أو المرأة ، فيكون ذلك مضرًّا بأحدهما ، والنظر لابد أن يكون من المرأة إلى الرجل بعد علمها بقصده ، ومن الرجل إلى المرأة كذلك ، ومن البدع المضلة استغفال المرأة والنظر إليها . ومن البدع المضلة إكراه الرجل ابنته على زواج من لا تألفه نفسها أو عضلها حتى لا تتزوج من تألفه ، لأن الزواج متعة ولذة للعين وللأذن واللسان ولليد وللأنف كما أنه لذة للفرج فَعَلى الوالد أو الولِّى أن يهتم فى المحافظة على عروضه وفى راحة أولاده .

الحكم الرابع : الخطبة عند عقد النكاح وهى مندوبة ، ويلزم أن تكون مشتملة على حمد الله والصلاة على رسول الله ﷺ والشهادتين ويبدأ بالخطبة الزوج ، والأحسن تقليل الخطبة ، وإفشاء النكاح بولائم ، وضرب الدف ، وندب شهادة عدلين عند العقد ، ووجب إشهار الدخلة ، فإن دخل بلا إشهار فسخ النكاح بطلقةٍ لسبوق العقد ، ويفسخه الحاكِم جبراً ، ويحدان إذا أقرا بالوطءِ ، أو شهد عليهما أربعة إن لم يفشيا النكاح بوليمة ، أو ضرب دف ، أو دخان ، أو كان على العقد أو على الدخول شاهد واحد غير الولى .

ومن آداب الشرع أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ، ولا يخطب الرجل المعتدة من غيره فى عدتها ، ولا يواعدها وتُواعده ، وحرم صريح الخطبة وجاز التعريض من الخاطب فى عدة المتوفى عنها زوجها .

أركان النكاح :

أركانه أربعة ، الأول : الولى ، والثانى : الصداق ، والثالث : الزوج والزوجة ، والرابع : الصيغة ، فالصيغة لا تقييد فيها بلفظ مخصوص إذا ذكر الصداق ، فزوجتك ، ووهبت لك ، ومنحتك ، وملكتك ، كل ذلك جائز ومن الزوْج : رضيت أو قبلت ورأيِ بعضِ العلماء أن الشهرة من الأركان ، وإن كانت خارجة وجعله بعضهم شرطاً والأولى أن يكون فى المسجد ، وأن يكون بالدف والأغانى .

الصداق :

الأولى تيسيره على الناس ولا حد له ، قلة ، وكثرة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً**[1] ﴾ . وقال ﷺ : « **التمس ولو خاتماً من حديد** » .

الوليمة سنة وإجابتها واجبة ، وهي من أنواع الشهرة ، وأحب إلى أن يعتنى فيها بالفقراءِ ، وأن يتوسط فيها الذى أولمها ، وينوى بذلك شكر الله تعالى ، وإكرام إخوانه ، وإحياءُ السنة لا سمعة .

العدل بين الزوجات :

ومن السنة أن يسوى بينهن فى الملبس والمسكن والمشرب وفى الليلات ، ومما يملكه كبشاشة الوجه وحسن الألفاظ واستحسان عملها ، وليس عليه العدل فيما لا يملك من محبة القلب ، والوطءِ ، وللبكر سبعة أيام ، وللثيب ثلاث .

---

(١) سورة النساء آية ٢٠ .

عشرة النساء :

المرأة ضعيفة لا يكرمها إلا كريم ولا يهينها إلا لئيم ، وقد خلقت من ضلع أعوج ، وأنها إن كره الإنسان منها شيئاً أحب منها أشياء ، وقد فطر الرجل على طلبها والميل إليها ، وأجمل خصلة فيها الحياء ، والتمنع من كمالها ، والدلال من جمالها ، فعلى الرجل أن يحسن معاشرتها ، كما أن المرأة إذا أغضبت زوجها غضب الله عليها وغضبت ملائكته ، والفضيلة والمروءة والخير إنما تظهر فى معاشرةِ المرأة ، والدين الإسلامى جعل الرجال قوامين على النساء ، فالرجل يصبر على المرأة لأنه يمكنه أن يفارقها ، وليس للرجل أن يسيءُ إلى المرأة لأنها لا يمكنها أن تفارقه ، فبقدر ما جعل الله للرجل على المرأة من الحقوق والسيادة بقدر ما أمره بالرحمة والعاطفة ، وعلى الرجل إذا كانت المرأة لا تقيم حدود الله أن يطلقها أو يعلمها فإن قبلت فبها وإلا فارقها ، ومن فهم معانى كلام رسول الله ﷺ السابق يعلم الحقوق الواجبة عليه ، وعلى المرأة لله ولرسوله وللزوجين .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تنسَوُا الفَضْلَ بيْنَكُمْ**[1] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **فَأَمسكُوهُنّ بِمَعْروفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**[2] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ**[3] ﴾ .

الخلع :

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﷺ فقالت : « **يارسول الله إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام ، قال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ، قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ : إقبل الحديقة وطلقها تطليقة**[4] » .

الخلع هو طلاق بعوض والطلاق إزالة عصمة الزوجةِ بصريح لفظٍ ، أو كناية ظاهرة ، أو بلفظ مَا . مع النية ، والخلع جائز بطلب الزوجةِ بعوض أمام الحاكم وبغير

(١) سورة البقرة آية ٢٣٧ .
(٢) سورة الطلاق آية ٢ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٢٩ .
(٤) أخرجه البخارى متفق عليه .

الحاكم ، وجاز بعوض من غير الزوجة إن كان الذى يدفع العوض رشيداً ويلزمه العوض ، وإن كان فى حكم التبرع لأنه عوض عن عصمة لا عن مال . فغير الرشيد لا يلزمه دفع ويرده الزوج وهذه الطلقة بائنة .

الطلاق :

تقدم تعريفه فى الخلع « **عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ ، ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلّق لها النساء**[1] » . وفى رواية مره **فليراجعها ثم ليطلقها طاهراً أو حاملا**[2] » . عن ثوبان أنه قال : « **قال رسول الله ﷺ : أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة**[3] » . عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : **أبغض الحلال إلى الله الطلاق**[4] » ، وعن على عن النبى ﷺ أنه قال : « **لا طلاق قبل نكاح ، ولا عتاق إلا بعد ملك ، ولا وصال فى صيام ، ولا يتم بعد احتلام ، ولا رضاع بعد فطام ، ولا صمت يوم إلى الليل**[5] » . عن عمرو بن شعيب رضى الله عنه عن أبيه عن جده أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا عتق فيما لا يملك ، ولا طلاق فيما لا يملك ، ولا بيع فيما لا يملك**[6] » .

عن ركانة بن عبد الله أنه طلق امرأته سهيمة البتة ثم أتى النبى ﷺ فقال : « **إنى طلقت امرأتى البتة والله ما أردت إلا واحدة ، فقال رسول ﷺ : والله ما أردت إلا واحدة ؟ فقال ركانة : والله ما أردت إلا واحدة ، فردها إليه رسول الله ﷺ**[7] » ، فطلقها الثانية فى زمان عمر ، والثالثة فى زمان عثمان . وعن أبى هريرة

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

(٤) رواه أبو داود عن ابن عمر .

(٥) رواه ابن ماجة عن على .

(٦) رواه الترمذى .

(٧) رواه الترمذى .

رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **ثلاثٌ جدهن جد وهزلهن جد ، الطلاق والنكاح والرجعة**[١] » . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا طلاقَ ولا عتاق فى إغلاق** [٢] » قيل : معنى الإغلاق الإكراه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كلُّ الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه والمغلوب على عقله**[٣] » . عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **رُفع القلم عن ثلاث ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبّى حتى يبلغ ، وعن المعتوه حتى يعقل** [٤] » .

الطلاق إما سُنِىّ أو بِدعى :

فالسنى ما استوفى الشروط الآتية ، والبدعى ما خالفها . والشروط أن يطلقها طلقة واحدة فى طهر لم يطأها فيه وأن لا يردفها بأخرى فى العدة فالأول : أن تكون واحدة ، الثانى : أن تكون فى طهر ، الثالث : أن لا يكون وطئها فيه ، الرابع : أن لا يردف الطلقة الرجعية بأخرى فى العدة .

أركان الطلاق أربعة :

الركن الأول : الزوج أو من ينوب عنه من وصى أو حاكم أو وكيل .

الركن الثانى : قصد النطق باللفظ الصريح أو بالكناية الظاهرة ، فلا يقع الطلاق بسبق اللسان بالنطق به أو بأن ينطق به بدون قصد النطق ، فلو قصد النطق باللفظ الصريح وقع الطلاق ولو لم يقصد زوال عصمة المرأة ، ولابد فى الكناية الخفية من قصد زوال عصمتها لوقوع الطلاق .

الركن الثالث : العصمة المملوكة التى يُزيلها الطلاق .

الركن الرابع : اللفظ الصريح فلا يقع بنية طلاقها ، ولا بفعل ، ويقع بالكناية الصريحة .

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة .

(٢) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة .

(٣) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة .

(٤) رواه الترمذى عن الحسين عن على .

شروط الطلاق :

يصح طلاق المسلم المكلّف ، غير مجنون ، ولا مغمى عليه ، ولا سكران بحلال ، فمن سكر بحرام وطلّقها وقع عليه ، وأرى أن السكران بحرام إذا صار لا يميز كان كالمجنون ، ولا يقع الطلاق من أعجمى حفظ لفظه ونطق به بدون فهم معناه ، ولا ممن يقوله هذيانا لمرض ، ولا ممن يقوله لسبق لسان ، أراد أن يقول لزوجته : ياصادقة ، فقال : ياطالقة ،

ولا يقع الطلاق على مكره على إيقاعه ، والإكراه إما بخوف مؤلم كالقتل والضرب والسجن والصفع لعزيزِ قومه إن تيقن ذلك ، بل وإن ظنه ، أو قتل ولده ، أو أخذ ماله لأجنبى ، وأمر بالحلف بالطلاق ندباً ليسلم الأجنبى ، ووقع الطلاق عليه ، وإما إكراه شرعى وفيه الخلاف ، واستحسن أنه لا يقع به الطلاق لعموم الحديث : « **لا طلاق فى إغلاق** » وهذا القسم هو الإكراه على الفعل .

أمثلة الطلاق لإكراه شرعى :

رجل حلف بالطلاق ألا تخرج زوجته فأخرجها القاضى لتحلف . مثال آخر : رجل حلف بالطلاق ألا يدخل داراً فأكره على دخولها فى صيغة البرِ ، وقيل فى صيغة الحنث يقع عليه الطلاق ، مثاله : قال : هى طالق إن لم أدخل الدار فأكره على عدم الدخول فإنه يحنث حتى يتمكن من دخولها ، على أن المكره لو قصد التورية بقوله : هى طالق يريد من القيد ، أو من الطلق للولادة ، لا يلزمه ، ومثل الطلاق فى عدم اللزوم العتق ، وإكراه الرجل على أن يزوج ابنته ، وإكراهه أن يقر بدين ، والإكراه على اليمين بالله ، أو بالعتق ، أو بصوم عام ، أو بالمشى إلى مكة ، أو أن يفعل كذا وإلا قتله ، ودخل فيه سائر العقود المكرَه عليْهَا .

أما الإكراه على الكفر بالله فلا يجوز الإتيان بما يقتضى الكفر من قول وفعل ، وسبه ﷺ ، وقذف الصحابة وقذف المسلم ، فإنما يجوز الإتيان به إذا تيقن القتل لا غيره من قطع يد أو رجل ، والصبر على القتل لمن أكره على الكفر دليل على كمال الإيمان ، والرضا بما عند الله تعالى ، ولو أكره أن يقتل غيره أو يقتل ، وجب عليه أن يتباعد عن قتل المسلم ولو رقيقاً ، ويرضى بقتل نفسه ولا يرضى بقطع أنملة غيره ، وإن أكره أن يزنى بامرأة فإن كانت مكرهة أو متزوجة أو مملوكة لسيد فلا يزنى ولو خُوِّف بالقتل .

ومن أكره أن يحلف بالله أو بالطلاق أو بالعتق أو المشى إلى مكة على عمل طاعة مطلقاً نفياً كترك شرب الخمر ، وغش المسلمين ، أو فعلا كالصدقة بكذا ، أو ليصلين فى أول الوقت ، فعده بعض العلماء إكراها ، ولا شيء عليه فى المخالفة ، ورآه بعضهم أنه ليس بإكراه ولزمه اليمين ، ومن أكره على يمين معلقة على معصية أو بمباح : مثاله أن يكرهه آخر أن يحلف ليشربن الخمر فى المعصية ، أو ليدخلن الدار فى المباح لم تلزمه اليمين اتفاقاً .

محل الطلاق :

ومحل الطلاق العصمة المملوكة قبل نفوذ الطلاق ، وإن علق ذلك كقوله لأجنبية هى طالق ، أو إن دخلت الدار فأنت طالق ، ونوى بعد نكاحها لزمه الطلاق ، وعليه نصف الصداق قبل الدخول وجميعه بعده ، ومن حلف لا يفعل شيئاً أو لا تفعل زوجته شيئاً وفعله أو فعلته الزوجة حال بينونتها منه ، ولو بطلقة واحدة كخلع ، أو بانقضاء عدة الرجعى ، لا يلزمه الطلاق لعدم ولايته عليه ، وفقد المحل ، كما لو أقسم بالطلاق الثلاث ليدفعن دينه للغريم يوم كذا وهو معسر ، وخالع زوجته قبل مجىء اليوم ثم عقد عليها بصداق فلا شيء عليه من الثلاث ويبقى له طلقتان ، ومن قال لزوجته إن فعلت كذا فأنت طالق وأطلق فلم يعين زمناً ولا عدداً فلا شيء عليه ولا عليها إن فعلته فى بينونتها ، ويلزمه الطلاق إن فعلته بعد أن يتزوجها . ومسائل الطلاق لا يسعها هذا المختصر .

الرجعة :

هى عود الزوجة المطلقة للعصمة من غير تجديد عقد . ومباحثها أربعة : الرجل المطلق ، والمرأة المطلقة ، وسبب الرجعة ، وأحكام المرأة المرتجعة قبل إرجاعها .

الأمر الأول : يصح ارتجاع المطلقة ممن فيه أهلية ، فلا تصح من مجنون وسكران .

والأمر الثانى : المرأة المطلقة طلاقاً غير بائن بشرط أن تكون فى عدة طلاق من نكاح صحيح .

الأمر الثالث : القول مع النية كراجعت زوجتى لعصمتى ، وصحت بنية فقط قبل مضى العدة وله معاشرتها بعد العدة بدون عقد ، إن لم يتمكن من معاشرتها قبل مضى

العدة ، ولا تصح الرجعة بعمل ولو كان وطأً بدون نية ، ومن أحب المزيد فعليه بالمطولات .

الطلاق الثلاث :

من كان يرجو الله واليوم الآخر فليحتط للفروج ، ولا يتتبع الرخص طمعاً فى الدنيا فإن « **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ**[1] » .

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « **جاءت أمرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت : إنى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاق ، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وما معه إلا مثل هُدْبَةُ الثوب ، فقال عليه الصلاة والسلام : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا . حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك**[2] » . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « **لعن رسول الله ﷺ المحلّل والمحلل له**[3] » ، وقال سليمان بن يسار : أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ كلهم يقول بوقف المحلل .

وصية للزوج :

إن الله تعالى لم يشرع الطلاق ليكون قسما للإثبات والنفى والوفاء والإعطاء ، ولا ليكون سوطاً تضرب به المرأة عند تأديبها أو عتابها ، وإنما شرعه وسعة لعباده ، ورحمة بهم ، وقصداً لصفاءِ حياتهم وهناء عيشتهم ، فإذا تزوج الرجل المرأة ولم تقم حدود الله معه صبر مرتجياً تقويمها ، ثم علّمها ، ثم هَجَرها ، ثم ضربها ، ثم طلقها واحدةً لتتهذب بمفارقته ويتهذب هو بمفارقتها ويراجعها ، فإن زكت نفسها أو تحسنت فبها وإلا طلقها الثانية ، ويراجعها ، فيكون حصل له ولها تهذيب ، فإن أقامت حدود الله فحسن ، وإلا فإما أن يصبر ، أو يطلقها الثالثة ، فإذا تزوجت غيره ثم طلقها بعد المعاشرة ، فتكون علمت أخلاق الرجال وحنت للأول ، ويكون الأول رجع على نفسه باللوم وندم ،

(١) سورة النحل آية ٩٦ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) أخرجه الترمذى .

فإذا طلقها الزوج الثانى فله أن يراجعها . ومن جعل الطلاق قسما أو سوطاً أو كلمة يلوكها فى لسانه فهو بِدَعي ضال ، وإنى لأعجب ممن يعظم المرأة فيحلف بالطلاق ويترك اليمين بالله تعالى ، وأى غفلة أكبر من هذا ، أسأل الله تعالى أن يعيذنى وأهلى وإخوانى من مخالفة سنة رسول الله ﷺ .

وفى هذا القدر من أبواب المعاملة التى لابد منها للسالك فى معيشته كفاية ، أما ما زاد عن ذلك من غوامض المسائل ومن أبواب الوصايا والأعطية والكفالة والحوالة والفرائض والقضاء والحدود والتعازير والديات والعتاقة والولاء ، وغير ذلك من الرضاع والأشربة والمقاسمة والقسامة والمكاتب والمدبر ، فليس ذلك من الضرورى للسالك الفقير لأنه ليس قاضياً ولا أميراً ولا ذا مال ، فإن احتاج إلى حكم من تلك الأحكام تعلمه ، وإن هذا المختصر غنية للسالك المريد الدار الآخرة ، المقبل على الله تعالى ، وقبل أن ننتقل إلى التكلم على علوم اليقين ومقاماتها والأخلاق الطاهرة التى هى أحوال عنها ، نذكر إجمالا ما به يكون المسلم مسلماً .

الشروط التى بها يكون المسلم مسلما :

لايكون معتقدا لبدعة ، ولا مقيما على كبيرة ، ولا آكلا للحرام ، ولا طاعناً على صالح السلف ، ويكون كافّ اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم ، ويكون ناصحاً لجميع المسلمين ، مشفقا عليهم ، يسره ما يسرهم ، ويسوؤه ما يسوؤهم موقراً لأئمتهم داعياً لجملتهم ، ويكون مخلصاً أعماله كلها لله تعالى . وروى عن النبي ﷺ : « **والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه**[1] » . ورُوى عنه ﷺ : « **ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ، إخلاص العمل لله تعالى ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**[2] » . ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من أولياء الله عز وجل ، وهذا أول ولاية وأول نظرة من الله تعالى حامية عاصمة راحمة .

(١) رواه أحمد والعسكرى والحاكم عن ابن مسعود .
(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه .

ذكر حسن إسلام المرء وعلامات محبة الله تعالى له :

يكون محباً للخير وأهله ، مجانباً للشر وأهله ، مسارعاً إلى ما ندب إليه ، أو أُمر به إذا قدر عليه ، حزينا على ما فات من ذلك إذا أُعجزه ، تاركا لما لا يعنيه من الأقول والأفعال ، بريئا من التكلف وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يندب إليه من ترك وفعل ، مصلياً للخمس فى جماعة إذا أُمن الفتنة وسلم له دينه ، مجتنباً للغيبة ولذكر الناس ، يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، مسارعاً إلى الخيرات ، مسابقاً إلى أعمال البر والقربات ، طويل الصمت ، لين الجانب ذليلا للمؤمنين ، عزيزاً على المتكبرين ، لا يمارى فى الباطل ، ولا يداهن فى الدين ، ولا يبغض على شيء من الحق وإن كان عليه أو من أبعد الناس منه ، ولا يحب على شيء من الباطل ، وإن كان له أو من أقرب الناس إليه ، كارها للمدح ممن يحبه ، قابلا للنصح ممن يبغضه ، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحدا ، صدوقا فيما يضره ، غير متصنع بما يستعجل نفعه ، سريرته أفضل من علانيته ، محتملا لأذى الخلق ، صابراً على بلائهم ، منفرداً بحاله عنهم ، تاركا لكثير من مجالسهم واجتماعهم خشية دخول الشبهات عليه ، وخوفاً من تغير قلبه له ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من المريدين للآخرة ، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية ، ويقال إن أبدال كل قرن على قدر زمانهم ، وفى كل قرن سابقون ومقربون .

الباب الرابع

علم التصوف

تعريف التصوف :

هذه الكلمة اصطلح عليها أهل المجاهدة ، والذى أستحسنه فيها أنها مأخوذة من الصفاء . فالصُّوفى من جاهد نفسه فى ذات الله بتوفيق الله حتى صفا قلبه ووقته وحاله ، فصافاه الله تعالى ، فسمى صوفيا ، وهو فعل ماض مبنى للمجهول بشرى له ، وهى كلمة ينشرح صدر الموصوف بها لما دلت عليه ، وهو مذهب قديم ، ومنهج سابق ، وفق الله له المقربين ، وقد تجمل بهذا المذهب كثيرون من الصحابة فى عصر رسول الله ﷺ ، وهم أهل الصفة من أئمة الصحابة كأبى ذر رضى الله عنه ، وصهيب ، وسلمان ، وسعيد بن جزيمة ، والعبادلة ، وبلال ، وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم أجمعين .

ولولا أن اللفظ مضبوط بالرواية لقلت : إنه صُفِّىْ نسبة إلى أهل الصُّفَّةِ الذين أقبلوا بكليتهم على الله ورسوله ﷺ مجاهدين أنفسهم فى ذات الله .

وصف رجال التصوف :

وهم فى كل عصر وزمان أئِمة الهدى ، وسرج الدلالة ، ومصابيح الظلمة ، وهم أهل الله الذين فرغت قلوبهم مما سواه ، وصفت لطائف قلوبهم ، فأشرفت على الملكوت الأعلى ، وظفروا بأسرار العلوم وحقائق الفهوم ، وهم المحدثون الذين أخبر رسول الله ﷺ عنهم الذين تتلقى قلوبهم عن ربهم ، وهم الذين أمرهم رسول الله ﷺ بأن يستفتوا قلوبهم لصفائها وإن أفتاهم المفتون ، ولكنهم قليل ، وقد دخل فيهم الدخيل من

المتمصوفة ، ولكن ماء ولا كصدى ، ومرعى ولا كالسعدان ، فالمخلصون تسبق أنوارهم أقوالهم ، وتهجم أحوالهم على القلوب فتجذبها لعلام الغيوب .

موضوع علم التصوف وأهله :

حد علم الباطن وحقيقته المصطلح عليه بأنه هو علم التصوف : فهو علم يعرف منه أحوال النفس فى الخير والشر ، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها ، وتطهرها من الصفات المذمومة ، والرذائل والنجاسات المعنوية التى ورد الشرع باجتنابها ، والاتصاف بالصفات المحمودة ، وهى الصفات التى طلب الشرع تحصليها ، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه .

فائدته وثمرته :

هى النجاة فى الآخرة ، والفوز برضا الله تعالى ، ونيل سعادة الأبد .

موضوعه :

الباطن أعنى القلب من ناحية ما يعرض له من ، اللمحات ، والخواطر ، والهواجس ، والوساوس ، والعلوم ، والنيات ، والقصود ، والعزائم ، والاعتقادات ، وحديث النفس ، وغير ذلك .

مسائلِه :

الأحكام المتعقلة بهذه الخواطر ، والهواجس ، والنيات ، والقصود ، والعزائم ، وسائرِ أحوال النفس .

جلالة هذا العلم :

جلالة هذا العلم وشرفه وعظم قدره وبيان أن أهله هم الصفوة من بنى آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

اعلم : أن علم الباطن هو علم طريق الآخرة ، وهو العلم الذى درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، وهو العلم الذى لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله ، وقد سماه الله تعالى فى كتابه فقها وعلماً وضياءً ونوراً وهدى ورشداً ، وهو مستخرج من القرآن والسنة ، ومدلول عليه منهما نصاً وتصريحاً وتلويحاً وكتابة وإشارة وغير ذلك من أصناف الدلالة .

قال الغزالى : علم الباطن هو علم يقين المقربين ، وثمرته الفوز برضا الله تعالى ونيل سعادة الأبد ، وتزكية النفس وتطهيرها ، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث يكشف بذلك النور أمورا جليلة ، ويشهد أحوالا عجيبة ، ويعاين ما عميت عنه بصيرة غيره من المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى ، وبصفات الله التامات وبأفعاله وحكمته فى خلق الدنيا والآخرة ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبى ، ومعنى الوحى ، ومعنى لفظ الملائكة ، والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية الوحى والمعرفة بملكوت السموات والأرض ، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ، ولمة الشيطان « اللمة : الأتباع والرفقاء » ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ، ومعرفة معانى المتشابهات ومعنى قوله تعالى ﴿ **وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**[1] ﴾ ، ومعنى لقاء الله تعالى والنظر إليه ، ومعنى القرب منه والنزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملك الأعلى ، ومرافقة الملائكة والنبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جو السماء ، كما ورد ذلك فى صحيح البخارى ، إلى غير ذلك مما يكثر شرحه ويطول تفصيله .

وهذه هى العلوم التى عناها نبى الرحمة ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى بقوله : « **إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى**[2] » .

إمتزاج علم الفقه بعلم التصوف :

وكان اسم الفقه فى الزمن الأول يطلق على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٤ .

(٢) رواه أبو منصور الديلمى عن أبى هريرة .

النفوس ومفسدات الأعمال ، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعم الآخرة الذى أشار إليه الحق بقوله سبحانه وتعالى ﴿ **فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لهمُ مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ جَزَاءً بما كَانوا يعْمَلُونَ**[١] ﴾ . وأشار إليه نبيه ﷺ بقوله « **إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**[٢] » ، إلى غير ذلك من دقائق علم القلب ، وإنما أرباب العلم الظاهر تصرفوا فى هذا اللفظ بالتخصيص والقصر لا بالنقل والتحويل ، كما تصرف أهل العرف فى لفظ الدابة ويدلك على هذا قوله تعالى : ﴿ **لِيتَفَقَّهُوا فى الدّينِ ولينذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إليهمْ**[٣] ﴾ . وما به الإنذار والتخويف هو المتعلق بإصلاح القلب واستقامته ، والفقه الذى به تزكية النفس وتطهيرها دون تعريفات السلم والبيع والإجارة والطلاق، فإن ذلك لا يحصل به إنذار وتخويف ، ولا ينجى النفس من مهلكاتها ، ولا يخلصها من ورطاتها .

قال السادة الأئمة أرباب البصائر ، وأهل اليقين : المعرض عن علم طريق الآخرة وما به النجاة والفوز مع إقباله على العلوم الظاهرة والعمل بها أيضاً يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهو عن الآخرة من الغافلين .

وعلماءُ الآخرة يدورون مع الأعمال الظاهرة بتطهير الباطن ، وقطع مواد الشر والآفات والأمراض بإفساد منابتها ، وقلع مغارسها وهى فى القلب . قال رسول الله : ﷺ « **ألا إن فى الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب**[٤] » .

أهل التصوف هم الصفوة :

أما بيان أن أهل العلم بالله وبطريق الآخرة هم الصفوة من بنى آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فنقول : إن أرباب هذا العلم ، هم الذين ورثوا علوم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، واقتفوا آثارهم ، وسلكوا طريقهم فرفضوا

---

(١) سوره السجده آية ١٧ .
(٢) رواه الشيخان عن أبى هريره .
(٣) سوره التوبة آية ١٢٢ .
(٤) أخرجه البخارى عن النعمان بن بشير .

الدنيا ، وفرغوا عنها ، واجتهدوا فى جهاد أنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿ **والّذين جَاهَدُوا فِيناَ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا**(١) ﴾ ، وصبروا على مرارة الطريق ومشاق السير فكابدوا وحشة الطريق ، وصبروا على وعثاء السفر حتى وصلوا إلى مقصودهم وظفروا بالقرب من معبودهم ، فهم الفارون إلى الله عندما سمعوا أمره بالفرار بقوله تعالى : ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى الله إِنّي لَكم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**(٢) ﴾ ، وهؤلاء هم عباد الصحابة وزهادهم من أهل الصفة وغيرهم من التابعين وتابعيهم ، فمن الصحابة حارثة وحذيفة وسلمان وبلال وأبو بكر وعثمان وعلى وغيرهم ، وهم قريب من ألف عارف ، زهاد عباد قائمون لله بالعبودية باذلون له حقوق الربوبية ، ومن التابعين : على بن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر ، وجعفر الصادق وأويس القرنى والحسن البصرى وغيرهم من كُمَّلِ الرجال عليهم رضوان الله ، ومن أراد أن يطلع على أكثر من ذلك فعليه بالمطولات .

بداية فقهية ونهاية صوفية :

واعلم أن الصوفية دخلوا مع الفقهاء المفسرين والمحدِّثين والمتكلمين فى علومهم فسمعوا الحديث ، ونظروا فى الأحاديث ، وقرأوا القرآن ، واشتغلوا بتدبره ونظروا فى أصول الدين ، وعلم الفقه ، فالبداية فقهية والنهاية صوفية ، ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث ، ولم يحط بما أحاطوا به فإنه يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العالمين بأحكام أفعال الجوارح الظاهرة ، وهم أصحاب العلوم الظاهرة ، والصوفية يلزمون أنفسهم بالأخذ بالأغلظ والأشق ، ثم إنهم خُصوا مع ذلك بعلوم عالية ، وأحوال شريفة ، ومقامات رفيعة ، فتكلموا فى علوم المعاملات ، وعيوب النفس ، وآفات القلب ، وشريف المقامات مثل اليقظة والتوبة والزهد والخشية والمراقبة واليقين والشرك الخفى والعوارض ، والأذكار وتجريد التوحيد ومنازل التفريد ، وغير ذلك فهم حماة الدين وأنصاره وأعوانه ، وهم ورثة الأنبياءِ ﴿ **أُولئِكَ الّذِينَ هَدَاهُمُ الله وَأُولئكَ هُمْ أولوا الألبَاب**(٣) ﴾ ،

أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٠ .

(٣) سورة الزمر آية ١٨ .

طبقات أهل التصوف :

أهله ثلاث طبقات ، طبقة مريد طالب ، ومتوسط سالك ، ومنتهى واصل ، فالمريد صاحب وقت ، والمتوسط صاحب حال ، والمنتهى صاحب نفس وعد الأنفاس من أفضل الأشياء عندهم ، فالمريد الطالب متعب فى طلب المراد ، والمتوسط السالك مطالب بآداب المنازل ، وهو صاحب تلوين ، لأنه يترقى من حال إلى حال ، وهو فى الزيادة ، والمنتهى الواصل محمول قد جاوز المقامات وهو فى محل التمكين لا تؤثر فيه الأهوال ، فمقام المريد المجاهدات ، والمكابدات ، وتحمل المشاق ، وتجرع المرارات ، ومجانبة الحظوظ ، ومقام المتوسط ركوبه الأهوال فى طلب المراد ، ومراعاة الصدق فى الأحوال ، واستعمال الأدب فى المقامات ، ومقام المنتهى الصحو ، وإجابة الحق من حيث دعاه ، قد استوى فى حقه الشدة والرخاء ، والمنع والعطاء ، والعافية والبلاء ، قد فنيت حظوظه ، باطنه مع الحق وظاهره مع الخلق ، وكل ذلك منقول معلوم مشهور من أحوال النبى ﷺ ، وحركاته وسكناته فى ابتداءِ أمره ، ومن أحوال الصحابة والعلماء الحكماء أرباب البصائر واليقين . مثل حارثة وبلال وصهيب وسلمان وغيرهم من أصحاب الصُّفَّةِ ، وأصحاب البيعة ، والخلفاءِ ، والمهاجرين ، والأنصار .

كان النبى ﷺ قبل نزول الوحى عليه وبعده مختليا فى غار حراء ، ثم صار مع الخلق ولا فرق عنده بين الخلوة والجلوة ، كذا أصحاب الصفة ، صار جماعة منهم بعد التمكين أمراء ، لأنهم تمكنوا من الإيمان بالله والمعرفة والإخلاص له ، فلم تؤثر المخالطة بالخلق فيهم ، ولا فى أحوالهم ، وهذه أحوال المشايخ من بعدهم .

ظاهر التصوف وباطنه :

والتصوف له ظاهر وباطن ، فظاهره : استعمال الأدب مع الخلق بالأخلاق الحسنة معهم ، وباطنه : منازلة الأحوال والمقامات مع الحق ، فالظاهر علامة الباطن ، والباطن حقيقة الظاهر ، ألا ترى لقوله ﷺ لما نظر إلى المصلى وهو يعبث فقال : « **لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**[1] » ، وقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ**

(١) أخرجه الحكم فى النوادر عن أبى هريرة .

عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لهم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ[1] ﴾ .

وإلى هنا نكتفى بما فصلناه من تعريف علم التصوف ، وشرح فضل أهله ، وإن كان محتاجاً إلى بسط وإطناب ، ولكنى أوجزت لأن المؤمن يكفيه قليل الحكمة .

(١) سورة الحجرات آية ٣ .

الفصل الاول

الفقر إلى الله تعالى غنى به سبحانه

حقيقة الفقر وفضائله وأوصاف الفقراء عامة وخاصة ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **لِلفُقَرَاءِ المهاجِرِينَ الَّذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهم وَأَمْوَالِهم** [1] ﴾ . **وقال تعالى** : ﴿ **للفُقراءِ الَّذين أُحْصِرُوا فى سبيلِ الله لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فى الأرض يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أغنياءَ من التعَّففِ** [2] ﴾ . فقدم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر ، والله تعالى لا يصف من يحب إلا بما يحب ، فلولا أن الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه ، وشرفهم به ، وأمر رسول الله ﷺ بالفقر وأخبر بفضله فى غير حديث منها حديث إسماعيل بن عباس عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « **أى الناس خير ؟ فقالوا : موسر من المال يعطى حق الله عز وجل فى نفسه وماله ، فقال : نعم الرجل هذا ، ولا بئس به ، قالوا : من خير الناس يارسول الله ؟ قال : فقير يعطى جهده** [3] » ومنها حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال له : « **إلق الله عز وجل فقيراً ولا تلقه غنياً** [4] » وقال النبى ﷺ : « **لا أفضل من الفقير إذا كان راضياً** » ، وقال ﷺ : « **إن الله تبارك وتعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال** [5] » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام** [6] » ، وقال ﷺ : « **اللهم أحينى مسكيناً وأمتنى مسكيناً**

(١) سورة الحشر آية ٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٣ .

(٣) رواه أبو منصور الديلمى .

(٤) أخرجه الحاكم عن أبى سعيد .

(٥) رواه ابن ماجه عن عمران بن حصين .

(٦) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة .

واحشرنى فى زمرة المساكين[1] » ، فهذا منه ﷺ تفضيلا للفقراء ، وإكراما لهم وتنبيهاً وحثاً على فضل الفقر . وروينا فى خبر سيدنا إسماعيل عليه السلام أنه قال : « **يارب أين أطلبك فقال عز وجل : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى قال : ومن هم . فقال تعالى : الفقراء الصادقون** »

من فرائض الفقر :

وكان بعض الفقراء يقول : هذا العلم . يعنى علم المعرفة عوضه الله سبحانه وتعالى الفقراء بدلا من الدنيا لا يظهره إلا لهم ، ولا يوجده إلا عندهم ، روَّحهم الله عز وجل به فى الدنيا ، وجعله عوضاً لهم مما تركوه له اليوم فإذا كان غداً فهم الذين ﴿ **فَلَا تعلمُ نفسٌ مَا أُخْفِىَ لهم مِنْ قُرَّةِ أعْيُنٍ[3]** ﴾ . وهو المزيد . ومن فرائض الفقر الصبر عليه بترك المسألة قبل ورود الفاقة ، وقطع الهمّ عن التشوف إلى الخلق ، وأن لا يتناول عند الحاجة ما أحظره عليه العلم ، ولا يجاوز حداً من حدود الأحكام ، وإن سأل عند حاجة لم يستكثر ، فإن أُعطى فوق كفايته فاقتناه ليكف عن المسألة فلا بأس به ، ويتوخى فى مسألته المتقين ، ومن يعلم أنه يتحرى فى مكسبه ، فإن مسألته عمل له يلزمه التورع فيها كما يلزمه الورع فى مكسبه ، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالى من أين يأكل ، ومن لا يرتدع عن الحرام فى مكسبه ، والعبد بنفس الحاجة . وقد سأل ثلاثة من الأنبياء عند فاقتهم . سليمان عليه السلام لما سلب ملكه أربعين يوماً ، وموسى والخضر عليهما السلام لما استطعما أهل القرية ، وقال ﷺ : « **للسائِل حق وإن جاء على فرس[4]** » ، فلو كانت المسألة إثماً وعدواناً لم يحث على الإعطاء فيكون معاوناً على الإثم والاعتداء ، ولكن ذلك من البر والتقوى ، لأنه سبب منه ودال عليه فعاون بالأمر به لحرمة الإسلام ، ولأن المواساة من المعروف والإحسان .

وسمع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب ، فقال : يابنى عشّ الرجل فعشاه ثم سمعه ثانية يسأل فقال : ألم أقل لك عشّ الرجل ؟ فقال : قد عشيته ، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءَة خبزاً ، فقال : لست سائِلا ، ولكنك تاجر .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) البداية للغزالى .

(٣) سورة الزمر آية ١٧ .

(٤) رواه مالك فى الموطأ من حديث الحسين بن على .

وقال على كرَّم الله وجهه : إن لله عز وجل فى خلقة مثوبات فقر وعقوبات فقر ، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه ، ويطيع به ربه ، ولا يشكو حاله ، ويشكر الله تعالى على فقره ، ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ، ويعصى به ربه ، ويكثر الشكاية ، ويتسخط القضاء . وهذا النوع هو الذى استعاذ منه النبى ﷺ وهو فقر النفس لأن الفقر من المال إنما هو الافتقار إلى الخلق ، والفقر إلى الأشياء مع عدم صدق الحال ، وعلى الفقير أن لا يزكى غنياً لأجل عطائه ، ولا يذمه ولا يمقته لأجل منعه ، ولا يعظم أهل الدنيا ولا يكرمهم لأجل دنياهم ، وعن على رضى الله عنه قال : ما أحسن تواضع الغنى للفقير رغبة فى ثواب الله عز وجل ، ومن فرائض الفقر أن لا يسكت الفقير عن حق ، ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد ، فان ذلك وليجة فى الدين ومداهنة للمؤمنين .

من فضائل الفقير :

ومن فضائل الفقير أن لا يدخر لأكثر من أربعين يوماً ، وقد جعل غنى الفقير فى أربعين درهماً حيث قال ﷺ : « **من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً**(١) » ، وهذا لعموم الفقراء ، أما خصوصهم فإن غناهم غداء يوم أو عشاء ليلة لقصر أملهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « **استغنوا بغنى الله عز وجل ، قيل : وما غنى الله تبارك وتعالى ؟ قال : غداءُ يوم أو عشاءُ ليلة**(٢) » .

ومن فضل الفقير أن لا يهتم برزق غد كما أن الله تبارك وتعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه ، ولأن الرزق معلوم مقسوم ، والوكيل حفيظ قيوم ، وأن يكون راضياً بفقرة شاكراً عليه ، ويخاف أن يسلب فقره أشد من خوف الغنى أن يسلب غناه لشدة اغتباطه به .

وقال ﷺ : « **يامعشر الفقراء أعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا**(٣) » ، وقال ﷺ : « **أحب العباد إلى الله عز وجل الفقير القانع برزقه الراضى عن الله عز وجل**(٤) » .

(١) أخرجه أبو داود والنسائى .

(٢) ذكره ابن حبان .

(٣) رواه أبو منصور الديلمى من حديث أبى هريرة .

(٤) ورد فى الاحياء .

وفى الحديث القدسى : « **إذا رأيت الفقر مقبلا فقل له مرحباً بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته**(١) » ، وقال ﷺ فى دعائه الذى تلقاه من ربه وأمره به : « **أسألك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين**(٢) » .

فضل الفقر على الغنى :

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى أن أفضل الخلق رسول الله ﷺ أحب الفقراء ، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل ، لأن الأمثل فالأمثل وهم الفقراء وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قلْتَ لا أجِدُ ما أحْمِلُكُمْ عليهِ تَوَلَّوْا وَأعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً ألَّا يَجِدُوا مَا ينفقُونَ**(٣) ﴾

وكون الرسول ﷺ هو الأفضل والأتم دل على فضل حالهم على غيرهم ، وقد قال عز وجل : ﴿ **إنّما السبيلُ على الذين يَسْتأذِنُونك وهم أغنياءُ**(٤) ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنّ الإنسانَ لَيطْغى ، أنْ رآهُ اسْتَغْنى**(٥) ﴾ ، فوصف الأغنياء بالطغيان ، وأوقع عليهم الحجة . وقال فى وصف الفقراء : ﴿ **يَحْسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّف**(٦) ﴾ .

منازل الفقراء :

ثم إن الفقراء على منازل ثلاث :

الطبقة الأولى : فقراء الأغنياء ، وهم السؤال عند الفاقات ، الكافون نفوسهم مع الكفاية ، القانعون بالكفاف ، وهم طهرة الأغنياء ومزيدهم من الله تعالى ، وهم الذين جعل الله لهم فى أموال الأغنياء سهماً ، لأن منهم السائل والمحروم ومنهم القانع والمعتر .

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمى .
(٢) رواه الترمذى عن ابن عباس .
(٣) سورة التوبة آية ٩٢ .
(٤) سورة التوبة آية ٩٣ .
(٥) سورة العلق آية ٦ -٧ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٧٣ .

والطبقة الثانية : فقراء الفقراء ، وهم المتحققون بالفقر المختارون له المؤثرون إياه على الغنى لعظم معرفتهم بعظيم فضيلة أهل التعفف والصيانة : لا يتذلون للسؤال ولا يعرضون فى المقال ، راضون بالميسور من مولاهم ، تعرفهم إذا رأيتهم بسيماهم يحسبهم الجاهل أغنياء ، لترك المسألة والشكوى ، ومنهم المحروم حرم السعى للدنيا . ومنهم القانع قنع بما يصل إليه من غير امتهان وتبذل فيه . ومنهم المعتر رضى عن الله تعالى بما يعتريه .

وأما الطبقة الثالثة : فهم أغنياء الفقراء ، وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعطاء ، ويأخذون ويخرجون ولا يستكثرون ولا يدخرون ، إن منعوا شكروا المانع ، لأنه هو المعطى فصار منعه عطاء ، وإن ضيق عليهم حمدوا الواسع ، لأنه هو المحمود فصار ضيقه رخاء ، وإن أعطوا بذلوا وآثروا ، فهم الزاهدون فى الدنيا لأنهم موقنون ، فكفاهم اليقين غنى .

وعن الحسن فى قوله عز وجل : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِى الأحياءُ وَلا الأمْواتُ**(١) ﴾ ، قال الفقراء والأغنياء ، فجعل الفقراء أحياء بمولاهم ، وجعل الأغنياء موتى بدنياهم . وقال الثورى رحمه الله : إذا رأيت الفقير يداخل الأغنياء فاعلم أنه مراء ، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى بعض الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضل . نعوذ بالله من الجهل والهوى ونسأله التوفيق للعلم والتقوى .

---

(١) سورة فاطر آية ٢١ .

الفصل الثانى

العلم ووصف العلماء وذم البدع

إعلم أن العلم إذا أطلقه المتقون فإن المراد به العلم بالله ، وبأيام الله وبأحكام الله دون غيره من العلوم ، لأنه هو العلم النافع الموصل إلى المقصود الأعظم ، وما سواه من العلوم آلة لنوال السيادة فى الدنيا ، أو السمعة والشهرة ، أو وسيلة لمقصد . وقبل أن نتكلم على وصف العلم ونبين فضائله نذكر الأوصاف التى يكون بها العالم عالماً بالله حقاً .

الأوصاف اللازمة للعالم بالله :

لابد للعالم من خمسة أمور هى علامة علماء الآخرة : الخشية . والخشوع . والتواضع . وحسن الخلق . والزهد . قال تعالى : ﴿ **إنمّا يَخشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ**(١) ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **خاشعينَ لله**(٢) ﴾ الآية ولابد من التواضع وحسن الخلق قال الله عز وجل : ﴿ **واخفِضْ جَنَاحك لِلمؤْمنينَ وقُلْ إنّى أنا النّذِيُر المُبينُ**(٣) ﴾ . وقال تعالى ﴿ **فَبِما رحْمةٍ مِنَ الله لِنْتَ لهم**(٤) ﴾ الآية ، والزهد فى الدنيا ، قال الله تعالى : ﴿ **وقالَ الذينَ أوتُوا العلمَ وَيْلَكُمْ ثَوَاب الله خيرٌ**(٥) ﴾

(١) سورة فاطر آية ١٨ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩٩ .
(٣) سورة الحجر آية ٨٨ - ٨٩ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .
(٥) سورة القصص آية ٨٠ .

فمن وجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عز وجل ، ولا يستبين العالم إلا عند المشكلات فى الدين ، ويحتاج إلى العارف عند شبهات حاكت الصدور ، كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : لا تزالون بخير ما إذا حاك فى صدر أحدكم شيء ، وجد من يخبره به ويشفيه منه ، وأيم الله أوشك أن لا تجدوا ذلك . وكما قال له رسول الله ﷺ : « **أى الناس أعلم ؟ فقال الله ورسوله أعلم ، فقال : أعلمهم بالحق إذا اشتبهت الأمور ووقعت المشكلات ، وإن كان يزخف على إسته** » ، فكذلك إذا اختلف الناس – وإن كان فى عمله تقصير – وكما قال ﷺ : « **إن الله تعالى يحب المبصر الناقد عند ورود الشبهات ، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات ، ويحب السخاء ولو على تمرات ، ويحب الشجاعة ولو على قتل الحيات**(١) » .

ندرة ذلك فى هذا الزمان :

وقد وقعنا فى زماننا هذا فى مثل ما خافه ابن مسعود ، لأن مشكلة لو وردت فى معانى التوحيد ، وشبهة لو اختلجت فى صدر مؤمن من معانى صفات الموحد ، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموفق ، ويثلج له الصدر المشروح بالهدى كان ذلك عزيزا فى وقتك هذا ، ولكنت فى استكشاف ذلك بين خمسة نفر :

١ – مبتدع ضال ، يخبرك برأيه عن هواه ، فيزيدك حيرة .

٢ – أو متكلم يفتيك بقصور علمه عن شهادة الموقنين ، وبقياس معقوله على ظاهر الدين وهذا شبهة ، فكيف تنكشف به شبهة ؟

٣ – أو صوفى شاطح تائه غالط يجاوز بك الكتاب والسنة لا يباليهما ، ويخالف بقوله الأئمة المرشدين ، فيجيبك بالظن والوسواس والحدس ، والتمويه وبمحو الكون والمكان ، ويسقط العلم والأحكام ، وهذا ساقط القول إذ ليس معه حجة ، ولا هو على سنن المحجة ، وهؤلاء تائهون فى مفازة التيه لم يقفوا على الحجة ، قد غرقوا فى بحر التوحيد لم يجعلوا أئمة للمتقين .

٤ – أو مفت عالم عند نفسه ، موسوم بالفقه عند أصحابه ، يقول لك هذا من أحكام الآخرة ، ومن علم الغيب لا نتكلم فيه ، لأنا لم نكلفه وهو فى أكثر مناظرته

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية عن عمران بن حصين .

يتكلم فيما لم نكلف ، ولا يعلم المسكين أنه كلف علم يقين الإيمان ، وحقيقة التوحيد ، ومعرفة إخلاص المعاملة ، لأن علم الإيمان ، وصحة التوحيد ، وإخلاص العبودية للربوبية ، وإخلاص الأعمال من الأهواء الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب ، هو من الفقه فى الدين ، ونعت أوصاف المؤمنين ، إذ مقتضاه الإنذار والتحذير لقوله تعالى : ﴿ **لِيَتَفَقَّهُوا فى الدينِ ولِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ**[1] ﴾ . الآية ، ولقول رسول الله ﷺ : « **تعلموا اليقين فإنى متعلم معكم**[2] » .

٥ — أو صاحب حديث وآثار ، وناقل رواية الأخبار ، يقول لك : إذا سألته اعتقد التسليم ، وأمر الحديث كما جاء ولا تفتش ، وهذا يتلو المفتى فى السلامة ، وهو أحسنهم طريقة وأشبههم بسلف العامة خليقة ، ليس عنده شهادة يقين ، ولا معرفة بحقيقة ما رآه ، ولا هو مشاهد وصفا لمعنى ما نقله ، وإنما هو للعلم راوية ، وللأثر والخبر ناقلة عن غير خبر يخبره ، ولا فقه فى نقله فهو على بينة من ربه ، وليس يتلوه شاهد منه .

العلماء وحقيقة العلم :

وكان مالك بن أنس يقول : أدركت سبعين شيخاً من التابعين منهم عباد ، ومنهم مستجاب الدعاء ، ومنهم من يستسقى به ، ما حملت عنهم علما قط ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، وفى رواية : لم يكونوا يدرون ما يحدثون به ، ولم يكن لهم فقه فيما يسألون عنه ، قال مالك : وتقدم علينا ابن شهاب الزهرى وهو حديث السن فكنا نزدحم عليه حتى لا نصل إليه لأنه كان عالما بما يحدث به ، فهذا بمعنى ما روى عنه ﷺ : « **رب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**[3] » . قال تعالى : ﴿ **ونُرِيدُ أن نَمُنَّ علىَ الَّذين اسْتُضْعِفُوا فى الأرْضِ ونَجْعَلَهم أئِمَّةً**[4] ﴾ ، والعلم نور يقذفه الله تعالى فى قلوب أوليائه ، والنور إذا جعل فى الصدر انشرح القلب بالعلم ، ونظر باليقين ، فنطق اللسان بحقيقة البيان ، وهو الحكمة التى يودعها الله فى قلوب أوليائه ، كما جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ**

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٢ .

(٢) رواه أبو نعيم .

(٣) أخرجه الترمذى عن زيد بن ثابت .

(٤) سورة القصص آية ٥ .

الخِطَاب[1] ﴾ ، قيل : الإصابة فى القول فكأنه يوفقه للحقيقة ، وقوله تعالى : ﴿ **يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً**[2] ﴾ ، قيل الفهم والفطنة .

وقد قال عليه الصلاة والسلام فى وصف الهداية حين تلا قوله عز وجل : ﴿ **فَمَنْ يُرِدِ الله أنْ يَهْدِيَه يشرَحْ صَدْرَهُ للإسْلام**[3] ﴾ . فقيل : يارسول الله ، ما هذا الشرح ؟ فقال : « **إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ فقال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله**[4] » . فذكر سببه الزهد فى الدنيا ، والإقبال على خدمة المولى . وحسن التوفيق والإصابة فى العلم مواهب من الله عز وجل وأثرة يختص بها من يشاء .

القول فى تسليم أخبار الصفات ، والسكوت عن تفسيرها كما قال أصحاب الحديث ، إلا أن بمعرفة معانى الأسماء والصفات وشهودها ينفى الظن والوسواس فيها ، وترك التشبيه والتمثيل بها ، والطمأنينة إلى اليقين بالمعرفة بمشاهدتها هو مقام الموقنين ، واعتقاد أنها صفات لله تعالى يتجلى بها وبما شاء من غيرها بلا حد ولا عدد ، يظهر بصفة أى صفة كيف شاء غير موقوف على صفة ، ولا محكوم عليه بصورة بلا إظهار غيرها ، بل هو كيف ظهر وبأى وصف تجلى مع نفى الكيفية والمثلية لفقد الجنس والجوهرية هو مقام المقربين من الشهداء ، وهؤلاء هم الصديقون وخصوص الموقنين ، فمن عدل به عن وجهة هؤلاء ولم يواجه شهادتهم عدل إلى التسليم والتصديق فيوقف عنده ، فكان أمنه واستراحته ، وليس بعد هؤلاء مقام يمدح ولا وصف يذكر ، فمن فتش ذلك بعقله ، وفسره برأيه ، دخل عليه التشبيه أو خرج إلى النفى والإبطال .

فضل هذا العلم على سائر العلوم :

ما جاء فى الأخبار المأثورة عن النبى ﷺ ، وعن الصحابة ، والتابعين ، فى فضل مجالس الذكر وفضل الذاكرين ، إنما يريدون به علم الإيمان والمعرفة ، وعلوم المعاملات

---

(١) سورة ص آية ٢٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٤) رواه الحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود .

والتفقه فى بصائر القلوب ، والنظر بعين اليقين إلى سرائر الغيوب ، وليس يريدون به مجالس القصص ، ولا يعنون بذلك القُصَّاصَ لأنهم كانوا يرون القصَصَ بدعة ويقولون : لم يُقَصَّ فى زمن رسول الله ﷺ ، ولا أبى بكر ولا عمر حتى ظهرت الفتنة ، فلما وقعت الفتنة ظهر القُصَّاص .

ولما دخل على كرم الله وجهه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول : لا يقص فى مسجدنا ، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم فى هذا العلم ، فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه ، وجاء ابن عمر إلى مجلسه فوجد قاصاً يقص فوجه إليه صاحب الشرطة أن أخرجه من المسجد فأخرجه ، فلو كانت القصص من مجالس الذكر والقصاص علماء ، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد ، هذا مع ورعه وزهده ، وروينا فى خبر أبى ذر : « **حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة ، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض ، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، قيل : يارسول الله ومن قراءة القرآن ، فقال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم ؟** » ، وقد كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله ﷺ : « **تعالوا حتى نؤمن ساعة فيجلسون إليه فيذكرهم العلم بالله تعالى ، والتوحيد ، والآخرة ، وكان يخلف رسول الله ﷺ بعد قيامه فيجتمع إليه الناس يذكرهم الله تعالى وأيامه ويفقههم فيما قال رسول الله ﷺ ، فربما خرج عليهم رسول الله ﷺ وهم مجتمعون عنده فيسكتون فيجلس إليهم ، ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه ، ويقول ﷺ : بهذا أمرت ولهذا دعوت** » .

الحث عليه فى الكتاب والسنة :

فحقيقة الذكر العلم بالله تعالى ، لما روى عنه ﷺ أنه قال : « **أفضل الذكر قول لا إله إلا الله**(١) » .

وقال سبحانه وتعالى فى تصديقه : ﴿ **فاعلمْ أنّه لَا إله إلّا الله**(٢) ﴾ . وقال : ﴿ **فأعْلَمُوا أنّما أُنزِلَ بِعِلم الله وَأن لا إلِهَ إلّا هُوَ**(٣) ﴾

---

(١) رواه الترمذى عن أبى هريرة .
(٢) سورة محمد آية ١٩ .
(٣) سورة هود آية ١٤ .

ثم إن من الذكر علم المشاهدة ، والمشاهدة صفة عين اليقين ، فإذا كشف الله تعالى غطاء العين شهدت معانى الصفات بأنوارها ، وهو مزيد نور اليقين الذى هو كمال الإيمان وحقيقته ، ومجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هى مجالس الذكر ، وهى التى جاءت فيها الآثار .

وفى الخبر : « **إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها ، قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر**[1] » . وفى الحديث : « **إن لله تعالى ملائكة سياحين فى الهواء فضلا عن كتاب الخلق ، إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتوهم حتى يجلسوا إليهم فيحفون بهم ويستمعون منهم ، ألا فاذكروا الله واذكروا أيامه أنفسكم**[2] » وروينا عن على كرم الله وجهه قوله : ما يسرنى أن الله تعالى أماتنى طفلا ، وأدخلنى الدرجات العلا من الجنة ، قيل : ولم ؟ قال : لأنه أحيانى حتى عرفته .

علم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص :

وعند أهل هذا العلم وهو العلم بالله تعالى أن علمهم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص ، والخصوص قليل ، ولم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله ويرون أن ذلك من حقه ، وأنه واجب عليهم كما وصفهم على كرم الله وجهه فى قوله : حتى يودعوه أمثالهم ويزرعوه فى قلوب أشكالهم ، كذلك جاءت الآثار عن نبينا وعن سيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام : « **لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطبيب الرفيق الذى يضع الدواء فى موضع الداء**[3] » ، فى لفظ آخر : « **من وضع الحكمة فى غير أهلها جهل ، ومن منعها أهلها ظلم ، إن للحكمة حقاً وإن لها أهلا وإن لأهلها حقا ، فأعط كل ذى حق حقه** » .

وفى حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه : « **لا تعلقوا الجوهر فى أعناق الخنازير ، فإن الحكمة خير من الجوهر ، ومن كرهها فهو شر من الخنزير** » .

---

(١) أخرجة الترمذى من حديث أنس .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٣) رواه ابن عساكر عن ابن عباس وعن عيسى بن مريم عليه السلام .

علم الظاهر وعلم الباطن :

وقد قيل : من لم ينتفع بسكوت العالم لم ينتفع بكلامه ، أى ينبغى أن يتأدب بصمته ، وخشوعه ، وورعه ويقتدى بيقينه فى ذلك ، كما يتأدب بنطقه ويقتدى بكلامه ، على أنهم يقولون : علم الظاهر من علم المُلْك . وعلم الباطن من علم الملكوت ، يعنون أن ذلك من علم الدنيا لأنه يحتاج إليه فى أمور الدنيا ، وهذا من علم الآخرة لأنه من زادها ، وهذا كما قالوه لأن اللسان ظاهر فهو من الملك وهو خزانة العلم الظاهر ، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن ، فقد صار فضل العلم الباطن على الظاهر ، كفضل الملكوت على الملك ، وهو الباطن الخفى ، وكفضل القلب على اللسان ، وهو الظاهر الجلى .

والعلماءُ بالله تعالى هم ورثة الأنبياء لأنهم ورثوا عنهم الدّلالة على الله تعالى ، والدعوة إليه والاقتداءُ بهم فى أعمال القلوب قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دعا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً**(١) ﴾ ، وكما قال تعالى : ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**(٢) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَة أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**(٣) ﴾ ، ويحشرون يوم القيامة مع الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ **أُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِم من النَّبِيِّينَ**(٤) ﴾ . وكما قال تعالى :﴿ **وَجِيءَ بِالنَّبِيينَ وَالشُّهَدَاءِ**(٥) ﴾ . ثم فسره فقال ﴿ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ ، وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**(٦) ﴾ .

وقد روينا معناه عن معاذ بن جبل ، قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ **إِنَّ أَقْرَبَ النَّاسِ مِنَ دَرَجَةِ النُّبوَّةِ أَهْلُ العِلمُ ، وأَهْلُ الجهَادِ أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءَ به الأنبياء وأماأهل الجهَاد فجاهَدوا بأسْيافهم على ما جاءت به الرسل**(٧) » ، **وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة والسلاطين** » .

(١) سورة فصلت آية ٣٣ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٨ .

(٤) سورة مريم آية ٥٨ .

(٥)سورة الزمر آية ٦٩ .

(٦) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٧) أخرجة أبو نعيم عن ابن عباس .

واعلم أن العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء ، وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والإفهام ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ، وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه ، وقرأ على أبى بن كعب ، ثم خالف زيداً فى الفقه ، وأبيا فى القراءة .

وقال بعض الفقهاء من السلف : ما جاءنا عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين ، وما جاءَنا عن الصحابة فنأخذ به ونترك ، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال ، قالوا ونقول : ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد ويقولون : لا ينبغى للرجل أن يفتى حتى يعرف اختلاف الفقهاء ، أى فيختار منها على علمه الأحوط للدين والأقوى باليقين ، فلو كانوا يستحبون أن يفتى العالم بمذهب غيره لم يحتج أن يعرف الاختلاف ، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه ، والعالم الذى هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة ، فإنه أداة الصنعة وآلة الصنع لأنه ذو تمييز وبصيرة ، ومن أهل التدبر والعبرة ، فأما الجاهل والعامى الغافل فله أن يقلد العلماء ، ولعالم عموم أيضاً أن يقلد عالم خصوص ، وللعالم بالعلم الظاهر أن يقلد من فوقه ممن جعل على علم الباطن من أهل القلوب ، لأن النبى ﷺ رد من علم الألسنة والفتيا إلى علم القلوب ، ولم يَرُدَّ أهل القلوب فى علمهم الذين يختصون به إلى المفتين لأنهم يأخذون من المفتين فتياهم ، ثم يجدون فى قلوبهم حيكا وحزازة فيلزمهم فتيا القلب لقوله : « **استفت قلبك** » ، بعد قوله : « **وإن أفتاك المفتون**(١) » مع قوله : « **الإثم حزاز القلوب** » ، إلى قوله : (٢)« **ما حاك فى صدرك فدعه وإن أفتاك وأفتوك** »

اعلم الناس فى زماننا :

ثم درست معرفة هذا بجهل فصار كل من نطق بكلام غريب على السامعين لا يعرف حقَّهَ من باطله سمُى عالما ، وكل كلام مستحسن زُخْرِفَ رونقه لا أُصل له يسمى علماً لجهل العامة بالعلم أى شىء هو ، فأعلم الناس فى زماننا هذا أُعرفهم بسيرة المتقدمين ، وأُعلمهم بطرائق السالفين ، ثم أُعلمهم بالعلم أى شىء هو ، وبالعالم من هو من المتعلم

(١) أخرجة أحمد من حديث وامضة .

(٢) أخرجة البيهقى عن ابن مسعود .

والمتعالم ، وهذا كالفرض على طالبى العلم أن يعرفوه لأنه لما قال ﷺ : « **طَلَبُ العلم فَرِيَضةٌ**[1] » وجب عليهم أن يعرفوا أى شيء هو العلم حتى يطلبوه ، إذ لا يصح طلب ما لا يعرف ، ثم وجب عليهم من هذا أن يعرفوا العالم من هو ليطلبوا عنده العلم ، إذ العلم عرض ولا يقوم إلا بجسم فلا يوجد إلا عند أهله كما قيل لعلى كرم الله وجهه : « أنت خالفت فلاناً فى كذا ، فقال : خيرنا أتبعنا لهذا الدين » .

فأعلم الناس فى هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف ، واشبههم بشمائل صالحى الخلف ، كيف وقد روينا عنه ﷺ : « **أنه سئل من أعلم الناس ؟ فقال : أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور** » . وفى خطبة له ﷺ : « **طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية ، وخالط أهل الفقه والحكمة وجانب أهل الذل والمعصية ، طوبى لمن ذل فى نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة**[2] » .

وقال على كرم الله وجهه : « يأتى على الناس زمان ينكر الحق تسعة أعشارهم لا ينجو منهم يومئذ إلا كل مؤمن نومة – يعنى صموتاً متغافلا – أولئك مصابيح العلم ، وأئمة الهدى ، وليسوا بالمزاييع البذل » . يعنى المتكلمين كثيراً المتظاهرين بالكلام افتخاراً .

وفى حديث أبى هريرة : « **يأتى على الناس زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا**[3] » . وعن بعض الصحابة : « **أنتم اليوم فى زمان من ترك منكم عشر ما يعلم هلك ، ويأتى عليكم زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا**[4] » .

علوم درست فى زماننا :

وقد كان للمتقدمين علوم يجتمعون عليها ويتفاوضونها بينهم قد درست فى زماننا ، ولليقين والمعرفة معان وطرائق يسلكونها ويسألون عنها قد ذهبت فى وقتنا ، وكان

(١) رواه ابن ماجة والبخارى .

(٢) أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن على .

(٣) رواه السيوطى والترمذى والطبرانى عن أبى هريرة .

(٤) رواه الترمذى عن أبى هريرة .

للصالحين مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها ؛ ويطلبون أربابها ؛ قد عفت آثارها عندنا لقلة الطالبين لها ، ولعدم الراغبين فيها ، وفقد العلماء بها ، وذهاب السالكين فى طرقها منها طلب الحلال ، وعلم الورع فى المكاسب والمعاملات ، وعلم الإخلاص ، وعلم آفات النفوس ، وفساد الأعمال ، وعلم نفاق العلم والعمل ، والفرق بين نفاق العلم والعمل ؛ والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس ، وبين إخفاء النفس شهواتها وإخفائها ذلك ، والفرق بين سكون القلب ، بالله ، وسكون النفس بالأسباب ، والفرق بين خواطر الروح والنفس ، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل ، وعلم خلائق الأحوال ، وأحوال طرائق العمال ، وتفاوت مشاهدات العارفين ، وتلويات الشواهد على المريدين ، وعلم القبض والبسط ، والتحقيق بصفات العبودية ، والتخلق بأخلاق الربوبية ؛ وتباين مقامات العلماء إلى غير ذلك مما لا نذكره من علم التوحيد ومعرفة معانى الصفات ، وعلوم المكاشفة بمجلى الذات ، وإظهار الأفعال الدالة على معانى الصفات الباطنة ، وظهور المعانى الدالة على النظر والإعراض ، والتقريب والإبعاد ، والنقص والمزيد ، والمثوبة والعقوبة ؛ والاجتباء والاختيار .

أنواع العلوم التى فرضها الله تعالى علينا :

إعلم أن من تعلم علماً من العلوم له معلوم من علوم الدين وغيرها من علوم الدنيا كالطب والبيطرة وعلوم القضاء والفتيا للولاية ، وعلوم اللسان والإنشاء للوزارة ، وعلم حماية الثغور واستحكام المعاقل ، وأصالة الرأى ، وتدبير الأحكام ، وعلم الحوادث والوقائع لقيادة الجيوش كل واحد من هؤلاء يسمى عالماً بعلم نافع .

وقبل أن أشرح هذا الموضوع أورد شرح أئمة السلف هداة الأمة ، وما بينوا به قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** [1] » ، وقوله » ﷺ **اطلبوا العلم ولو بالصين**[2] » ، وبإيراد أقوالهم يمكن لكل مطلع أن يعلم مجموع العلوم التى فرضها الله تعالى ورسوله ﷺ وإن تفاوتت بالنسبة لمعلومها ، فقد يكون العلم فرض عين وهو أول واجب على المسلم ، كعلم التوحيد ، وقد يكون فرض عين ولا يفرض عليك إلا بعد

---

(١) رواه ابن ماجه والمنذرى .

(٢) رواه ابن عدى والبيهقى من حديث أنس .

فرض عمله كعلم العبادات ، لأن عملها فرض وعلم تأدية العمل الفرض كاملا فرض عين على من فرض عليه العمل .

أقوال الأئمة فى معنى هذين الحديثين :

قال الإمام أبومحمد سهل رحمه الله ، أراد بذلك علم الحال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة . فيقوم بأحكام الله تعالى فى ذلك .

وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة ، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

وقال بعض علماء الشام : إنما عنى به طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره ، وما يصلح الأعمال ويفسدها ، فريضة كله من حيث كان الإخلاص فى الأعمال فريضة ، ومن حيث أعلم بعداوة إبليس ، ثم أمر بمناوأته ، وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه .

وقال بعض البصريين فى معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطروتفصيلها فريضة لأنها رسل الله تعالى إلى العبد ، ووسواس العدو والنفس ، فيستجيب العبد لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه ، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه فى نفيها ، ولأنها أول النية التي هى أول كل عمل ، وعنها تظهر الأفعال وعلى قدرها تضاعف الاعمال ، فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ، ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس ، وبين علم اليقين وفوادح العقل ، ليميز بذلك الأحكام ، وهذا عند هؤلاء فريضة وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ، وعبد الواحد بن زيد ، وأتباعهم من النساك . وقد كان أستاذهم الحسن البصرى يتكلم فى ذلك وعنه حملوا علوم القلوب .

وقال عبَّاد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة إذ قد أمر الله تعالى به ؛ وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء فى خبر مفسِر « **طلب الحلال فريضة بعد الفريضة** » ، ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم ، ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد وحبيب بن حرب .

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن اشتغل به واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين ، ولأنه جاء فى لفظ الحديث : « **تعلموا اليقين** » . فمعناه : اطلبوا علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين المخصوص فى قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى ، كما شهد له الخبر الآخر فى قوله ﷺ :« **وعلم باطن فى القلب وهو العلم النافع** » ، فهذا تفسير ما أجمل فى غيره ، وقال جُندَب : « كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان » ، يعنى تعلمنا علم الإيمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

وقال بعض السلف : إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الأمر والنهى ؛ والفرق بين الحلال والحرام ، إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك ، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً ، وإنما فيه فضل أو ندب .

وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه ، لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا يتجر فى سوقنا هذا إلا من تفقه ؛ وإلا أكل الربا شاء أم أبى » ، وكما قيل : تفقه ثم اتجر . ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما .

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون الرجل يريد أن يعمل شيئاً من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وإنما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الإصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار . ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر . ومنهم من قال : من طريق التوفيق والأثر . وقالت طائفة من هؤلاء : إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلا عنها على أصل التسليم ، ومعتقد جملة المسلمين لا يقع فى

وهمه ولا يحيك فى صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث . فإذا وقع فى سمعه شيء من ذلك ووقر فى قلبه ، ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقَطْعِهِ ، ومعرفة تمييز حقه من باطله ، لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلا أو ينفى حقاً ، فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه ، حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيما على شبهة فيتبع الهوى ، أو يكون شاكا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة . وهو لا يعلم .

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه : « اللهم أرنا الحق حقا فنتبعه ، وأرنا الباطل باطلا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك متشابهاً علينا فنتبع الهوى » . وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى وداود بن على والحسين الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبى ومن تابعهم من المتكلمين . فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالألفاظ لنا والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى إلا أهل الظاهر منهم فإنهم حملوا على ما يعلمونه ، وأهل الباطن حملوه على علمهم ، هذا ما وصل إلينا من أقوال الأئمة فى شرح هذين الحديثين .

والرأى عندى :

أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه ، والأئمة رضى الله عنهم وإن اختلفوا فى الأقوال فإنهم مجمعون أنه ﷺ لم يرد بذلك طلب علم الأقضية والفتاوى ، ولا علم الاختلاف والمذاهب ، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه ، وإن كان الله تعالى لا يخلى من ذلك من يقيمه بحفظه ، والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر والله أعلم ، أن قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة** » ، يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها .

ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضا من حيث افترض العمل ، فلما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس ،

فصار طلب علم هذه الخمس فرضاً ، لأنه فرض الفرض ، وعلم التوحيد داخل فيها لأنه فى أوله شهادة أن لا إله الا الله ، بإثبات صفاته المتصلة بذاته ، ونفى صفات سواه المنفصلة عنه إياه ، كله داخل فى علم شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام ، إذ لا يكون مسلماً إلا بإخلاص العمل لقوله ﷺ : « **ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله** .... » فبدأ به واشترطه للإسلام ، والأصل فى هذا أنه لم يرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلوماً بإجماع الأمة ، أنه لم يقصد بذلك علم الطب أو علم النجوم ولا علم النحو أو الشعر أو المغازى وهذه تسمى علوماً لأنها تكون معلومة وأربابها علماءُ بها ، إلا أن الشرع لم يرد بالأمر مقتضاها ، والأمة مجمعة أيضاً أنه لم يرد بذلك علم الفتيا والقضاء ؛ ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء ، وهذه تسمى علوماً عند أهلها ، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان ، والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية وبمعنى الإسم ، فقال : « **طلب العلم فريضة** » ، ثم قال : « **على كل مسلم** » ، بعد قوله : « **طلب العلم** » ، فكان هذا على الأعيان ، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم ، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه ، فأشير باللألف واللام إليه .

علم ما بنى الإسلام عليه فريضة :

فإذا بطلت هذه الوجوه صح أن قوله ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » أى طلب علم ما بنى الإسلام عليه فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابى حين سأله : « **أخبرنى ماذا افترض الله على ؟** » ، وفى لفظ آخر : « **أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به ، فأخبره بالشهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت** » ، **فقال : هل علىَّ غيرها ؟ فقال : لا ، إلا أن تطوع ، فقال : والله لا أزيد عليه شيئا ولا أنقص منه شيئاً ، فقال : « أفلح ودخل الجنة أن صدق**[1] » ، فكان علم هذه الخمسة فريضة من حيث كان معلومه فريضة ، إذ لا عمل إلا بعلم ، وقد قال تعالى : ﴿ **إلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**[2] ﴾ . وقال فى مثله : ﴿ **حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ**[3] ﴾ ، وقال : ﴿ **هَلْ**

---

(١) أخرجه البخارى عن أنس .
(٢) سورة الزخرف آية ٨٦ .
(٣) سورة النساء آية ٤٣ .

عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن[1] ﴾ ، وقال : ﴿ **بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله[2]** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً[3]** ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو[4]** ﴾ وقال : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون[5]** ﴾ .

فهذه الآيات افترض الله فيها طلب العلم ، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ، ثم قال مجملا : « **طلب العلم فريضة** » ، ثم وكده بقوله ﷺ : « **على كل مسلم** » ، فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها .

علم لا يضـــر جهـــله :

وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل : « أنه مر برجل والناس مجتمعون عليه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : رجل علّامة ، فقال : بماذا ؟ فقالوا : بالشعر والأنساب وأيام العرب ، فقال : هذا علم لا يضر جهله ، وفى لفظ آخر : « **علم لا ينفع وجهل لا يضر** » .وروينا فى الخبر : « **إن من العلم جهلا وإن من القول عيا** » ، وفى الخبر الآخر : « **قليل من التوفيق خير من كثير من العلم** » . وفى خبر غريب : « **كل شىء يحتاج إلى العلم ، والعلم يحتاج إلى التوفيق** » ، والخبر المشهور قوله ﷺ : **أعوذ بك من علم لا ينفع[7]** » ، فسماه علماً إذ له معلوم ، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم ، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

(٢) سورة الروم آية ٢٩ .

(٣) سورة الجاثية آية ١٨ - ١٩ .

(٤) سورة هود آية ١٤ .

(٥) سورة النحل آية ٤٣ .

(٦) أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى هريرة .

(٧) ذكره ابن عبد البر من حديث جابر .

العمـــل بالعلـــم :

وقد روينا فى خبر : « **إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم ، قلنا : يارسول الله كيف يسبقنا بالعلم ، قال : يقول اطلب العلم ولا تعمل به حتى تعلم ؛ فلا يزال فى العلم قائلا وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل**[1] » . ففى هذا الخبر دليلان . أحدهما : أنه أريد به طلب فضول العلم الذى لا نفع له فى الآخرة ولا قربة فى طلبه من الله ، والثانى : أن العلم المفضل المندوب إليه إنما هو الذى يقتضى العمل لأن النبى ﷺ لا يأمر بعمل بغير علم ، ولا يكره طلب علم للعمل به ، ألا تسمع إلى قوله ﷺ فى الخبر الآخر : « **فضل من علم أحب إلى من فضل من عمل وخير دينكم الورع**[2] » ، فنتج من ذلك كله أن المراد من العلم الذى فرض علينا رسول الله ﷺ طلبه هو علم التوحيد ثم علم عمل الأركان ، ثم العمل بعد ذلك به ، وعندها يرث الإنسان علم ما لم يعلم ، وإن علم اللسان الذى لم يكن للقلب فيه مشهد للحاكم الذى وضع الأحكام وخشية عن مراقبة الرقيب ، ورغبة فى نوال جمال الجميل ، وخوف من مقام العلى الكبير ؛ كان وبالا على صاحبه وبلاءً عليه .

العـلم بالله لا تلزمـه علـوم الدنيـا :

وإذا علم القلب بالحب واليقين والكشف والتمكين وفقه أسرار الدين . بما تلقاه الإنسان من العلوم النافعة التى فرضها عليه رسول الله ﷺ ولم يتلق غيرها من العلوم التى بها اعتدال اللسان ؛ والشهرة والسمعة والمنافسة فى معرفة الأمراءِ والوزراء والطمع فى الوظائف ، ومزاحمة كلاب الدنيا ، كان صاحب هذا القلب الذى علم ما فرضه رسول الله ﷺ ، وجهل ما زاحم فيه أهل الدنيا ، على الصراط المستقيم ، من خاصة أهل اليمين ، وقد يرفعه الله إلى مقامات المقربين ، ولم يكن أحَدٌ أعلم من إبليس ، وكم أضل الله قوماً على علم لم يصافهم بعلوم اليقين ، ولم يجتبهم للفقه فى الدِّين ، ولم يقمهم عمالا له سبحانه . قال الله تعالى : ﴿ **واتْلُ عَلَيْهِم نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آياتِنا**[3] ﴾ ، إلى آخر الآية ، فالعلم بالله لا يلزمه تلك العلوم ، وكم من أعجمى عرف ربه وعربى عالم بجميع العلوم جهل نفسه .

---

(١) الحديث فى الجامع والأحياء عن أنس .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار عن حذيفة بن اليمان .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٥ .

الواجب على من تعلموا علوم الدنيا :

والأولى لمن تعلموا تلك العلوم أن يشتغلوا بالعمل ببعضها ، وأن يستعملوها فى إظهار الحق ولو كان عليهم ، ومحو الباطل ولو كان منهم ، وأن يتعلموا الصبر على العمل الصالح ، والزهد والصدق ، والإخلاص ، والرضا بالقليل من الدنيا ، ودوام ذكر الله تعالى ، ومكارم الأخلاق ، من التواضع ، والعفة ، والصدق ، والأمانة ، والوفاء ، والبذل للإخوان ، وعلو النفس على أهل الدنيا بالعزة عليهم ، والذل لأهل الدين بالمسكنة إليهم من الفقراء أهل الطريق الذين يزدرونهم ويرمونهم بالجهل ، مع أن الله علمهم من علوم الأخلاق الفاضلة التى بها يكون الإنسان كاملا مما لو بذل عالم الدنيا نفسه وماله لنوال بعضه لما تحصَّل عليه ﴿ **كلّ حِزْبٍ بما لديهم**[1] **فَرِحُونَ** ﴾ .

وشتان بين من عرف نفسه فتجمل بجمالها الحقيقى لربه ، ومن جهل نفسه فتعزز برذائل الأخلاق من الكبر وتعظيم نفسه ، واحتقار الخلق فى نظره ، وذم عمال الآخرة ، ومدح أهل الدنيا ، والغرور بعلمه ، وجاهه ، ومنصبه ، وماله ، وضياع الأوقات فى التزلف للحكام ، والتملق لهم طمعاً فى جاه أو منصب ، أو علو فى الأرض بالباطل .

الوسط الذى هو الخير :

والوسط عندى الذى هو الخير : أن كل مسلم يرى لأخيه مزية ليست فيه فيطلبها بطريقها الذى يوصل إليها ، فالعلماء يجب عليهم أن يجالسوا العبَّاد ليتعلموا منهم العلوم النافعة ، والعباد يجالسون العلماء ليتعلموا منهم ما لابد لهم منه حتى يكون المؤمنون كجسد واحد ينتفع الجسد كله بكل عضو على حده ، والجسد كله فى منفعة العضو الواحد ، وبذلك يكونون رحماء بينهم كما قال تعالى ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**[2] ﴾ . فيمنحهم الله تعالى العزة على الكافرين ، والذلة لإخوانهم المؤمنين فيكونون جميعاً فى أى مكان « **كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بعضاً** » ، والله الموفق للصواب .

---

(١)سورة الروم آية ٣٢ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة :

قال الله جل ثناؤه وصدقت أنباؤه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا(١) ﴾ فالشريعة اسم من أسماء الطريق ، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع ، وهو وصف لطريق جامع لجوامع المحاج كلها ، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق ، وللطريق أسماء كثيرة منها الصراط المستقيم والسبيل والمنهاج والمحجة ، والمنسك ، وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء : شارع ، ومشرعة ، وشرعة وشريعة ، وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق ، فالشريعة تشتمل على اثنتى عشرة خصلة هى جامعة لأوصاف الإيمان ، أول ذلك الشهادتين وهى الفطرة ، والصلوات الخمس وهى الملة ، والزكاة وهى الطهرة ، والصيام وهو الجنة ، والحج وهو الكمال ، والجهاد وهو النصر ، والأمر بالمعروف وهو الحجة ، والنهى عن المنكر وهو الوقاية ، والجماعة وهى الألفة ، والاستقامة وهى العصمة ، وأكل الحلال وهو الورع ، والحب والبغض فى الله ، وهو الوثيقة ، وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﷺ ، وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما .

مزيد فى تفصيل الإسلام والإيمان وعقود القلب وشرح معاملته :

نتكلم فى هذا الموضوع بحقيقة مذاهب أهل الجماعة فيه ، قال الله تعالى :﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ(٢) ﴾ . وقال سبحانه وتعالى﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ(٣) ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ(٤) ﴾ وقال جل ثناؤه : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ(٥) ﴾ فعمد القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها ، وعقود القلب التى هى السنة المجمع عليها نقلها الخلف عن السلف ، ولم يختلف فيها اثنان من المؤمنين ، وهى ست عشر خصلة ، ثمان واجبات فى الدنيا ، وثمان واقعات فى الآخرة .

---

(١) سورة الجاثية آية ١٨ .
(٢) سورة المائدة آية ١ .
(٣) سورة المائدة آية ٨٩ .
(٤) سورة الأحزاب آية ٥ .
(٥) سورة البقرة آية ٢٢٥ .

الخصـــال الواجبـــة فى الدنيـــا :

١ – أن يعتقد العبد أن الإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، ويقوى بالعلم ، ويضعف بالجهل .

٢ – وأن القرآن كلام الله عزَّ وجل غير مخلوق ، وعلمه القديم صفة من صفاته هو متكلم به بذاته . وقال ﷺ : « **ما تقرب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شيء خرج منه وهو كلامه** » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **أعوذ بكلمات الله وأسمائه كلها** » . كما قال ﷺ : « **أعوذ بعزة الله وقدرته** » . دليل أن الكلام والأسماء صفات .

٣ – تسليم أخبار الصفات فيما ثبتت به الرواية وصحيح النقل ، ولا يتأول ولا يشبه بالقياس والعقل ، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى ، وينفي التشبيه والتكييف عنها ، إذ لا كفءَ للموصوف فَيُشبَّه به ، ولا مثل له فيجنس منه ، وفى رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام ، من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلوا شرائع الدين ، وأحكام الإيمان ، فإن كانوا عدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعدل مقبول القول فى كل ما نقله ، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات فالكذاب مردود القول فى كل ما جاء به ، والكذب على الله كفر ، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما هو من الأحكام أولى . ففى ذلك إبطال الشريعة ، وتكفير النقلة من الصحابة والتابعين بإحسان ، فلذلك كفر أصحاب الحديث من نفى أخبار الصفات .

٤ – ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله ﷺ ، وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافة ، ويسكت عما شجر بينهم ، وينشر محاسنهم وفضائلهم ، لنأتلف القلوب بذلك ، ونسلم لكل واحد منهم ما فعله ، لأنهم أوفر وأعلى عقولا منا ، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدى إليه اجتهاده ، ونقدم من قدمه الله ورسوله ، وأجمع المسلمون الذين تولى الله إجماعهم على الهداية ، وضمن الله تعالى لرسوله ﷺ تفضيلا لهم ، وتشريفاً لهم ، أن لا يجتمعوا على ضلالة ، وقد قال على كرم الله وجهه لما قيل له : ألا تستخلف علينا ؟ فقال : « لا أستخلف عليكم ، بل أكلكم إلى الله عز وجل ، فإن يرد بكم خيراً ، جمعكم بعد نبيكم على خيركم » ،

قال ابن عمر رضى الله عنه : كنا نقول على عهد رسول الله ﷺ : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فيبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكر . وقال رسول الله ﷺ :

« **الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا**[1] » ، **فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة ، وهم أئمة الأئمة من العشرة ، وعيون أهل الهجرة والنصرة ، وخيار الخيار من الأصحاب .**

وقال ﷺ : « **إن الله عز وجل اختار أصحابى على العالمين ، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى ، وفى كل أصحابى خير ، واختار أمتى على الأمم ، واختار من أمتى أربعة قرون فكل قرن سبعون سنة**[2] » ، فإنا نحن قوم متبعون نقفوا الأثر غير مبتدعين بالرأى والمعقول . وقال عليه الصلاة والسلام : « **عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ومن شذ ففى النار** » ، وقال تعالى فى تصديق ذلك :﴿ **وَمَن يَتَّبِع غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِه جَهَنَّمَ**[3] ﴾ .

ولما سبق فى علم الله تعالى ، أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم ، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رتبوا فى الخلافة ، فكان آخرهم استخلافاً هو آخرهم موتاً ، فدبر خلافتهم على ما علم من آجالهم ، ووفّى لهم بما وعدهم من استخلافهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السوالف ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وبدلهم أمنا بعد خوفهم كما قال الصادق فيما عهد :﴿ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ**[4] ﴾ ، فذلك تأويل قوله عز وجل : ﴿ **وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا مِنكُمْ وَعَمِلوا الصَّالحاتِ لَيستخِلِفَنَّهُمْ فى الأرضِ كما استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**[5] . ﴾ .

٥ – وأن يعتقد أن الإمامة فى قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة ، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف ، ويصبر على جوْرهم ، ويشكر على المعروف والعدْل ، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبر ، وقال أبو محمد : (الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال ، وإذا كان صالحاً فهو القُطب الذى تدور عليه الدنيا) قوله من الأبدال يعنى أبدال الملك كما قال جعفر بن محمد الصادق : أبدال الدنيا سبعة على مقاديرهم

(١) رواه الطيالسى وأحمد ونعيم عن سفينة مولى رسول الله ﷺ واسمه رومان .

(٢) رواه أبو نعيم والخطيب وبن عساكر عن جابر .

(٣)سورة النساء آية ١١٥ .

(٤) سورة التوبة آية ١١١ .

(٥) سورة النور آية ٥٥ .

يكون الناس فى كل زمان . من العباد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأكبر الجيش وصاحب الشرطة والقاضى وشهوده .

قال ﷺ : « **عدل ساعةٍ مِنْ إمَامٍ عَادل خيْرٌ مِنْ عبادةِ ستِينَ سَنةٍ**[١] » ، وقال ﷺ : « **يكون عليكم أمراءٌ يفسدون ، وما يصلح الله تعالى بهم أكثر ، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر**[٢] » .

٦ – لا يكفر أحداً من أهل القبلة وإن عظم ذنبه ، ولا ينزله جنة ولا ناراً ، بل يرجو له ويخاف عليه ، وإن من مات مصراً على الكبائر عن غير توبة منها فى مشيئة الله تعالى ، إن أثبت وعيده عليه كان عدلا ، وإن عفا وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلا .

٧ – لا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء ، ولا نوجب لنا عليه شيئا ، إنما نحن بين عدله وفضله ، وبمشيئته واختياره ، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك ، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، كيف وقد روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من وعده الله تعالى على عمل ثواباً فهو منجزه له ، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار** » ، وقد سئل ﷺ عن قوله تعالى :﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها**[٣] ﴾ ، **فقال : جزاؤه جهنم إن جازاه ففى كل قضاء لله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق** » .

٨ – وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها ، أنها من الله تعالى سابقة فى علمه جارية فى خلقه بحكمه ، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته ، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته ، وأنهم لا يطيقون ما حملهم إلا به ، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئته ، ونؤمن بقدرة الله وآياته فى ملكه ، وغيب ملكوته مما ذكر فى الأخبار من كراماته لأوليائه وإجاباته لأحبائه ، وإظهار القدرة للصديقين ، والصالحين ، مزيداً لإيمانهم ، وتثبيتاً ليقينهم ، وتكرمة وتشريفاً لهم ، وأنه ليس فى ذلك إبطال لنبوة الأنبياء ، ولا إدحاض حججهم ، من قبل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء ، ولا ادعوا ما ظهر لهم بحولهم وقوتهم ، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم ، ولا تظاهرأبه ، ولا اجتلاباً للدنيا ، ولا طلباً للرياسة على أهلها ، إنما هو شيءٌ كشفه الله تعالى لهم من سر

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن عباس وأبى هريرة .

(٢) رواه مسلم من حديث أم مسلمة .

(٣) سورة النساء آية ٩٣ .

ملكوته كيف شاء ، وأظهرهم عليه من غيب قدرته أين شاءَ كما شاءَ ، تخصيصاً لهم وتعريفاً ، وهم للأنبياء متبعون ، وعلى آثارهم مقتفون ، وبسننهم مقتدون ، فآتاهم الله تعالى ذلك ببركة الانبياء وبحسن اتباعهم لهم ، ولأنهم إخوانهم أبدالا ، لا أشكالا لهم وعنهم أمثالًا وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه فغنينا بالتواتر عن التناظر .

الخصال الواقعة فى الآخرة :

١ - أن يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير ، يقعدان العبد فى قبره فيسألانه عن التوحيد ، وعن الرسالة ، وهى آخر فتنة تعرض على المؤمن . وهما فتّانا القبر كذلك روينا عن رسول الله ﷺ وهو معنى قول الله عز وجل : ﴿ **يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفى الآخرةِ** ﴾ ، قيل : عند مساءلة منكر ونكير﴿ **ويُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعلُ اللهُ ما يَشاءُ**[١] ﴾ .

٢ - وعذاب القبر حق ، وحكمة ، وعدل ، على الجسم والروح والنفس ، يشتركون فى ذلك حسب اشتراكهم فى المعصية ، وإن كان نعيما كان ذلك على الجسم والروح والنفس ، يشتركون فى النعيم كما اشتركوا فى الطاعة . وهذا من أحكام الآخرة . يكون بمجارى القدرة ، ليس على ترتيب المعقول ، ولا عرف العقول ، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهى متفرقة ، فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان ، وليس فى القدرة مسافة ، ولا ترتيب ، ولا بعد ، ولا توقيت .

٣ - ويؤمن بالميزان أنه حق وعدل وحكمة وفضل ، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى ، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل بحقيقة العدل : ﴿ **وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**[٢] ﴾ ، فتكون الحسنات فى صورة حسنة تطرح فى كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى ، وتكون السيئات فى صورة سيئة تطرح فى كفة الظلمة ، فيخف لها الميزان بعدل الله تعالى .

٤ - ويعتقد أن الصراط حق على ما جاء فى وصفه فى الآثار ، كدِقّةِ الشّعْرة وحد السيف ، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار ، تثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله تعالى ،

---

(١) سورة إبراهيم آية ٢٧ .

(٢) سورة طه آية ١١١ .

فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى وتزل عنه أقدام المنافقين ، فتهوى بهم فى النار بحكم الله عز وجل .

٥ – ويؤمن بوقوع الحساب ، وتفاوت الخلق فيه ، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً ، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون .

٦ – ويُؤمن بالنظر إلى الله جل جلاله عيانا بالأبصار ، مواجهة تكشف الحجب والأستار ، بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته ، كيف شاء وهو معنى قول الله عز وجلّ :﴿ **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**[1] ﴾ . فالحسنى : الجنة ، والزيادة : النظر إلى الله تبارك وتعالى .

٧ – ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام ، حتى لا يبقى فى جهنم موحد بفضل الله .

٨ – ويعتقد بشفاعة الشافعين من النبيين والصدّيقين ، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله ، فيشفع النبيون والصديقون والعلماءُ والشهداءُ وسائر المؤمنين ، كل واحد وُسع جاهه ، وقدر منزلته ، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله ﷺ فى إثبات الشفاعة ، وفى إخراج الموحدين من النار وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا فى النار ، وهو معنى قول الله تعالى :﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**[2] ﴾ قال المفسرون : ذلك عند إخراج الموحدين من النار ، ويبقى الباق لرحمة أرحم الراحمين ، فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون ، ولم يقدم فى الشفاعة لهم المرسلون ، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﷺ .

فهذه عقود السنة الهادية وطريقة الأمة الراضية : ﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّموات وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**[3] ﴾ . على حسن توفيقه ، وجميل هدايته ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**[4] ﴾ ، فنعمة الله تعالى علينا بالسنة كنعمته علينا بالإسلام ، إذ نعمته علينا برسول الله ﷺ كنعمته علينا بمعرفته لاقتران طاعته بطاعته ، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنته .

---

(١) سورة يونس آية ٢٦ .

(٢) سورة الحجر آية ٢ .

(٣) سورة الجاثية آية ٣٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ٤٣

الأحـــوال والمواجيـــد :

إعلم أننا مأمورون بالإخلاص لذات الله تعالى ، وبتحسين النيات فى تصريف الأحوال ، وقد حذّرنا الله تعالى ، وحذّرنا رسول الله ﷺ أن تدخل الآفات على معتقداتنا ، وأحوالنا ، وأعمالنا ، وأقوالنا ، فتفسد علينا كل ذلك ، وهذا الموضوع هو أصل الخير وملاكه ، فمن لم يتعلم الإخلاص وتحسين النيات هلك من حيث يحسب أنه يحسن صنعاً ، وإنى أستحسن أن يكون علم الإخلاص والنيات الواجب الأول بعد علم التوحيد ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّيْنَ**(1) ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « **ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله تعالى ومناصحة ولاة الأمر ولزوم الجماعة . فإن دعوتهم تحيط من ورائهم** »(2) ... **وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل ، ولا قولاً وعملاً إلا بنية »** ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى ، والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله عز وجل » . فينبغى أن يكون للعبد فى كل شىء نية ، حتى فى مطعمه ومشربه وملبسه ونومه ، فإن ذلك كله من أعماله التى يسأل عنها فإن كانت لله تعالى وفيه كانت فى ميزان حسناته ، وإن كانت فى سبيل الهوى ولغير المولى كانت فى ميزان سيآته ، وإن كان ذلك غفله وسهوا من غير نية ولا عقد طوية ولا حسبة لم يكن له فى ذلك شىء ، ولم يغن عنه عمله فى الآخرة شيئاً ، وكان فيه لا له ولا عليه ، وكان ذلك فى الدنيا على مثال الأنعام التى تتصرف عن غير عقول ، ولا تكليف ، ولكن بإلهام وتوقيف ودخل فى وصف من قال الله تعالى فيهم : ﴿ **أغْفَلْنا قَلْبَهُ عن ذِكرِنا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكان أمْرُهُ فُرُطاً**(3) ﴾ . أى غفلة وسهواً وقيل : تفريطاً وتضييعاً ، فالنية الصالحة هى أول العمل الصالح وأول العطاء من الله تعالى ، وهى محل الجزاء ، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات .

حقيقـــــة النيـــــة :

وصورة النية معينان ، أحدهما : صحة قصد القلب إلى العمل بحسن التيقظ فيه

(1) سورة البينة آية ٥ .

(2) سبق تخريجه صفحة ٨٠ .

(3) سورة الكهف آية ٢٨ .

والإخلاص به لوجه الله تعالى ابتغاء ما عنده من الأجر ، فكل عمل كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبل بفضل الله تعالى وبرحمته ، لأن صاحبه قد اتقى الشرك والجهل والهوى ، فعمله مرفوع فى الخزائن مدَّخر له الجزاء ، وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين ، وهما الرّياء والهوى ، ليكون خالصاً كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن ، فكان بذلك تمام النعمة علينا فقال : ﴿ **مِنْ بينِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالصاً**[١] ﴾ . فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصاً ولم تتم النعمة به علينا ، ولم تقبله نفوسنا ، فكذلك معاملتنا لله تعالى إذا شابها رياء بخلق أو هوى من شهوة نفس ، ولم تكن خالصة ، لم يتم بها الصدق والأدب فى المعاملة ، ولم يقبلها الله تعالى منا فاعتبروا .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : أنَّهُ من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، ومن تزين للناس بما يعلم الله تعالى منه غير ذلك شانه الله تعالى ، فما ظنك ؟ وقال تعالى : فى تصديق ذلك : ﴿ **إن يُرِيدَا إصْلَاحاً يُوفِّقِ الله بينهمَا**[٢] ﴾ ، فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح ، فذلك هو أول التوفيق من الموفق المصلح للعامل الصالح ، وقال رسول الله ﷺ : « **من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة**[٣] » . وقال ﷺ : « **نية المرْء خير من عمله**[٤] » . وقال تعالى فى بعض الكتب « **ليس كل كلام الحكيم أتقبل ، ولكنى أنظر إلى همه وهواه ، فمن كان همه وهواه لى جعلت صمته ذكراً ونظره عبراً**[٥] » .

القلب هو محل نظر الله تعالى من العبد :

وهذا داخل فى عموم قوله ﷺ : ﴿ **إنَّ الله تَعَالى لا ينظُرُ إلى أجسامِكُمْ وَلا إلى أموالكم ، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**[٦] ﴾ . وقال ﷺ : ﴿ **إن العبد ليعمل أعمالا حسنة فتصعد بها الملائكة فى صحف مختمة فتلقى بين يدى الله تعالى فيقول : ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بذلك وجهى ، ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا ، فيقولون : رَبَّنا إنه لم يعمل شيْئا من ذلك فيقال : إنه نواه**[٧] ﴾ .

---

(١) سورة النحل آية ٦٦ .

(٢) سورة النساء آية ٣٥ .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد .

(٥) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير .

(٦) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٧) أخرجه الدارقطنى من حديث أنس .

وفى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه لما خرج رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قال : « **إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا نصبنا نصباًولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا وهم بالمدينة ، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا ؟ قال : حبسهم العذر فشاركونا بحسن النية**[1] » .

وقال ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوج بها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه**[2] . فأخبر انه لا عمل إلا بالنية ، ثم جعل لكل عبد نية ، ثم رد طالبى الدنيا والأزواج إلى نياتهم ، وحكم عليهم بها وجعلها نصيبهم من الله تعالى ، وفق ذلك لهم أو لم يوفقه ، فبطلت هجرتهم بفساد نياتهم ، وصارت همتهم بدنياهم وهواهم سبب حرمان ثواب المخلصين لله بحسن نياتهم وطلب آخرتهم ، وكان ذلك فى الآخرة حسرة عليهم ، وفى الدنيا شيناً لهم .

ضعف النية :

وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية ، فإذا ضعفت النية قويت النفس ، فتمكن الهوى ، فإذا قويت النية صح العزم ، وضعفت صفات النفس ، وينتقل العبد من معصية إلى معصية دونها فيكون تاركا للأولى بنية الترك لله تعالى ، وهذا أنفع له وأحمد عاقبة ، وأصلح لقلبه ، وأقرب إلى توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوى ، وفساد النيات ، لأنه يكون حينئذ متقلباً فى المعاصى بفساد دينه ، وخلط عملا سيئا بشىء مثله ودرأ بالسيئة السيئة قبلها ، وهذا بخلاف وصف الله تعالى من قوله : ﴿ **خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً**[3] ﴾ . وقوله : ﴿ **وَيَدْرَءُون بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** ﴾ ،ومخالف لأمر رسول الله ﷺ فى قوله : « **أتبع السيئة الحسنة تمحها**[4] » .

---

١) أخرجه البخارى وأبو داود عن أنس .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة التوبة آية ١٠٢ .

(٤) سورة الرعد آية ٢٢ .

(٥) رواه الترمذى عن أبى ذر .

معاملة القلوب :

وقال بعضهم : القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه . وقال الإنطاكى : إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح ، وقد تلبتس الفضائل بالنقائص لدقة معانيها وخفى علومها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب ، ومن ذلك : « **أنَّ رجلا كان يصلى فدعاه رسول الله** ﷺ **، فلم يجبه فظن أن وقوفه بين يدى الله تعالى بالغيب أفضل له ، فلما سلم جاءه ، فقال له** ﷺ **: ما منعك أن تجيبني حين دعوتك ؟ فقال : كنت أصلى ، فقال : ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبوا لله وَلِلرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكم[1] ﴾** ، فكانت إجابة النبى ﷺ أفضل له ، لأن صلاته نافلة ، وإجابة الرسول فرض عليه .

قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه ، ثم وقوفه على حده ، ثم إحكامه لحاله التى أقيم فيها ، ثم قيامه بعلمه الذى فتح له ، فيبتدىء العمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه مبلغ علمه ووسع وجده ، لا يشتغل بطلب فضل حتى يحكم عمل فرض ، لأن الفضل ربح لا يصح إلا بعد رأس المال ، ولكل فضل آفة قاطعة ، فمن سلم منها حاز فضله ، ولكل أمر نفيس مؤنة ثقيلة فمن تحملها أدرك نفيسها ، ومن تعذرت عليه السلامة فهيهات أن يصبر إلى فضل كرامة ، ومن لم يصبر على تحمل غرامه ، لم يدرك علو مقامه ، وقد يلتبس التكلف بالإخلاص وإظهار العلم بظهور التزين به . قال الثورى ، رحمه الله : « زَين نفسك بالعلم ولا تزيَّن به » ، أى أدبها لله عز وجل ، فتكون زينا فى أوليائه ، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه .

وقال ﷺ : « **إذا دعى أحدكم للطعام فإن كان مفطراً فليجب ، وإن كان صائماً فليقل إنى صائم** » ، فأمره باظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل ، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تفسير ذلك فى قلب أخيه ، لتفضيل العمال على الأعمال ، إذ الأعمال موقوفة على العامل فإنما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل ، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره فى العمل الواحد .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين :

إذا عرف الإنسان ما جبلت عليه النفس ومعانى ما هى مفطورة عليه ، ظهر له جليا أنها لا تقبل مواجيد اليقين إلا بالجهاد الأكبر ، ويكون المجاهد عالماً بما به يكون جهاده فى ذات الله تعالى أو فى سبيله ، وبذلك تزكو نفسه ، ويتحلى بأحوال أهل المقامات ، وبمواجيد العارفين . إذا تقرر ذلك فاعلم أن النقصان يبدو من الغفلة ، والغفلة تنشأ من آفات النفس ، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون وهو ابتلاؤها ، لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقواها . ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنتُم مُّسْلِمونَ**[1] ﴾ . لتفزعوا إليه فتقولوا : ﴿ **رَبَّنا أَفْرِغْ علينا صَبْرا وتَوَفَّنا مسلمين**[2] ﴾ ، وكما قال سبحانه : ﴿ **وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا**[3] ﴾ . و ﴿ **خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**[4] ﴾ . ثم قال : ﴿ **سَأُرِيكُم آياتى فَلَا تَسْتَعْجِلون**[5] ﴾ . وقال : ﴿ **أتى أَمْرُ الله فلا تَسْتَعْجِلُوهُ**[6] ﴾ . فأخبر عن وصفه بالعجلة ، ثم أمره بتركها للبلوى ، فإن نزلت السكينة وهى مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن منفسها ، وإن حجب القلب بالغفلة وهى علامة على الافتقار والتضرع ، تحركت النفس بطبعها فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل ، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل ، فأول الابتلاء اختلافها ، وأول اختلافها خلافها ، ومقدمته الهمة ، وبابه السمع ، وهو طريق إلى الكلام والنظر ، والقول طريق إلى الشهوة ، والشهوة مفتاح الخطيئة ، والخطيئة مقام من النار حتى يزحزح غيها الجبار ، بالتوبة فى الدنيا ، والعفو فى العقبى .

وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشد من النار ، كما حدثت عن بعضهم ، قال : لان أبتلى بدخول النار أحب إلى من أن أبتلى بمعصية ، قيل : ولم ؟ قال : لأن فى المعصية مخالفة ربى وسخطه ، وفى النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه ، قال : فسخطه أعز إلىَّ وأعظم من تعذيب نفسى . وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض الموقنين من العمال أنه قال : ركعتان تتقبل منى أحب إلى من دخول الجنة ، قيل : وكيف ؟ قال : لأن فى

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٢ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٢٦ .
(٣) سورة الإسراء آية ١١ .
(٤،٥) سورة الأنبياء آية ٢٧
(٦) سورة النحل آية ١ .

الركعتين رضا ربى عز وجل ومحبته ، وفى الجنة رضاى وشهوتى ، فرضا ربى عز وجل أحب إلى من محبتى .

وقد قال وهيب بن الورد المكى فى لبن سئل أن يشربه ، فلم يفعل لأنه سأل عن أصله فلم يستطبه ، فقالت له أمه : إشرب فإنى أرجو إن شربته أن يغفر الله لك ، فقال : ما أحب أن أشربه وإن الله يغفر لى ، قالت : ولم ؟ قال : لا أحب أن أنال مغفرته بمعصية .

وصف النفس :

لوصف النفس معنيان : الطيش والشره ، فالطيش عن الجهل ، والشره عن الحرص ، وهما فطرة النفس . فمثلها فى الطيش كمثل كرة أو جوزة فى مكان أملس منحدر سكونها بالمنة ، فإن أشرت إليها وحركتها أدنى حركة تحركت بوصفها ، وهو صفتها واستدارتها . وصورتها فى الشره المتولد من الحرص ؛ أنها على صورة الفراشة وأنها تقع فى النار جاهلة شرهة تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها ، فإذا وصلت إلى شيء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها ، فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته ، وهو نفس المصباح فتحترق ، ولو قنعت بقليل الضوء عن بعد سلمت ، فكذلك النفس فى طيشها الذى يتولد من العجلة ، وفى شرهها الذى ينتج من الحرص والطمع ، وهما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة ، لأنه طمع فى الخلود فحرص على الأكل . وقد مثل بعضهم النفس فى شرهها بمثل ذباب مرَّ على رغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله ، وآخر مر به فدنا من بعضه فنال حاجته ، فرجع إلى ورائه سالماً .

وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز ، لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى لا يكون له مخلص لأن القز يلتف عليه ، فيروم الخروج منه فيشمس فيقتل نفسه ويصير القز لغيره ، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه ، وربما غمزوه بالأيدى حتى يموت لئلا يقطع القز وليخرج القز صحيحاً ، فهذه صورة المكتسب الجاهل ، الذى أهلكه أهله وماله فتنعم ورثته بما شقى به ، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه ، وإن عصوا به كان شريكهم فى المعصية ، لأنه أكسبهم إياها به ، فلا يدرى أى الحسرتين عليه أعظم ؟ إذهابه عمره لغيره ، أو نظره إلى ماله فى ميزان غيره .

وجبلات النفس الأربعة هى أصول ما تفرع من هواها ، وهى مقتضى ما فطرها عليه مولاها ، أولها الضعف : وهو مقتضى فطرة التراب ، ثم البخل : وهو مقتضى جبلة الطين ، ثم الشهوة : وموجبها الحمأ المسنون ، ثم الجهل : وهو ما اقتضاه موجب الصلصال ، وهذه الصفات، على معانى تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج ففيه بدؤ الأمن والاعوجاج : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم[1] ﴾ .

ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة ، أولها معانى صفات الربوبية نحو الكبر والجبرية وحب المدح والعز والغنى . ومبتلاة بأخلاق الشياطين ، مثل : الخداع والحيلة والحسد والظنة . ومبتلاة بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح ، وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه . قيل : إنها خلقت متحركة ، وأمرت بالسكون وأنى لها ذلك ؟ إن لم يتداركها المالك ، وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكنها محركها بالخير .

إخلاص العبودية :

فلا يكون العبد عبداً مخلصاً حتى يكون للمعانى الثلاثة محصلا ، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصاً من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية . فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الإخلاص فى المعاملة عند العاملين ، وبذلك رفعوا إلى مقامات القرب ، وذلك أنه لا يكون عندهم عبداً ، حتى يكون مما سوى الله عز وجل حراً ، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد ؟ لأن ما قاده إليه فهو إلهه ، وما ترتب عليه فهو ربه ، وهذا شرك فى الإلهية عند المتألهين ، ومزج بالربوبية عند الربانيين ، فهو مهلك متعوس منكوس بدعاء الرسول ﷺ إذ يقول : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الزوجة ، تعس عبد الحُلَّة[2]** » ، فهؤلاء عبيد العدد الذين قال مولاهم : ﴿ **إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا[3]** ﴾ ، أصحاب النفوس الأمارة بالسوء المسئولة الموافقة للهوى المخالفة للمولى .

---

(١) سورة الانعام آية ٩٦ .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٣) سورة مريم آية ٩٣ - ٩٤ .

﴿ وعِبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً[1] ﴾ ، إلى آخر وصفهم ، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية ، هم عباد الرحمن ، أهل العلم والحكمة ، علّمهم من لدنه ، واختارهم لنفسه .

بم يكون المريد بدلا :

ولا يكون المريد بدلا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية صفات العبودية وبأخلاق ، الشياطين أوصاف المؤمنين ، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم ، فعندها يكون بدلا مقرباً ، والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها ، وتسخر له فيسلط عليها ، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها ، ولا توسع لها ، فان ملكتها ملكتك ، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك ، فإن أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها ، واحتبسها عن معتاد بلاها ، فإن لم تمسكها انطلقت بك ، وإن أردت أن تقوى عليها فاضعفها بقطع أسباب هواها ، وحبس موارد شهواتها ، وإلا قويت عليك فصرعتك ، فأول الملكة لها أن تحاسبها فى كل ساعة ، وتراقب حسبتها فى كل وقت ، وتقف عند كل همة من خواطرها ، فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت ، وبادرت الفوت فى إمضائها ، وإن كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت فى محوها ، لئلا تثبت وعملت فى الاستبدال بها كيلا تستبدل بك . وفى تأويل الخبر المروى : « **البر يزيد فى العمر**[2] » ، وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس : جعل الله فى عمرك البركة ، وقد بورك له فى عمره فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير بيقظتك ، ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته ، فيرتفع لك فى سنة ما لا يرتفع له فى عشرين سنة ، وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برفيع الدرجات ، وتدارك ما فات عند أذكارهم ، وأعمال قلوبهم اليسيرة فى هذه الأوقات ، فكل ذرة من ذكر بتسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة وتفكر وتذكرة بمشاهدة قرب ، ووجد برب ، ونظرة إلى حبيب ، ودنو إلى قريب ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين ، الذين هم بنفوسهم واجدون ، وللخلق مشاهدون ، مثل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم ، ورعايتهم لأماناتهم ، وعهدهم فى وقت قربهم وحضورهم ، مثل العامل فى ليلة القدر العمل فيها لمن وافقها. خير من ألف شهر .

---

(١) سورة الفرقان آية ٦٣

(٢) رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ثوبان .

وقد قال بعض العلماء : كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر ، وروينا عن على رضى الله عنه أنه قال : « كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد » . وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الخَالِيَةِ[1] ﴾ . قال : ياإخوانى ، هى والله أيامكم هذه ، فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيعوها فتخلوها فراغاً من حسن المعاملة ، وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها كما قال المبطلون : ﴿ ياحَسْرَتَنَا عَلَى ما فَرَّطْنا فيها[2] ﴾ يعنى فى الأيام الخالية التى هى محصولهم ومرجعهم ومثواهم ، وكما قالت النفس الأمارة بالسوء : ﴿ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله[3] ﴾ ، يعنى أيام الدنيا التى ضيعت العمر فيها فخلت من الثواب والجزاء غداً ، وهذا أحد الوجهين فى قوله : « الأَيَّام الْخَالِيَة » والوجه الآخر (الْخَالِيَة) أى الماضية ؛ خلت أوقاتها وخلدت أحكامهما وذهبت شهواتها وبقيت عقوباتها .

محاسبة النفس :

فإن قصرت عن هذه المحاسبة للحبيب ولم يكن كل مقام المراقبة للرقيب ، ولا مكان المحاسبة للحبيب ، فلا يفوتنك مقام الورعين ولا تبن عن حال التائبين ، وهو أن تجعل لك وردين فى اليوم والليلة لمحاسبة النفس ومواقفتها مرة بعد صلاة الضحى لما مضى من ليلتك ، وما سلف من غفلتك ، فإن رأيت نعمة شكرت الله ، وإن رأيت بلية استغفرت الله ، فإن وجدت فى حالك أوصاف المؤمنين التى وصفهم الله عز وجل ومدحهم عليها ، رجوت وطمعت واستبشرت ، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفاً من أوصاف المنافقين ، أو خلقاً من أخلاق الجاهلين التى ذمهم الله عز وجل بها ، ومقتهم عليها ، حزنت وأشفقت وتُبتَ من ذلك واستغفرت .

والمرة الثانية أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم ، لما مضى من يومك من طول غفلتك ، وسوء معاملتك ، وما فعلته من أعمالك ، كيف فعلتها ، ولمن فعلتها ، وما تركته من سكوتك وصمتك ، لم تركته ، ولمن تركته ، فتتفقد الزيادة والنقصان ،

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٤ .
(٢) سورة الأنعام آية ٣١ .
(٣) سورة الزمر آية ٥٦ .

وتعرف بذلك التكلف والإخلاص من حركتك وسكونك ، فما تحركت فيه وسكنت لأجل الله عز وجل به فهو الإخلاص ، ثوابك فيه على الله عز وجل ، عند مرجعك إليه ، فاعمل فى الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة فى التهلكة . وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك فهو التكلف الذى أخبر رسول الله ﷺ : « **أنه هو والأتقياء من أمته براءُ من التكلف**[1] » ، وقد استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب ، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب فاعمل حينئذ فى الاستغفار بعد حسن التوبة ، وجميل الاعتذار ؛ وخف أن يكون قد وكلك إلى نفسك فتهلك ، فلعل مشاهدة هذين المعنيين من خوف ما سلف منك ؛ والطمع فى قبول ما أسلفت يمنعك من المنام ، ويطرد عنك الغفلة ، فلتحى لياتك بالقيام ، فتكون ممن وصف الله عز وجل فى قوله : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً**[2] ﴾ . وقد قال بعض السلف : كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه .

وقد قال بعض العلماء : من علامة المقت أن يكون العبد ذاكراً لعيوب غيره ، ناسياً عيوب نفسه ؛ ما قتاً للناس على الظن ، محباً لنفسه على اليقين ، وترك محاسبة النفس ، ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل ، والغافلون فى الدنيا هم الخاسرون فى العقبى ، لأن العاقبة للمتقين ، قال الله عز وجل : ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**[3] ﴾ . وطول الغفلة من العبد على طبائع القلب فقد المعبود ، والغفلة فى الظاهر غلاف القلب فى الباطن تقول العرب : غفلة وغلفة بمعنى . كما تقول : جذب وجبذ ، وخشاف وخفاش ، وطبائع القلب على ترادف الذنب بعضه فوق بعض وهو الران الذى يتعقب الكسب فيكون عقوبة له ، قال الله تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**[4] ﴾ . قيل : المكاسب الخبيثة وأكل الحرام ، وفى التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب وأصل الرينة الميل والغلبة وهو التغطية أيضاً ، يقال : ران عليه النعاس إذا غلبه ، ورانت الخمر على عقله أى غطته .

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة ، وإهمال المحاسبة ، وتأخير التوبة ، والتسويف بالاستقامة ، وترك الاستغفار والندم ، وأصل ذلك كله هو حُبُّ الدنيا

---

(١) أخرجه الدارقطني والفردوسى من حديث الزبيربن العوام .

(٢) سورة السجدة آية ١٦ .

(٣) سورة النحل آية ١٠٨ - ١٠٩

(٤) سورة المطففين آية ١٤ .

وإيثارها على أمر الله عز وجل وغلبة الهوى على القلب ، ألم تسمع إلى قوله عز وجل : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُم اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنيا عَلَى الآخرة(١) ﴾ ، إلى قوله عز وجل : ﴿ أولئكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ(٢) ﴾ ، وقال فى دليل الخطاب : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عن الْهَوَى(٣) ﴾ ، يعنى إيثار الدنيا ، لأن صريح الكلام ، وقع فى وصفهم بالطغيان ، وايثار الحياة الدنيا ثم قال : ﴿ طَبَعَ اللهُ عَلَىَ قُلُوبِهِمْ واتَّبَعُوا أهواءَهُمْ(٤) ﴾ ، فاتباع الهوى عن طبائع القلب وطبائع القلب عن عقوبة الذنب وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب ، أما سمعته يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم ونَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ(٥) ﴾ ، وقد جعل على رضى الله عنه الغفلة مقاماً من مقامات الكفر ، فقال فى حديثه الطويل : « فقام إليه سلمان فقال : أخبرنا عن الكفر على ما بنى ؟ فقال : على أربع مقامات ، على الشك والجفاء والغفلة والعمى ، فإذا كثرت غفلة القلب قل إلهام الملك للعبد ، وهو سمع القلب لأن طول الغفلة يصمه عن السمع ، وعدم سماع الكلام من الملك عقوبة الخطايا ، وتثبيت الملك للعبد على الخير والطاعة وحى من الله عز وجل إليهم ، وتفضيل للعبد ، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الذين آمنُوا(٦) ﴾ وفى الخبر : « أن آدم عليه السلام حجب عن سماع كلام الملائكة فاستوحش بذلك ، فقال : يارب مالى لا أسمع كلام الملائكة ، فقال : خطيئتك ياآدم ، » فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك ، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ(٧) ﴾ .

المراقبة والمشاهدة :

إعلم أن مشاهدة المقربين هى أول مراقبة المشاهدين ، وذلك أن من كان مقامه

(١ ، ٢) سورة النحل آية ١٠٧ - ١٠٨ .
(٣) سورة عبس آية ٤٠ .
(٤) سورة محمد آية ١٦ .
(٥) سورة الأعراف آية ١٠٠ .
(٦) سورة الأنفال آية ١٢ .
(٧) سورة الأنعام آية ٣٦ .

المراقبة كان حاله المحاسبة ، ومن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة ، فأول شهادة المراقب هو أن يعلم يقيناً أن لا يخلو فى كل وقت ، وإن قصر من أحد ثلاثة معان :

المعنى الأول : أن يكون لله عز وجل عليه فرض ، والفرض : على ضربين شيء أمر بفعله ، أو شيء أمر بتركه ، وهو اجتناب المنهى .

والمعنى الثانى : ندب حث عليه وهو المسابقة بخير يقربه إلى الله عز وجل ، والمسارعة بعمل بر يبتدره قبل فواته .

والمعنى الثالث : شيء مباح فيه صلاح جسمه وقلبه :

وليس للمؤمن وقت رابع فإن أحدث وقتاً رابعاً فقد تعدى حدود الله : ﴿ **وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**[1] ﴾ . وقد أحدث فى دين الله سبحانه وتعالى ، ومن أحدث فى دين الله فقد سلك غير طريق المتقين ، ألم تسمع إلى قوله عز وجل : ﴿ **وهُوَ الذى جعلَ اللَّيْلَ والنهَّارَ خِلْفَةً لِمنْ أَرَادَ أن يذَّكَّرَ أوْ أَرَادَ شكوراً**[2] ﴾ . فهل ترى بين هذين وقتاً يجهل ، أو هوى كما لا ترى بين الليل والنهار وقتاً ثالثاً ، فالذكر الإيمان والعلم ، فهذان ينتظمان جهل أعمال القلوب ، والشكر والعمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم ، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح ، قال تعالى : ﴿ **اعمَلوُا آلَ داوُدَ شُكرْاً**[3] ﴾ ، وقال : ﴿ **فاتقُوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**[4] ﴾ . وقال « **كما أرْسلنَا فِيكمْ رَسوُلًا منْكُمْ**[5] » إلى قوله : ﴿**فاذْكُروني أذكُرْكم وأشْكُروالى ولَا تَكْفُرُونَ**[6] ﴾ . **وقال تعالى** : ﴿ **مَا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكم إنْ شَكَرْتُمَ وَآمنتُمْ**[7] ﴾ . وقال رسول الله ﷺ وقد عوتب فى طول قيامه حتى تورمت قدماه فقال : « **أفلا أكون عبداً شكوراً**[8] » ، ففسر الشكر بالعمل ، كما فسر الله تعالى العمل بالشكر ، والوقت الثالث هو المباح ، داخل فيهما لأنه معين عليهما ، وبه استقامه العبد فيهما .

---

(١) سورة الطلاق آية ١ .
(٢) سورة الفرقان آية ٦٢ .
(٣) سورة ص آية ١٣ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٣٣ .
(٥ ٦) سورة البقرة آية ١٥١ ، ١٥٢ .
(٧) سورة النساء آية ١٤٧ .
(٨) رواه البخارى ومسلم عن عائشة .

وقد كان بعض العلماء يقول لنا : « فى معاصى الطاعات هم ، وشغل عن معاصى المخالفات » ، فيبتدىء العبد المراقب فينظر بيقظته فى أدنى وقت هل لله عز وجل فيه فرض من أمر أو نهى ، فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه ، فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل ، فيبتدىء بالأفضل ، فإن لم يكن . عمل فى أدنى الفضيلتين فيأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن يومه لأمسه ، ومن ساعته ليومه ، ومن دنياه لآخرته ، كما أمره مولاه سبحانه وتعالى بقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**[1] ﴾ ، أى لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا ، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك ، وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تطلب الفساد فى الدنيا ، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة ، فيتركك الله من جزيل ثوابه ، الذى أعد لأحبابه كما قال : ﴿ **نسوا الله فنسيهم**[2] ﴾ ، أى تركوه فتركهم ، وتركهم له ترك نصيبهم منه ، وتركه عز وجل لهم ترك محابهم من الآخرة ، فيبتدىءُ العبد الفَطِنُ ، فيأخذ من عمره ووقته ، فيجعله لآخرته التى أيقن بها ، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت ، ولا يوجد إلا فيه ، يفوت دركه بفوت وقته ، وهو أفضل ما يقدر عليه مما أداه علمه إليه فيجعله لمولاه .

شهود نعمة أو شهود منعم :

ثم إن العبد لا يخلو فى كل وقت وإن قل من أحد مقامين ، مقام نعمة أو مقام بلية ، فحاله عن مقام النعمة الشكر ، وحاله عن مقام البلية الصبر ، ثم ليس يفقد أحد مشاهدتين ، شهود نعمة أو شهود منعم ، من حيث لا يخلو من وجود مالك ومملوك ، فعليه الخدمة للموجود ، وعليه الحضور فى خدمة المعبود ، والمراقبة علامة الحضور ، والمحاسبة دليل المراقبة ، ويكون له أيضاً فى أدنى أوقاته ، وهى الوقت الثالث الذى هو لمباحه ، وهو أدنى أحوال المؤمن يكون له فيه مشاهدة منعم أو شهود نعمة ، لئلا يذهب وقته هذا أيضاً فارغاً من دنياه ، ولا يعود عليه شىءٌ من ذكر مولاه ، أو يذكر نعمة تدل على منعم أو تخرجه إليه فينفعه ذلك فى عقباه ، إذ العاقبة للمتقين ، فإن شهدمنعما اقتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبة وهذا مخصوص ، وإن شهد نعمة استغرقه بالشكر والاعتبار ، فكان لديه تبصرة وتذكار ، وهذا لعموم الخصوص ، قال الله عز وجل فى

(١) سورة القصص آية ٧٧ .

(٢) سورة التوبة آية ٦٧ .

وصف الأولين : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ ، فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ[1] ﴾ ، وقال فى المقام الثانى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ[2] ﴾ . وقال فى مقام الأولين : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ[3] ﴾ ، إلى قوله تعالى : « أفلا تتقون » . وقال فى وصف الآخرين : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا[4] ﴾ ، إلى قوله تعالى : « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » . ومن علامة العاقل : أن يكون مقبلا عن شأنه ، حافظاً للسانه ، عارفاً بزمانه ، مكرماً لإخوانه .

مقامات العباد فى مشاهدة الملك :

ثم إن العباد فى مشاهدة الملكِ على أربعة مقامات ، كل عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله .

فمنهم من ينظر إلى الملك بعين التبصرة والعبرة ، فهؤلاء أولو الألباب الذين كشفت عن قلوبهم الحجب ، وهم أولو الأيدى والأبصار الذين أقامهم مقام الاعتبار ، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

ومنهم من ينظر إلى المُلك وأهله بعين الرحمة والحكمة ، وهذا مقام الخائفين .

ومنهم من ينظر إلى المُلك وأهله بعين المقت والبغضة ، وهذا مقام الزاهدين .

ومنهم من ينظر إلى المُلك بعين الشهوة والغبطة ، وهذا مقام الهالكين ، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون ، وعلى فوتها يتحسرون .

فإن أعطى العبد النظر إلى المُلك بعين العبرة والحكمة ، أدخله الملك على المَلِك فاستغنى به عما سواه ، وإن أُعطى الخائف النظر إلى المُلْكِ بعين الرحمة اغتبط بمقامه ، وعظمت لربه تعالى عليه النعمة ، وإن أُعطى الزاهد النظر إلى الملك بعين البغضة ؛ أخرجه الملك عن الملك بالزهد فيه ، فعوضه من فوت الملك الصغير درك الملك الكبير . ومن ابتلى بالنظر إلى المُلْكِ بعين الغبطة والحسرة ؛ أوقعه الملك فى الهلكة ، فسلك طريق المهالك .

(١، ٢) سورة الداريات آية ٤٩ -٥٠ .

(٣) سورة المؤمنون آية ٨٨ -٨٩ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٨٤ -٨٥ .

شهادة العارفين :

ومن شاهد معنى خلق من أخلاق الذات ، ومعنى وصف من الصفات ، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف ، من شهود نعيم أو عذاب ، وهو مقام له فى التعريف يرفعه إلى مقام التعرف ، وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التى تدل على معانى الأخلاق والأوصاف ، لأنه أظهرها عنه ليستدل عليه بها ، وينظر إليه منها ، فأما من شهد شهوة من شهوات النفس ، يعنى الهوى ، أخرجته إلى الأهواء ، فتخطفه الشياطين ، وهوت به الريح فى مكان سحيق ، وتنكب طريق المسالك إلى المولى ، التى تخرجه إلى التقريب ، وتقعده عند الحبيب : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ(١) ﴾ .

حياة أهل البعد :

فمن فاته القرب وقع فى التيه والبعد ، فهو اليائس المغبون الخائن المفتون ، الذى يكون أبداً يومه شراً من أمسه ، وغده شراً من يومه ، فالموت خير له من حياته ، لأن حياته عن الحبيب تبعده ، و بقاؤه عن السبيل يصده ، ووجده لهواه يفقده ، وظهور نفسه عليه من السوابق يقعده ، لأنه إذا كان فى إدبار ، وكان إدباره فى إقبال ، فقد فاته عمره عن آخره كفوت وقت واحد ، وفوت شيء واحد ، لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة ، وإنما يفوت جزءاً ، جزءاً ، على حكمة من الله عز وجل ، وتمهل واستدراج منه ، وقتاً بعد وقت ، ويوماً بعد يوم ، وعلى هذا سائر أوقاته ، تارة يقطعه عنه وتارة يصله بغيره ، حتى تفنى الأيام بالفوت ، وتنقضى الأوقات إلى الموت ، وفى ذلك يسبل عليه الستر ليغتر ، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم ، ويديم له العوافى لئلا يفطن ، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل ، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوجل ، وينشر له الرجاء ويطوى عنه الخوف ، حتى يبغتهم فجأة من حيث أمنهم ، ويأخذهم بغتة فى حال غمرتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(٢) ﴾ .

---

(١) سورة القمر آية ٥٥ .

(٢) سورة النمل آية ٥٠ .

الوصول بحفظ الأصول :

المخدوع هو من كان طلب الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض ، ومن شُغِل بغيره عن نفسه فقد مكر به ، وقالوا : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه ، ووقوفه على حده ، وإحكامه لحاله التى أقيم فيها ، فابتداؤه بالعمل بما افترض عليه ، بعد اجتنابه ما نهى عنه بعلم يدبره فى جميع ذلك ، وورع يحجزه عن الهوى فى ذلك ، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض ، لأن الفضل لا يصح إلا بعد حوز السلامة ، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال ، فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد ، وإلى الاغترار أقرب ، وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها وخفى علومها ، فيقدم العبد النفل ، وهو يحسب أنه الواجب .

فمن ذلك « **أنَّ أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائماً يصلى ، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه – فظن أن وقوفه بين يدى الله عز وجل بالغيب أفضل له – فلما سلم** جاءه ، **فقال له رسول الله ﷺ : ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك ؟ فقال : كنت أصلى ، فقال : ألم تسمع الله عز وجل يقول : ﴿ اسْتَجِيبُوا لله وَللرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُمْ**(١) ﴾ . فكأن رسول الله ﷺ دعاه وهو فى الصلاة ، ليفيده باطن العلم ، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل ، وكأن إجابته لرسول الله ﷺ أفضل من صلاته ، لأن صلاته نافلة له ، فهو مطيع لله عز وجل فى الغيب باختياره ، وإجابته لرسول الله ﷺ أفضل من صلاته ، لأنها فريضة عليه ، فهو مطيع لله تعالى فى الشهادة بإيجابه ، ففضل استجابته لرسول الله ﷺ على صلاته لنفسه ، كفضل الفرض على النفل ، وقد قال سبحانه : ﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللهَ**(٢) ﴾ وقال : ﴿ **إنَّ الذينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ**(٣) ﴾ . والله تعالى معه فى المكانين معاً ، وهو عند الرسول ﷺ على يقين ، فعبادة الله عز وجل ههنا أبلغ فى مرضاته ، وأثوب له فى آخرته .

---

(١) سورة الانفال آية ٢٤ .
(٢) سورة النساء آية ٨٠ .
(٣) سورة الفتح آية ١٠ .

مســــألة أصــولـيــــة :

سر استنباط العلماء بالله تعالى وبكتابه سبحانه ، يؤخذ من مثل هذه الأحاديث ، ومن عمل الصحابة رضوان الله عليهم ، يظهر ذلك جلياً لمن منحهم الله تعالى الفقه فى دينه . وفى هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد فى أمر ، كان على جملة عمومه ، وكلية ما تعلق به ، حتى تخص السنة أو الإجماع بعض شأنه ، ومن ذلك أن قول الله عز وجل : ﴿ **اسْتَجِيبوا لله وللرَّسُولِ اذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**[1] ﴾ ، أن ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول ﷺ بالإيمان والطاعة فى أوامر القرآن ، لا الإجابة له فى النداء خاصة فى الصلاة ، وهذا هو الذى حمله أبو سعيد بن المعلى وتأوله من الآية فأشكل عليه ، ومثل هذا فعل عمار فى التيمم ، لما نزلت آية الإباحة فى التيمم فى صلاة الفجر وهم فى سفر ، فقال عز وجل : ﴿ **فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيكُمْ**[2] ﴾ ولم يكن يسمع من النبى ﷺ فى تخصيص بعض اليد شيئا ، قال : فتيممنا إلى المناكب ، واستوعب جملة اليد لعموم الخطاب ، حتى أخبر النبى ﷺ بالتيم إلى المرفقين ، و فى خبر إلى الزند باختلاف الروايتين . فلذلك اختلف العلماء فى تبعيض اليد فى المسح ، وكذلك العمل فيما ورد مجملا ، أن يستعمل فى الجملة حتى تخصصه السنة .

فمن ذلك ما روى« **أن رجلين على عهد رسول الله ﷺ تآخيا فى العبادة فاعتزلا الناس ، فقال أحدهما لصاحبه : هلم اليوم فلننفرد عن الناس ، ونلزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا فإنه أبلغ فى عبادتنا ، فاعتزلا فى خلوة وصمتا ، فمر بهما رسول الله ﷺ ، فسلم عليهما فلم يردا عليه السلام ، قال : فسمعناه يقول حين جاوزنا : هَلَكَ المتعمقون المتنطعون**[3] » ، فاعتذرا إلى رسول الله ﷺ ، وتابا من ذلك إلى الله عز وجل .

وروينا « أن عمر رضى الله عنه كان يَعُسُّ ليلة مع ابن مسعود ، فاطلع من خلل الباب ، فإذا شيخ بين زقّ خمر وقينة تغنيه ، فتسور عليه وقال : ما أقبح بشيخ مثلك أن

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤ .
(٢) سورة النساء آية ٤٣ .
(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة .

يكون على مثل هذه الحال ، فقام إليه الرجل فقال : ياأمير المؤمنين ، انا شدك الله إلا أنصفتنى حتى أتكلم ، فقال له : قل ، فقال : إن كنت قد عصيت الله عز وجل فى واحدة فقد عصيته أنت فى ثلاث ، قال : وما هى ؟ قال : قد تجسست ، وقد نهاك الله عز وجل عن ذلك ، وتسورت ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا**[1] ﴾ . ودخلت بغير إذن ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ **لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**[2] ﴾ . فقال عمر : صدقت ، فهل أنت غافر لى ذلك ؟ فقال : غفر الله لك . فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه وهو يقول : ويل لعمر إن لم يغفر الله له ، تجد الرجل كان يتخفى بهذا عن ولده وجاره ، فالآن يقول : رآنى أمير المؤمنين » . ونحو ذلك .

فضل العمال على الأعمال :

وفى الخبر : « **إذا دعى أحدكم إلى طعام فإن كان مفطراً فليجب ، وإن كان صائماً فليقل إنى صائم** » . فأمره بإظهار عمله ، وهو يعلم أن الإخفاء أفضل ، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر فى قلب أخيه وجداً ، أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك فى قلب أخيه ، لتفضيل المؤمن وحرمته على الأعمال ، إذ الأعمال موقوفة على العامل ، وإنما يعطى الثواب على قدر العامل ، لا على قدر العمل ، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره فى العمل الواحد ، فدل ذلك أن المؤمن أفضل من العمل ، فقيل له : ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك ، فهو خير لك من إخفاء العمل ، مع وجد أخيك عليك ، لأن أخاك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه ، ولم تعتذر إليه عذراً بيناً يقبله منك ويعرفه ، شق عليه إن كان صادقاً فى دعائك .

حال للعبد أولى من حال غيره :

وما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره ، ما رواه أبو نصر التمار أن رجلا جاء يودع بشر بن الحرث ، وقال : قد عزمت على الحج ، أفتأمرنى بشىء ؟ فقال له بشر :

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٩ .

(٢) سورة النور آية ٢٧ .

كم أعددت للنفقة ؟ قال : ألفى درهم ، قال :فأى شيء تبتغى بحجك ، نزهة ، أو اشتياقاً إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل ؟ قال : أبتغي مرضاة الله عز وجل قال : فإن أصبت رضا الله عز وجل وأنت فى منزلك ، وتنفق ألفى درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل ، أتفعل ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطها عشرة أنفس ، مدين يقضى بها دينه ، وفقير يرمى شعثه ، ومعيل يحيى عياله ، ومربى يتيم يفرحه ، وتغيث لهفانا ، وتكشف ضر محتاج ، وتعين رجلا ضعيف اليقين وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل ، فإن إدخالك السرور على قلب امرىء مسلم ، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فاخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما فى قلبك ، فقال : ياأبا النصر ، سفرى أقوى فى قلبى ، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطراً يشرع إليه ، فظاهرت أعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين . وفى نحوه قيل له أيضاً : إن رجلا غنياً يصوم كثيراً ويصلى كثيراً ، فقال : المكسين ترك حاله ودخل فى حال غيره ، إنما حال هذه إطعام الطعام للجياع ، والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه ، مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وقد يكون اختفاء الأوجب من الفرائض والتباسه بالفضائل ، محنة من الله عز وجل لعبادة وحكمة له فيهم ، فيرتكبون التأويل للسعة ، ويتركون الضيق لخفائه عليهم لينفذ فيهم العلم ، ويجرى عليهم الحكم ، ويكون ذلك تأديباً لهم وتعريفاً ، ومزيداً فى التسليم وتوفيقاً .

العتب على الحبيب الرشيد :

وقد قال الله تعالى فيما عتب على نبيه ﷺ ، ووعظه وزجره فى قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى[1] » الآية ، يقال : إن رسول الله ﷺ لم يغتم فى عمره ، كغمه حين أنزل عليه سورة عبس ، لأن فيها عتباً شديداً على مثله لأنه الحبيب الرشيد ، ومع ذلك لم يقصده فى الخطاب ، فيكون أيسر للعتاب ، بل كشف ذلك للمؤمنين ، ونبه على فعله عباده

(١) سورة عبس آية ١ .

المتقين ، لأن معنى قوله : « عَبَسَ وَتَوَلّى » . أى انظروا أيها المؤمنون أو اعجبوا إلى الذى : « عَبَسَ وَتَوَلّىٰ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى » .

ولذلك روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلغه أن بعض المنافقين يؤم قومه ، فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة « عَبَسَ » ، ليضع من شأن الرسول ﷺ بذلك عنده وعند قومه ، فأرسل فضرب عنقه يستدل بذلك على كفره . ومثله قوله عز وجل عاتباً على رسوله ﷺ : ﴿ **عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لهم**[1] ﴾ ، ونحوه : ﴿ **لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرضَاتَ أزواجك**[2] ﴾ ، وبمعناه قوله عز وجل : ﴿ **وَتخفي فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ**[3] ﴾ ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : « **لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية** » ، والعالم عند العلماء من علم خير الخيرين فسبق إليه قبل فوته ، وعلم شر الخيرين فأعرض عنه ، لئلا يشغله عن الأخير منهما ، وعلم أيضاً خير الشرين ففعله إذا اضطر إليه وابتلى به ، وعلم شر الشرين فأمعن فى الهرب منه ، واحتجب بحجابين عنه . وفى هذه المعانى دقائق العلوم ، وغرائب الفهوم ، وأدلة للسائلين ، وعبرة وآيات للعالمين ، فأما شر الشرين ومعرفة الخير من الشر فهو معروف بأدلة العقول وظاهر العلوم .

مــــراقـــى المـــريـــديـن :

الخلق محجوبون بثلاث : حبُّ الدرهم ، وطلب الرياسة ، وطاعة النساء . وقال بعض العارفين : الذى قطع العباد عن الله عز وجل ثلاثة أشياء : « قلة الصدق فى الإرادة ، والجهل بالطريق ، ونطق علماءُ السوء بالهوى » . وقال بعضهم : إذا كان المطلوب محجوباً والدليل مفقوداً والاختلاف موجوداً لم ينكشف الحق . وإذا لم ينكشف الحق تحير المريد .

---

(١) سورة التوبة آية ٤٣ .
(٢) سورة التحريم آية ١ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

المريد لا بد له من خصال سبع :

١ - الصدق فى الإرادة ، وعلامته إعداد العدة .

٢ - لابد له من التسبب إلى الطاعة ، وعلامة ذلك هجر قرناءِ السوءِ .

٣ - لا بد له من المعرفة بحال نفسه ، وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس .

٤ - لابد له من مجالسة عالم بالله ، وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه .

٥ - لابد له من توبة نصوح ، فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة ، وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى ، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه .

٦ - لابد له من طعمة حلال لا يذمها العلم ، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع .

٧ - لابد له من قرين صالح يؤازره على ذلك ، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى ، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان . فهذه الخصال السبع قوتُ الإرادة لا قوام لها إلّا بها ، ويستعين على هذه السبع بأربع ، هن أساسُ بنيانه ، وبها قوة أركانه ، أولها الجوع . ثم السهر . ثم الصمت . ثم الخلوة فهذه الأربع سجن النفس وضيقها ، وضرب النفس وتقييدها ، بهن تضعف صفاتها ، وعليهن تحسن معاملاتها ، ولكل واحدة من الأربع صفة حسنة فى القلب .

الجوع :

فأما الجوع ، فإنه ينقص من دم القلب فيبيض ، وفى بياضه نوره ، ويذيب شحمة الفؤاد ، وفى ذوبه رقته ، ورقته مفتاح كل خير ، لأن القسوة مفتاح كل شر . وفى خبر عيسى عليه السلام : « **يامعشر الحواريين جَوِّعوا بطونكم وعطِّشوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل** » ، يعنى بحقيقة الزهد وصفاء القلب . فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة ، وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها ، وفى ذلك حياة القلب وصلاحه ، وأقل ما فى الجوع إيثار الصمت ، وفى الصمت السلامة وهى غاية للعقلاء ، وقال سهل رحمة الله : اجتمع الخير كله فى هذه الأربع خصال وبها صار الأبدال أبدالا : إخماص البطون ، والصمت ، والسهر ، والاعتزال عن الناس . وقال : من لم يصبر على الجوع والضر ، لم يتحقق بهذا الأمر .

وروينا عن مكحول : « ثلاث خصال يحبها الله عز وجل ، وثلاث يبغضها الله عز وجل ، فأما اللاتى يحبها فقلة الأكل ، وقلة النوم ، وقلة الكلام ، وأما اللاتى يبغض : فكثرة الأكل ، وكثرة الكلام ، وكثرة النوم » .

السهـــــر :

وقال بعض العلماء : من سهر أربعين ليلة خالصاً ، كوشف بملكوت السماء . واعلم أن نوم العلماء عن غلبة النوم ، بعد طول السهر بالقيام ، مكاشفة لهم وشهود ، وتقريب لهم منه وورود . ومن صفة الأبدال أن يكون أكلهم فاقة ، ونومهم غلبة ، وكلامهم ضرورة ، ومن سهر بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار ، فإنه أسهره بالليل فى خدمته ، وفى الخبر : « **قيلوا فإن الشياطين لا تقيل ، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار** » .

فأما النَّومُ : فإن فى مداومته طول الغفلة ، وقلة العقل ، ونقصان الفطنة ، وسهوة القلب ، وفى هذه الأشياء الفوت ، وفى الفوت الحسرة بعد الموت ، وروينا عن النبى ﷺ أنه قال : « **قالت أم سليمان بن داود لابنها : يابنى لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيراً يوم القيامة** » . وقيل : « كان شابان يتعبدان فى بنى إسرائيل ، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال : يامعشر المريدين : لا تأكلوا كثيراً ، فتشربوا كثيراً ، فتخسروا كثيراً » .

الصمـــت :

وأما الصمت : فإنه يلقح العقل ، ويعلم الورع ، ويجلب التقوى ، ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجا ، ويوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد . وقال عقبة بن عامر : يارسول الله فيم النجاة ؟ قال : « **أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك**[1] » . وقال ﷺ فى الخبر الجامع المختصر : « **من سره أن يسلم فليلزم الصمت**[2] » . وفى الخبر : « **لا يتقى العبد ربه حق تقاته حتى يخزن من لسانه** » . وفى الحديث : « **لا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه ، ولا**

(١) رواه الترمذى وأبو داود وابن أبى الدنيا والبيهقى .

(٢) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى عن أنس .

يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » ، وقال بعض السلف : « تعلم الصمت كما تتعلم الكلام ، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك ، ولك فى الصمت خصلتان ، تدفع به جهل من هو أجهل منك ، وتتعلم به علم من هو أعلم منك » . وعن جماعة من السلف : « أن تسعة أعشار السلامة فى الصمت » . ويقال : كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يوقف العبد عليها خمس مواقف بتوبيخ وتقرير ، أولها : أن يقال له : لم قلت كلمة كذا أكانت فيما يعنيك ؟ والثانية : هل نفعتك إذ قلتها ؟ والثالثة : هل ضرتك لو لم تقلها ؟ والرابعة : ألا سكت فربحت السلامة من عاقبتها ؟ والخامسة : هلا جعلت مكانها قول سبحان الله والحمد لله فنعمت ثوابها . ويقال : ما من كلمة إلا وينشر لها ثلاثة دواوين ، الديوان الأول : لم ، والثانى : كيف ، والثالث : لمن ، فإن نجا من الثلاث وإلاطال وقوفه للحساب .

وأما كثرة الكلام : ففيه قلة الورع ، وعدم التقوى ، وطول الحساب ، وكثرة المطالبين وتعلق المظلومين ، وكثرة الأشهاد من الأملاك الكاتبين ، ودوام الإعراض من الملك الكريم ، لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان ، فيه الكذب والغيبة والنميمة والبهتان ، وفيه شهادة الزور ، وفيه قذف المحصن ، والافتراء على الله تعالى ، وفيه القول فيما لا يعنى ، والخوض فيما لا ينفع ، وقد جاء فى الخبر : « **أكثر خطايا ابن آدم فى لسانه ، وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه**[1] » ، وفى اللسان التزين والتصنع للخلق ، والتحريف والإحالة لمعانى الصدق ، وفيه المداهنة والمواراة والتملق لأهل الأهواء . وفى اجتماع هذا على العبد شتات قلبه ، وفى شتاته تفريق همه ، وفى تفريق همه سقوطه من مقام المقربين .

الخـــــلوة :

وأما الخلوة ، فإنها تفرغ القلب من الخلق ، وتجمع الهم بأمر الخالق ، وتقوى العزم على الثبات ، إذ فى مخالطة الناس وهن العزم وشتات الهم ، وضعف النية ، والخلوة تقل الأفكار فى عاجل حظوظ النفس لفقد مشاهدتها بالأبصار ، لأن العين باب القلب ، ومنها تدخل آفاته وعندها توجد شهواته ، ولذاته ، ومن كثرت لحظاته دامت حسراته ، والخلوة تجلب أفكار الآخرة ، وتجدد الاهتمام بها لما شهد به الإيقان ، وتنسى أذكار

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن مسعود .

العباد ، وتواصل ذكر المعبود ، والخلوة من أكبر العوافى وذلك أنه قد جاء فى الحديث : « **سلوا الله العافية فما أعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية**[1] » . وفى الخبر : « **العزلة عن الناس عافية** » ، ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد فى الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد مالا يجده فى الجماعة ، ويجد فى السر من النشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، ويكون أنسه فى الوحدة ، وروحه فى الخلوة ، وأحسن أعماله فى السر .

مخالطة الناس :.

وأما مخالطة الناس فإنها تضعف العزم الذى كان قويا فى أعمال البر ، وتحل العقد المبرم الذى استوطنه العبد فى الخلوة ، لقلة المتعاونين على البر والتقوى ، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان ، وقوة الطلب والحرص على عاجل الدنيا ، لما يعاين من إقبال أهلها عليه ، وأعظم ما فى مخالطة الناس ومجالسة أهل البطالة وذوى غفلتهم ، ضعف اليقين برؤيتهم ، وأضر ما ابتلى به العبد وأعمله فى هلاكه وأشده لحجبه وإبعاده ، ضعف يقينه بما وعد به الغيب وتوعد عليه فى الشهادة ، وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﷺ على أمته فإنه قال : « **أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين**[2] » ، لأن قوة اليقين أصل كل عمل صالح ، لأن فى قوة يقين العبد سرعة منقلبه ، ومع طول مثواه فى دار إقامته ، إيثار التقلل فى الفانى وتقديمه للباق ، وضعف حرصه ، وقله طلبه ، وفقد طمعه وفراغه من الاشتغال بعاجله ، وإقباله وشغله بما ندب إليه من مستقره ، وفى جميع ذلك إخلاصه فى أعماله ، وحقيقة زهده فى تصرف أحواله ، وفى قصر أمله وتحسين عمله ، ألم تسمع لقوله تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التكاثُرُ** ﴾ ، أى شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتم القبور ، ثم قال : ﴿ **كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ علمَ اليقينِ** ﴾[3] أى لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو الذى هو مقتضى الشك ، وذلك فى وصف الذى أخبر عنه سبحانه بالتكاثر الذى ألهاه ، حتى زار برزخه ومثواه .

وقد جاء فى فضل العزلة والانفراد ، وفى فضل الصمت ، وفى جميع ما ذكرنا من الجوع والسهر ، ومن مكابدة الليل ما يكثر جمعه ، وفيما نبهنا عليه وأشرنا إليه بلاغ ، وهداية لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه .
(٢) رواه ابن المبارك عن أبى هريرة .
(٣) سورة التكاثر آية ٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

علوم اليقين

تفضيل علوم اليقين :

قبل أن نتكلم على علوم اليقين نبين تفضيلها على سائر العلوم . واعلم أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك ، إذا رغب فيه وحرص عليه ، لأنه نتيجة الذهن ، وثمرة العقل ، إلا علم الإيمان واليقين ، فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته ، والكلام فى حقائقه إلا لمؤمن موقن ، من قبل أن ذلك تقرير مزيد الإيمان ، وحقيقة العلم والإيقان ، فهو آيات الله تعالى ، وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته ، وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين ، وعهده لا ينال للظالمين ، وعظمته وقدرته لا تكون شهادة للزائغين ، ولا وجْداً للمبطلين ، لأن فى ذلك توهين لآيات الله وحججه ، وانتقاص لبراهينه وقدرته ، ودخول الشك فى اليقين الذى هو محجة المخلصين ، والذين هم بقية الله تعالى من عباده ، واشتباه الباطل بالحق الذى هو وصف أهل الصدق ، الذين هم أدلته عليه من أهل وداده ، وهذا أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره .

قال الله عز وجل : ﴿ **أَوَ لَمْ يَكُن لَهُمْ آيَةً أن يَعْلَمَهُ عُلمَاءُ بَنِي إسْرائِيلَ**[1] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **بَلْ هُوَ آياتٌ بيّناتٌ فى صُدُورِ الذّينَ أوتُوا العلم**[2] ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ للمُتَوَسّمين**[3] ﴾ . وقال : ﴿ **قَدْ بَيّنّاَ الآياتِ لِقَوْمٍ**

---

(١) سورة الشعراء آية ١٩٧ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٩ .

(٣) سورة الحجر آية ٧٥ .

يوقنون[4] ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَلِنُبَيِّنَه لقومٍ يَعْلمون[5] ﴾ . فهؤلاء العلماء بالله تعالى ، الناطقون عن الله عز وجل ، جعل لهم أنصبة منه مكاناً عنده ، ولا يكون ذلك لمن ليس أهلا له ولا حقيقاً به ، لأنهم آيات الله تعالى ، وبيناته ، وشهوده ، وبصائره ، كاشفوا طريقه ، ومُظهِروا بيانه ، إذ يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيانَهُ[6] ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنْسانَ عَلَّمَهُ البيانَ[7] ﴾ ، بعد قوله : ﴿ وكان حَقاً علينا نَصْرُ المؤمنين[8] ﴾ . مع قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا أَحقَّ بهَا وأَهلَها [9] ﴾ . فنصروه بما نصرهم به ، وتحققوا بما حققهم منه ، وشهدوا له ما شهد لهم عنه ، فكانوا للمتقين إماماً ، وإلى الهداية أعلاماً . وقال بعض أهل المعرفة : « من لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يخل من شرك أو نفاق ، لأنه عار من علم اليقين ، ومن عرى من اليقين وجد فيه دقائق الشك » ، وقال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم ، أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأدنى النصيب منه التصديق به ، وتسليمه لأهله . وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم بشيء ، بدعة أو كبر . وقالت طائفة من أهله : من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به . وقال بعضهم : أقل عقوبة من أنكر هذا العلم أن لا يرزق منه شيء أبداً . واتفقوا على أنه علم الصديقين ، وأن من كان له منه نصيب فهو من المقربين ، وينال درجة أصحاب اليمين .

الفرق بين علم التوحيد والعلوم الظاهرة :

واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مباين لسائر العلوم ، فالاختلاف فى سائر العلوم الظاهرة رحمة ، والاختلاف فى علم التوحيد ضلال وبدعة ، والخطأ فى علم الظاهر مغفور ، وربما كانت حسنة إذا اجتهد ، والخطأ فى علم التوحيد وشهادة اليقين كفر ، من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى فى طلب العلم الظاهر ، وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله فى التوحيد ، ومن ابتدع شيئاً ردت عليه

(٤) سورة البقرة آية ١١٨ .
(٥)سورة الأنعام آية ١٠٥ .
(٦) سورة القيامة آية ١٩ .
(٧) سورة الرحمن آية ٣-٤ .
(٨) سورة الروم آية ٤٧ .
(٩) سورة الفتح آية ٢٦ .

بدعته ، وكان مسئولا عنه ، ولم يكن حجة لله تعالى على عباده ، ولا غيثاً نافعاً في بلاده ، بل كان موصوفاً بالدنيا ، وفيها من الراغبين ، ولم يكن دليلا على الله عز وجل ، ولا من دعاة الدّين ، ولا إماماً للمتقين .

الحذر من مخالفة السنة :

وقد جاء في الخبر : « **العلماءُ أمناءُ الرسُّل ، ما لم يدخلوا في الدنيا فإذا فعلو ذلك فاحذروهم على دينكم**[١] » والخبر المشهور ﴿ **أن من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد**[٢] ﴾ . وروى عنه ﷺ أنه قال : ﴿ **مما أخاف على أمتي زلة عالم ، وجدال منافق في القرآن**[٣] ﴾ ، وكان بعض السلف يقول : « مثل العالم إذا زل مثل سفينة ، إذا غرقت غرق معها خلق كثير » . ويروى في خبر : « **من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يارسول الله ، وما غِشُّ أُمتك ؟ قال : أن يبتدع بدعة في الإسلام يحمل الناس عليها**[٤] » ، وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : ويل للعالم من الأتباع ، وويل للأتباع من العالم ، يزل العالم بزلة فيتبعه عليها فئة من الناس وتبلغ الآفاق ، وما أُعلم أحداً أعظم جرماً ممن ابتدع في دين الله عز وجل ، فنطق في كتاب الله تعالى ، وفي علم المعرفة بما لم يأذن به الله ، ثم لم يحبأ بسنن رسول الله ﷺ ، الذى هو حجة الله تعالى على جميع خلقه ، وطريق مقربيه من عباده ، فأضل بذلك عباد الله عز وجل .

وروينا عن رسول الله ﷺ قال : « **إن لله تعالى ملكاً ينادى كل يوم ، من خالف سنة رسول الله ﷺ لم تنله شفاعته** » . وقال على كرم الله وجهه : « الهوى شريك العمى » ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا**[٥] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرى عَلَى اللهِ كَذِبَاً**[٦] ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شيءٌ . وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ**[٧] ﴾ ،

---

(١) رواه القضاعى وابن عساكر عن أنس .
(٢) رواه البخارى ومسلم وأبو داود عن عائشة .
(٣) أخرجه الطبرانى عن أبى الدرداء .
(٤) رواه الدارقطنى من حديث أنس .
(٥) سورة النساء آية ١٢٢ .
(٦ ، ٧) سورة الأنعام آية ٩٣ .

فسوى بين الكذاب فى الفرية على الله تعالى ، وبين المتشبه المضاهى للربوبية . وكذلك من أعظم المنكر بعد هذا إنكار الحق من أهله ورده عليهم بالتكذيب ، وقد سوى الله تعالى بين التكذيب بالحق وبين ابتداء الكذب على الخالق فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرى على الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لمَّا جاءَهُ**(١) ﴾ . وقال تعالى فى مثله : ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمنَ كَذَبَ عَلَى الله وكَذَّبَ بالصِّدْقِ إذْ جاءَهُ**(٢) ﴾ ، كذلك أيضاً فى ضده سوى كما سوى عز وجل بين الصادق بالصدق والمصدق به فقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بالِصِّدْقِ وَصَدَّقَ به أولئكَ هُم المتَّقُونَ**(٣) ﴾ .

أهل العلم بالله :

وقال ﷺ : « **العالم والمتعلم شريكان فى العلم**(٤) » ، ولكن الله تعالى قد جعل هذه الطائفة من أهل العلم بالله تعالى ، ترد على جميع الطوائف من الشاطحين والمبتدعين ، أهل الجهالة بالدين ، والحيدة عن سبيل المؤمنين ، بما أراهم الله تعالى من علم اليقين ، وبما شهد لهم رسول الله ﷺ بالعلم والتعديل فى قوله : « **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين** » ، فالغالون هم الشاطحون ، لأنهم قد جاوزوا العلم ، ومحوا الرسم فأسقطوا الحكم ، والمبطلون هم المدعون المبتدعون ، لأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وافتروا بالدعوى ، وابتدعوا بالرأى والهوى ، والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم ، المغترون لما عرفوا من ظاهر العقل ، كما روينا عن النبى ﷺ : « **إن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، ولا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً ، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه**(٥) » .
وكل من تأول السنن بالرأى أو المعقول أو نطق بما لم يسبق إليه السلف من القول أو بمعناه ، فهو متكلف مبطل . فأهل العلم بالله يردون علوم المعقول بعلم اليقين ، وعلم الرأى بعلم السنة ، ويثبتون أهل الآثار ، ويؤيدون نقلة الأخبار بما يفصلون من

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٨ .
(٢ ، ٣) سورة الزمر آية ٣٢-٣٣ .
(٤) رواه الترمذى عن أبى هريرة .
(٥) رواه أبو منصور الديلمى فى المسند .

أخبارهم ، ويفسرون من حديثهم ، مما لم يجعل للنَّقلَةِ طريق إليه ، ولم يهتد الرواة إلى كشف منه ، بما أشهدهم الله عز وجل واستودعهم ، ونور به قلوبهم ونطقهم ، فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يشاءُ**[1] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا منهُمْ أئِمَّةً يهْدُونَ بأمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآياتِنَا يوُقِنُونَ**[2] ﴾

النمط الأوسط :

وقال على كرم الله وجهه : عليكم بالنمط الأوسط ، الذى يرجع إليه الغالى ويرتفع عنه القالى . وهكذا سيرة السلف ، أنه لا يستمع إلى متبدع لأنه منكر ، ولا يرد عليه بالجدال والنظر لأنه بدعة ، ولكن يخبر بالسنن ويحتج بالأثر ، فإن قبل فهو أخوك فى الله ، ووجبت عليك موالاته ، وإن لم يرجع وأنكر قضى بإنكاره ، وعرف ببدعته ، وحقت عداوته ، وهجر فى الله تعالى .

وروى عنه ﷺ : ﴿ **أنه قيل له : أى جلسائنا خير ؟ قال : من ذكركم بالله تعالى رؤيته ، وزاد فى علمكم منطقه ، وذكركم بالآخرة عمله**[3] ﴾ . فأما الذى يطلب دنياهم حتى يكون مثلهم ، فإذا رأوه اغتبطوا بحالهم فهذا شر منهم ، لأنه يدعو إلى نفسه لا إلى مولاه ، ولأنه طامع فيهم وهم زاهدون فيه . فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم الورعون فى دين الله ، الزاهدون فى فضول الدنيا ، الناطقون بعلم اليقين والقدرة ، لا علم الرأى والهوى ، الصامتون عن الشبهات والآراء ، لا يختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأى قائل ، ولا بقول مبطل جاهل ، كما روى عنه ﷺ : « **صَلَحَ أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**[4] » ، وهذا طريق لا يسلكه فى وقتنا هذا إلا من عرف فضله ، وطريقة السلف فيه ، والله أعلم .

---

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) سورة السجدة آية ٢٤ .

(٣) رواه أبو يعلى عن ابن عباس .

(٤) رواه الطبرانى عن ابن عمر .

علوم اليقين عن مشاهدات مقام اليقين :

أصول مقاماتها التي تنتج عنها أحوال الموقنين ، وترد إليها فروع أحوال المتقين تسعة مقامات ، وهي : التوبة . والصبر . والشكر . والرجاء . والخوف . والزهد . والتوكل . والرضا . والمحبة ، وبعد المحبة مقامات محبوب ، ومنازلات علام الغيوب ، ثم الرهبة والرغبة ، ثم اللقاء بالله تعالى والفناءُ عما سواه ، ومن مقام محبوب تتقصر العبارة عن بيان مشاهداتهم ، ووصف مراقباتهم ، وكشف ما يواجههم به ربهم سبحانه وتعالى من أسرار عين اليقين وحق اليقين .

أولا : مقام التوبة :

التوبة الرجوع إلى الله والندم على ما فات .

مشاهدات التوبة :

إما للعامة أو للخاصة ، توبة العامة : قال الله تعالى : ﴿ **وَتُوبُوا إلى الله جميعاً أيُّهَا المؤمِنونَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ**[1] ﴾ ، معنى هذا الخطاب ارجعوا إلى الله تعالى من حظوظ أنفسكم وهواها ، ومن وقوفكم مع شهواتكم لتظفروا بالفلاح وهو نيل بغيتكم يوم القيامة ، وليحصل لكم البقاءُ ببقاء الله عز و جل فى نعيم لا زوال له ، وبهجة لانفاد لها ، ولتفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار ، وهذا هو فلاح العامة .

توبة الخاصة :

عن مشاهدات الخصوص ، قال الله تعالى : ﴿ **يأيُّهاَ الذّين آمنوُا تُوبُوا إلىَ الله تَوْبةً نَصوُحاً عَسىَ ربُّكم أنْ يُكَفّرَ عَنكُمْ سَيئاتكُمْ ويُدْخِلكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى من تحتها الأنْهارُ**[2] ﴾ ، فنصوحاً يعنى خالصة من النصح ، وهو الاستقامة على الطاعة من غير زوغان إلى معصية ، مجاهداً نفسه أن يخطر على قلبه خاطر العودة إلى ذنب وهو قادر

(١) سورة النور آية ٣١ .

(٢) سورة التحريم آية ٨ .

عليه ، وأن يترك عمل الذنوب والمعاصى لأجل الله تعالى ، خالصاً لوجهه الكريم ، كما فعلها خالصاً لحظه وهواه ، فإذا أتى الله بقلب سليم من الهوى ، وعمل خالص مستقيم على السنة ، فهو الذى ختم الله له بحسن الخاتمة ، وأدركته الحسنى السابقة ، وهذا العمل هو التوبة النصوح ، وعامله هو العبد التواب المتطهر الحبيب الذى سبقت له من الله الحسنى ، وتداركه نعمة من ربه فرحمه بها من أدران السوءى ، وهو وصف من قصده سبحانه بخطابه فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**[1] ﴾ . وقال ﷺ « **التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له**[2] » .

وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال : هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود إليه . وقال محمد أبو سهل رحمه الله . ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة ، وجهل الناس علم التوبة . وقال : من يقل إن التوبة ليست بفرض فهو كافر ، ومن رضى بقوله فهو كافر ، وقال : التائب : الذى يتوب من غفلته فى الطاعات فى كل طرفة ونفس .

وقد جعل على كرم الله وجهة ترك التوبة مقاماً فى العمى ، وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر ، فقال فى الحديث الطويل : « ومن عَمِى نسى الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة » .

فرض التوبة الذى لا بد للتائب منه :

ففرض التوبة الذى لا بد للتائب منه ، ولا يكون محقاً صادقا إلا به ، الإقرار بالذنب ، والاعتراف بالظلم ، ومقت النفس على الهوى ، وحل الإصرار الذى كان عقده على أعمال السيئات ، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه ، لأن الطعمة أساس الصالحين ، ثم الندم على ما فات من الجنايات ، وحقيقة الندم ، إن كان حقاً - إذ لكل حق حقيقة - أن لا يعود إلى مثل ما وقع الندم عليه ، ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهى ، وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

(٢) رواه ابن ماجة عن ابن مسعود .

الاعوجاج به ، وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله ، وأن لا يصحب جاهلا فيرديه ، ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد فى أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا ، فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين ، كما لا يضيع أجر المحسنين ، ثم استبدال السيئات بالحسنات ليكون ممن تبدل سيآته حسنات ، لتحققه بالتوبة وحسن الإنابة ، لأن التبديل يكون فى الدنيا ، يبدل بالأعمال السوءى أعمالا حسنى بدليل قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله لَا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغَيِّروا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**[1] ﴾ . فإذا غير ما بهم من سيىء حسناً بدل سيِّئاتهم حسناتٍ ، ثم الندم ودوام الحزن ، وحقيقة الندم والحزن على الفوت أن لا يفرط ولا ينسى فى دركه ، ولا يرجع ولا ينثنى فى حيز استبداله ، فيفوت نفسه وقتاً ثانياً إذا كان يعمل فى درك ما فات ، ولا يفوت ما أدرك فى حال يقظته ، فتكون يقظته شبيها بما مضى من غفلته ، إذ كان فى درك ما فات شبيهاً بما مضى من غفلته ، إذ لا يدرك الفوت بالفوت ، ولا النعيم بالنعيم ، ليكون كما وصف الله تعالى : ﴿ **وآخَرُونَ اعْتَرفُوا بِذُنوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وآخرَ سَيِّئاً**[2] ﴾ . قيل الاعتراف الندم .

وقال أبو سليمان الدارانى لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوات ما مضى منه فى غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات ، فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ، وقال ﷺ فى حديث أبى ذر « **فإذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية** » . وفى وصية معاذ : « **أتبع السيّئة الحسنة تمحها** » . ولتدخل فى الصالحين لقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فى الصَّالِحِين**[3] ﴾ . ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قدر عليها ليدرك بها ما ضيع وفات ليكون من الصالحين ، وفى هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه ، كما قال تعالى « **وَهُوَ يَتولَّى الصَّالِحِينَ**[4] »

وما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال ، أولها : فرض عليه أن لا يعصى الله تعالى . الثانية : إذا ابتلى بمعصية لايُصرُّ عليها . الخصلة الثالثة : التوبة إلى الله تعالى منها . الرابعة : الندم على مافرط منه . الخامسة : عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت . السادسة : خوف العقوبة . السابعة : رجاءُ المغفرة . والثامنة : الاعتراف بالذنب .

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .

(٢) سورة التوبة ١٠٢ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٩ .

(٤) سورة الأعراف آية ١٩٦ .

والتاسعة : اعتقاد أن الله تعالى قدر ذلك عليه وأنه عدْلٌ منه . والعاشرة : المتابعة بالعمل الصالح ليعمل فى الكفارات لقوله عليه الصلاة والسلام : « **وَأَتْبِع السَّيِّئَةَ الحسنة تمحها** » وفى جميع هذه الخصال آثار عن الصحابة والتابعين يكثر ذكرها .

التوبة من قريب :

وقيل فى معنى قوله تعالى ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**[1] ﴾ . قيل : الوقت القريب ، أن يقول العبد عند كشف الغطاء : ياملك الموت أخرنى يوما أعبد فيه ربى ، وأعتب فيه ذنبى وأتزود صالحا لنفسى ، فيقول : فنيت الأيام فلا يوم ، فيقول أخرنى ساعة فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، قال : فتبلغ الروح الحلقوم ، فيؤخذ بكظمة عند الغرغرة ، فيغلق باب التوبة ويحجب عنه ، وتنقطع الأعمال ، وتذهب الأوقات ، وتتصاعد الأنفاس ، يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره ، فإذا كان فى آخر نفس زهقت نفسه ، فيدركها ما سبق لها من السعادة فتخرج روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة ، أو يدركها ما سبق لها من الشقوة فتخرج روحه على الشك ، فهذا الذى قال فيه الله عز وجل : ﴿ **وَلَيْست التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَاحَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ**[2] ﴾ فهذا سوءُ الخاتمة ، أعاذنا الله منه ، وقيل هذا هو المنافق ، وقيل : المدمن على المعاصى المصر عليها ، وقد قال تعالى : ﴿ **إِنَّما التَّوْبَةُ عَلَى الله للَّذينَ يَعْمَلونَ السُّوءَ بجهالةٍ ثُمَّ يَتوُبوُنَ مِنْ قَريبٍ**[3] ﴾ قيل : قبل الموت وقبل ظهور الآيات الآخرة ، وقبل الغرغرة أى تغرغرالنفس فى الحلقوم ، لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لا تقبل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آياتِ رَبِّك لَا ينْفَعُ نَفساً إِيمَانُهاَ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ**[4] ﴾ يعنى من قبل معاينة الآيات ﴿ **أَوْ كَسَبَتْ فى إِيمَانِهَا خيرْاً**[5] ﴾ . قيل : التوبة هى كسب الإيمان وأصول الخيرات ، وقيل بالأعمال الصالحة ، هى مزيد

---

(١) سورة المنافقون آية ١٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٨ .

(٣) سورة النساء آية ١٧ .

(٥،٤) سورة الأنعام آية ١٥٨ .

الإيمان وعلامة الإيقان ، وقد قال تعالى : « **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ** » أى عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة ، وتوبة من قريب أن يعقب الذنب عملا صالحاً ولا يردفه بذنب آخر ، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة ، ولا يدخل فى سيئة أخرى .

وقال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه ، يوجده ذلك بإلهام يلهمه ، أحدهما إذا ولد وخرج من بطن أمه يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك . وسرٌّ عند خروج روحه يقول : عبدى ، ماذا صنعت فى أمانتى عندك ، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد والرعاية فألقاك بالوفاء والجزاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . وفى خبر عن ابن عباس رضى الله عنهما : « **من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله** » . وعند التوبة النصوح تكفير السيئات ، ودخول الجنات .

ثانيـــاً : مقام الصبر :

الصبر هو ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، لأنه لغة : ثبات جند فى مقاومة عدو قام القتال بينهما ، والجندان جند منهما شهوة المأكل والمشرب والمنكح والحظ والهوى ، وجميع الرذائل الكامنة فى النفس ، والجند الآخر العقل ونور اعتقاد الدين ، وحب الله ورسوله ، وحب الآخرة وفضائل الدين ، وهذان الجندان . الحرب بينهما سجال ، وميدان المعركة القلب ، والصبر نصرة جند العقل والدين على جند الحظ والهوى ، وقد عرف بعضهم الصبر بأنه حبس النفس عن المكروه ، وهو يناسب المعنى .

فضائل الصابرين :

قد جعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين ، وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين ، فقال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُم أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَماَّ صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**[1] ﴾

(١) سورة السجده آية ٢٤ .

، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا[1] ﴾ وقال ﷺ :« إن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً » ، [2] ورورى عن المسيح عليه السلام أنه قال : « إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون » وقال ابن مسعود . الصبر نصف الإيمان . وقد جعل على كرم الله وجهه الصبر ركنا من أركان الإيمان وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان فقال : (بُني الإسلام على أربع دعائم ، على اليقين والصبر والجهاد والعدل) . وقال على كرم الله وجهه : (الصبر من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له) ورفع رسول الله ﷺ الصبر في العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرنه به وأخبر ﷺ : « بأن من أوتى نصيبه منهما لم يبال ما فاته « ، وأخبر عليه الصلاة والسلام : أن الصبر كمال العمل والأجر فقال : « من أكمل ما أو تيتم ، اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه ، أحب إلى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ، ثم قرأ : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[3] ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا[4] ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ[5] ﴾ فضاعف أجر الصابرين على كل عمل ، ثم رفع جزاءَ الصبر فوق كل جزاءَ ، فجعله بلا نهاية ولا حد فدل ذلك على أنه أفضل المقامات .

وكان عمر رضى الله عنه يقول : « نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين » يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى ، والعلاوة ما يعلى به فوق الحملين على البعير فيكون كعدل ثالث ، وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين ، ومن كان الله تعالى معه غلب ، كما أن من كان معه علا ، فقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ[6] ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ[7] ﴾ واشترط الصبر

(١) سورة الأعراف آية ١٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس

(٣) سورة النحل آية ٩٦ .

(٤) سورة القصص آية ٥٤ .

(٥) سورة الزمر آية ١٠ .

(٦) سورة الأنفال آية ٤٦ .

(٧) سورة محمد آية ٢٥ .

لإمداده بجنده ولنصرة تأييده بقوله تعالى : ﴿ **بَلَى إِنْ تَصْبِروا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِم هَذَا يُمْدِدْكُم رَبُّكُم بخمسةِ آلافٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمين**[١] ﴾ . وكان سهل يقول : الصبر تصديق الصدق ، وأفضل منازل الطاعة الصبر على ترك المعصية مع الباعث ، ثم الصبر على الطاعة ، وقال فى معنى قوله عز وجل : ﴿ **اسْتَعِينُوا باللهِ وَاصْبِرُوا**[٢] ﴾ أى استعينوا بالله على أمر الله ، واصبرو على أدب الله ، وقال : لم يمدح الله تعالى أحداً إلا من صبر للبلاء والشدة فبذلك يثنى عليه . وكان يقول : الصالحون فى المؤمنين قليل ، والصادقون فى الصالحين قليل ، والصابرون فى الصادقين قليل ، فجعل الصبر خاصية الصدق ، وجعل الصابرين خصوص الصادقين ، وكذلك الله تعالى قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات ، فجعل الصبر مقامات فى الصدق ، إن كانت الأوصاف المسوقة نعتا واحداً للمسلمين وكانت الواو للمدح ، وإن كانت مقامات فالواو للترتيب ، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين ، أعنى فى قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الْمسْلِمِين وَالْمسْلِماتِ وَالْمُؤْمنِين والْمُؤْمِنَاتِ**[٣] » .

الصبر من علامات الإيمان :

وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ، « **لما دخل رسول الله ﷺ على بعض المسلمين ، فقال ، « أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر رضى الله عنه : نعم ، قال : وما علامة إيمانكم ؟ قال : نشكر فى الرخاء ، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال : مؤمنون وربِّ الكعبة**[٤] » .

والصبر ينقسم إلى عملين : أحدهما لا صلاح للدين إلا به . والثانى هو أصل فساد الدين . ثم يتنوع الصبر فيكون المؤمن صابراً على الذى فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه ، ويكون صابراً على الذى فيه فساد الدين فيحسن به يقينه . روينا فى معنى هذا عن على رضى الله عنه ، أنه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها ، فجعل يخرج القصاص ويقول : القصص بدعة ، فانتهى إلى حلقات شاب يتكلم على جماعة ،

(١) سورة آل عمران آية ١٢٥ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٢٨ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٣٥ .
(٤) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

فاستمع اليه فأعجبه كلامه ، فقال : يافتى ، أسألك عن شيئين فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس ، وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك ؟ فقال : سل ياأمير المؤمنين ، فقال : أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده ؟ قال : صلاحه الورع ، وفساده الطمع ، قال : تكلم ، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس ، يقال : إن هذا الشاب هو إمام الأئمة الحسن بن يسار مولى الأنصار البصرى ، وكان ميمون بن مهران يقول : الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد ، وقال أبو الدرداء : ترجيح الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر .

واعلم أن الورع أول الزهد ، وهو باب من أبواب الآخرة ، والطمع أول الرغبة ، وهو باب كبير من أبواب الدنيا ، وهو استشعار الطمع من حب الدنيا ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

من نتائج الصبر : ومن نتائج الصبر حبس النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى ، وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق ، ومن الصبر كف الأذى عن الخلق ، وهو مقام العالين يدخل فى قوله تعالى : ﴿ **إنَّ الله يَأْمُرُ بالعدْلِ** [1] ﴾ ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المحسنين ، يدخل فى قوله : ﴿ **وَالإحْسَانِ** ﴾ ومن الصبر . الصبر على الإنفاق ، واعطاء أهل الحقوق حقوقهم ، الأقرب فالأقرب وهذا مقام المنفقين ، يدخل فى قوله : ﴿ **وإيتاءِ ذى القُرْبى** ﴾ ، ومنه الصبر عن الفحشاء ، وهو الأمر الفاحش فى العلم والإيمان ، والصبر على المنكر وهو ما أنكره العلماء ، والصبر على البغى . وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد والإسراف فى أمور الدنيا ، ومنه الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ومن الصبر حبس النفس عن المكافأة ، والصبر على الأذى ، توكلا على المولى عز وجل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونا وَعَلَى الله فلْيتوكَلِ الْمتوكِّلوُنَ** [2] ﴾ . وفى الحديث : « الصبر فى ثلاث : الصبر عن تزكية النفس ، والصبر عن شكوى المصيبة ، والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره » ومن الصبر حمل النفس على الخمول والتواضع والذل ، إيثاراً للآخرة على الدنيا ، وهربا إلى الله تعالى ، وتحققا بوصف العبودية ، وترك المنازعة والتشبه بمعانى أوصاف الربوبية ، تسليما للألوهية واستسلاماً للأحدية ، فلا تخرجك قلة الصبر عن

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ .

(٢) سورة إبراهيم آية ١٢ .

ذلك إلى الطلب بشيء منه ، فتزل قدم بعد ثبوتها نعوذ بالله من ذلك . ومن الصبر صبر على العيال فى الكسب لهم ، والإنفاق عليهم ، والاحتمال للأذى منهم ، فإن فى العيال طرقات إلى الله تعالى أدناها الاهتمام بهم ، وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم ، وأوسطها الإنفاق وحبس النفس عليهم .

واعلم أن أكثر معاصى العباد فى شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، أو قلة الصبر على ما يكرهون ، وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير ، والمحبة بالشر فى قوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ[1] ﴾ . والصبر فريضة ، ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة ، وإخفاء أعمال البر والمعروف والصدقات والأوجاع والمصائب ، وغيرها من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى .

ثالثاً : مقام الشكر :

الشكر هو الاعتراف بالنعمة من الله تعالى ، وطهارة القلب من أن ينسب فضلا أو نعمة أو ايجاداً أو إمدادا لغير الله تعالى ، فالشكر أدق بكثير من الذكر ، لأن الله تعالى يقول :﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ[2] ﴾ . والشكر عمل بالجوارح الظاهرة ، وبالقوى الباطنة من القلب والنفس والعقل والروح ، قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً[3] ﴾ فالشكر عمل ، وإنما يشكر الله تعالى من عرفه بأسمائه الحسنى فلم ير فى الوجود بأجمعه أثرا لغير الله تعالى ، بل الوجود جميعه آثار قدرة الله وحكمته . ومن جهل ذلك كيف يشكر الله تعالى ؟ ولا يشكر على السَّراء والضرَّاء إلا الله تعالى ، فما من نعمة ولا نقمة إلا وهى جواذب من الله لعبده ، فالنعمة تسر العبد وتذكره المنعم ، والنقمة تخيفه وتذكره المنتقم فيرجع إليه سبحانه ، فجعل مقابل الشكر الكفر ، كما جعل مقابل الحج الكفر فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ[4] ﴾ أى من لم يحج مع الاستطاعة فى موضع « ومن كفر » .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .
(٢ ، ٣) سورة سبأ آية ١٣ .
(٤) سورة ال عمران آية ٩٧ .

شكر القلب وشكر الجوارح :

والشكر فى الحقيقة عمل ، فشكر القلب عقده على التوحيد ، وتقلبه بالفكر فى آلاء الله تعالى ، وتصريف النوايا فى محابّ الله ومراضيه . وشكر الجوارح قيامها بالعمل فى طاعة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **إعْمَلُوا آل دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ**[1] ﴾ أى القائم بقلبه وجوارحه موجها وجهه إلى الله تعالى بكله .

التفضيل بين الغنى الشاكر والفقير الصابر :

وقد اختلف علماء السلف فى التفضيل بين الغنى الشاكر والفقير الصابر ، وعندى أن كل واحد منهما فى حال ما يوصف بالصبر يكون أفضل ، فإذا صبر الغنى مع قدرته على تنفيذ مراده ، وجاهد نفسه ، كان أفضل من صبر الفقير مع عجزه عن تنفيذ مراده ، لكمال مشاهدة الغنى ومراقبته للرقيب ، وخوفه من الحسيب ، ومجاهدته نفسه ، وأما فى مقام شكره على النعم ، وصبر الفقير على النقم ، فلا مناسبة فى التفضيل بينهما ، لأ هذا منعم به عليه مما يوجب السرور والفرح والثناء والحمد للمنعم ، فقام بما وجب عليه ، وهذا مبتلى بما لو أنه انزعج أو التجأ إلى الخلق لعذر ولكنه صبر واحتسب وكتم أمره وجاهد نفسه ، فهذا فى مقام عَلىّ ، ممن قال الله فيهم : ﴿ **إنّمَا يُوَفَّى الصابِرُون أجْرَهُمْ بِغيْرْ حِسَاب**[2] ﴾ ولأن الصبر أشق شىء على النفس وأكرهه ، وأمرّه على الطبع وأصعبه ، فيه الألم والكظم عند الذل والحلم ، ومنه التواضع والكتم ، وفيه الأدب وحسن الخلق ، وبه يكون كف الأذى عن الخلق ، واحتمال الأذى من الخلق ، وهذه من عزائم الأمور التى يضيق منها أكثر الصدور .

رابعاً : مقام الرجاء :

الرجاءُ هو اسم لقوة الطمع فى الشىء ، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشىء ، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء فى التثنية ، وأقام الحذر مقام الخوف فقال علت

---

(١) سورة سبأ آية ١٣ .

(٢) سورة الزمر آية١٠ .

كلمته : ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمعاً**[1] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُو رَحْمَةَ ربِّهِ**[2] ﴾ . وهو وصف من أوصاف المؤمنين ، وخلق من أخلاق الإيمان لا يصلح إلا به كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحى الطير لا يطير إلا بجناحيه ، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه ، وهو مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له ، فلذلك أوصى رسول الله ﷺ بقوله « **لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى**[3] » لأنه قال عن الله تعالى : « أنا عند حسن ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء[4] » . وكان ابن مسعود رضى الله عنه يحلف بالله تعالى : ما أحسن عبد بالله تعالى ظنه إلا أعطاه الله تعالى ذلك ، لأن الخير كله بيده . أى : فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه ، لأن الذى حسن ظنه به هو الذى أراد أن يحققه له ودخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت فقال « **كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى ، فقال عليه السلام : ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف** » ولذلك قال على كرم الله وجهه للرجل الذى أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط ، فقال له : ياهذا ، يأسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك » . صدق رضوان الله عليه ، لأن الإياس من روح الله تعالى الذى يستريح إليه المكروب من ذنوبه ، والقنوط من رحمة الله التى يرجوها المبتلى بالذنوب ، أعظم من ذنوبه ، لأنه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوة ، وحكم على كرم وجهه سبحانه بصفته المذمومة ، فكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كانت ذنوبه كبائر ، وهكذا جاء فى تفسير : ﴿ **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلَى التَّهْلُكَةِ**[5] ﴾ قال : هو العبد يذنب الكبائر ، ويلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب ، ويقول : قد هلكت لا ينفعنى عمل ، فنهوا عن ذلك .

الرجاء مقام الكرماء :

الرجاءُ مقام جليل وحال شريف نبيل ، لا يصح إلا للكرماءِ ، من أهل العلم والحياءِ ، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف ، يروحون به من الكرب ،

---

(١) سورة السجدة آية ١٦ .
(٢) سورة الزمر آية ٩ .
(٣) رواه مسلم عن جابر .
(٤) الصحيحين من حديث أبى هريرة .
(٥) سورة البقرة آية ١٩٥ .

ويستريحون إليه من مفارقة الذنب ، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء ، ومن لم يقم فى مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء ، ورجاء كل عبد من حيث خوفه ، ومكاشفته عن أخلاق مرجوة ، من معنى ما كان كوشف به من صفات مخوفة ، فإن كان أقيم مقام المخوفات ، مثل الذنوب والعيوب والأسباب ، رفع من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء ، بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويف الجنان ، وما فيها من الأوصاف الحسان ، وهذه مواجهات أصحاب اليمين ، وإن كان أقيم مقام مخاوف الصفات ، عن مشاهدة معانى الذات ، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة ، وخفى المكر وباطن الاستدراج وبطش القدرة وحكم الكبر والجبروت ، ورفع من هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا ، فرجا من معانى الأخلاق وأسماء الكرم والإحسان ، والفضل ، العطف واللطف والامتنان ، وليس يصح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء ، فى مقامات الرجاء من قبل أنه لا يصلح لعموم المؤمنين ، فليس يصلح إلا بخصوصه وهو يفسد من لم يرزقه أشد الفساد ولا يجديه ولا يستجيب له ، ولا يستخرج إلا من المحبة ، ولا محبة إلا بعد نصح القلب من الخوف ، وأكثر النفوس لا يصلح إلا على الخوف ، كعبيد السوء لا يستقيمون إلا بالسوط والعصا .

صحة الرجاء :

ومن علامة صحة الرجاء فى العبد كون الخوف باطناً فى رجائه ، لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته ، لعظم المرجو فى قلبه وشدة اغتباطه به ، فهو لا ينفك فى حال رجائه من خوف فوت الرجاء ، والرجاءُ هو ترويحات الخائفين ، ولذلك سمت العرب الرجاء خوفاً ، لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر . كذلك حقيقة الرجاء والخوف فى معانى الملكوت ، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفا ، وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلى بوصف مخوف ، فسمى العبد خائفاً لغلبته عليه ، وبطن الرجاء فى خوفه ، وإذا ظهر الرجاء كان العبد راجياً ، وظهرت منه أحكام الرجاءُ عن مشاهدة تجلى الربوبية بوصف مرجو ، فوصف العبد به لأنه الأغلب عليه وبطن الخوف فى رجائه ، لأنهما وصفان للإيمان كالجناحين للطير ، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه .

وقال مطرف : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . فهذا أصل فى معرفة حقيقة الرجاء وصدق الطمع فى المرجو . فللمؤمنين فى اعتدال الخوف والرجاء مقامان ،

أعلاهما مقام المقربين ، وهو ما حال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوة . والثانى مقام أصحاب اليمين ، وهو ما عرفوه من بدائع الأحكام .

وروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه : « خف الله تعالى خوفا لا تأمن فيه مكره ، وارجه رجاء أشد من خوفك ، قال : كيف أستطيع ذلك وإنما لى قلب واحد ؟ قال : أما علمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر . ؟ »

ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات فى كل طبقة طائفة ، فمنهم من يعيش مؤمنا ويموت مؤمناً ، وهؤلاء رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين ، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته ، وأن لا يسلبهم بفضله ما به بدأهم . ومن الناس من يعيش مؤمناً ويموت كافراً والعياذ بالله ، فهؤلاء موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم ، لمكان علمهم بهذا الحكم ولغيب حكيم الله تعالى بعلمه السابق فيهم ، ومن الناس من يعيش كافرا ويموت مؤمنا ، ومنهم من يعيش كافراً ويموت كافراً فهذان الحكمان أوجبا رجاءهم ، الثانى للمشرك ، إذ رأوه فلم يقنطوا بظاهره أيضا ، خوف هذا الرجاء خوفاً ثانيا أن يموت على تلك الحال ، وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله . فعلم المؤمن بهذهالأحكام الأربعة ، ورثه الخوف والرجاء معا ، فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به ، وحكم على الخلق بالظاهر ، ووكل إلى علام الغيوب السرائر ، ولم يقطع على عبد بظاهره من الشر ، بل يرجو له ما بطن عند الله تعالى من الخير ، ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير ، بل يخاف أن يكون قد استتر عند الله تعالى باطن شر ، إلا أن حال التمام أن يخاف العبد على نفسه ، لأن ذلك وجد المؤمنين من قبل أنهم متعبدون بحسن الظن ، فهم يحسنون الظن بالناس ، ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور ، وتسليم ما غاب إلى من إليه تصير الأمور ، ثم هم فى ذلك يسيئون الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها ، ويوقعون الملام عليها ، ولا يحتجون لها لباطن الإشفاق منهم عليهم ، ولخوف التزكية منهم لهم ، فمن عكس عليه هذان المعنيان فهو مستدرج يحسن الظن بنفسه ، ويسيء ظنه بغيره ، فيكون خائفاً على الناس راجياً لنفسه محتجا لها ، لائماً للناس ذاماً لهم ، فهذه أخلاق المنافقين ، أعاذنا الله من النفاق وأهله .

علامات الرجاء عن مشاهدة المرجو :

دوام المعاملة لله تعالى وحسن التقرب إليه ، وكثرة التقرب بالنوافل لحسن ظنه به

وجميل أمله منه ، وأنه يتقبل صالح ما أمر به تفضلا منه من حيث كرمه ، لا من حيث الواجب عليه ولاالاستحقاق منا ، وأنه يكفر سيء ما عمله إحساناً منه ورحمة ، من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لأخلاقه السنية ، وألطافة الخفية ، لا من حيث اللزوم له بل من حيث حسن الظن به ، كما قال سفيان الثوري رضي الله عنه : من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله عز وجل له ذنبه . قال : لأن الله تعالى عير قوماً فقال تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ[1] ﴾ ، وقد جاء في الخبر : « **أن من أذنب ذنباً فأحزنه ذلك ، غفر الله له ذنبه وإن لم يستغفر** » .

ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض وفضل ، فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه ، معبوده ورازقه ، من حيث كرمه وفضله لا من حيث نظره إلى صفات نفسه ولومه . وجاء في الخبر : « **إذا دعوتم فكونوا موقنين بالإجابة ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من موقن ، ومن داع دعاءً بيناً من قلبه** » لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له باب من العبادة . وفي الخبر : « **الدعاءُ نصف الإيمان[2]** » .

وروينا عن رسول الله ﷺ : « **ما من داع دعا موقناً بالإجابة في غير معصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل ، أو يصرف عنه من السوء مثله ، أو يدخر له في الآخرة ما هو خير له[3]** » . وروينا عن نبينا ﷺ أنه قال للرجل الذي قال : أوصني ، فقال : « **لا تتهم الله تعالى في شيء قضاه عليك[4]** » . وفي خبر آخر : « **أنه نظر إلى السماء وضحك ﷺ ، فسئل عن ذلك ، فقال : عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن ، في كل قضائه له خير ، إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له ، وإن قضى عليه بالضراء رضي وكان خيراً له[5]** » .

حسن الظن بالله :

ومن حسن الظن بالله تعالى التملق له سبحانه وتعالى ، وهو من قوة الطمع فيه ، ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر ، وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء

(١) سورة فصلت آية ٢٣ .
(٢) ذكره السيوطي في الجامع الكبير عن أنس .
(٣) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري والبزار .
(٤) رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة .
(٥) رواه النسائي عن سعيد بن أبي وقاص .

قبولها ، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود ، وتقرباً إلى الرحيم الودود . ومن الرجاءِ القنوت فى ساعات الليل ، وهو طول القيام للتهجد والدعاءِ عند تجافى الجنوب عن المضاجع ، لما وقر فى القلوب من المخاوف .

ولذلك وصف الله الراجين بهذا فى قوله تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويرجو رحمةَ ربِّه**[1] ﴾ . ومن الرجاء الأُنس بالله فى الخلوات ، ومن الأنس به الأُنس بالعلماء والتقرب من الأَولياء ، وارتفاع الوحشه بمجالسة أهل الخير وسعه الصدر والروح عندهم ، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأَعمال ، والمسارعة إليها والحث لأَهلها عليها ، والحزن على فوتها والفرح بدركها . ومن ذلك الخبر المأثور : « **من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن** » . وأيضا : « **خيار أمتى الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا** » . ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الإقبال ، والتنعم بمناجاة ذى الجلال والإكرام ، وحسن الإصغاء إلى محادثة القريب ، والتلطف فى التملق للحبيب ، وحسن الظن به فى العفو الجميل ، ومنال الفضل الجزيل . وقال بعض العارفين : للتوحيد نور وللشرك نار ، ونور التوحيد أحرق لسيئات المؤمن من نار الشرك لحسنات المشرك .

وروى عنه ﷺ : « **إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى**[2] » . « **وخير الدين أيسره**[3] » . وقال : « **هلك المتعمقون ، هلك المتنطعون** » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **بعثت بالحنيفية السهلة السمحة**[4] » ، وقال تعالى : ﴿ **ويضَعُ عنهم إصْرَهم والأغلالَ التى كانت عليهم**[5] ﴾ واستجاب للمؤمنين فى قولهم : ﴿ **ربَّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصراً كما حَمَلْتَه على الذين مِنْ قبلنا**[6] ﴾ . فقال عز وجل : قد فعلت .

---

(١) سورة الزمر آية ٩ .
(٢) أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقى عن جابر .
(٣) رواه أحمد من حديث محجن بن الأدرع .
(٤) أخرجه أحمد من حديث أبى إمامة .
(٥) سورة الأعراف آية ١٥٧ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٨٦ .

وعن سيدنا داود وغيره من الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام : « **أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي ، قال : رب هذا أحبك وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ فقال عز وجل : أذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني ، وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل** » . وفى الخبر : « **إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم أو يشق عليهم** » ، وفى كلام لعلى كرم الله وجهه : « إنما العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم مكر الله تعالى » . ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شوق إليه الكريم ، وسرعة التنافس فى كل نفس ندب إليه الرحيم .

خامساً مقام الخوف :

الخوف اسم لحقيقة التقوى ، والتقوى معنى جامع للعبادة ، وهى رحمة الله تعالى للأولين والآخرين ، ينظم هذين المعنيين قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربّكم الذى خلقَكُمْ والذينِ من قَبلِكم لعلّكم تَتَّقُونَ**[١] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **ولقد وصَّيْنا الذين أُوتوا الكتابَ مِنْ قَبلِكم وإيّاكم أنْ اتَّقوا**[٢] ﴾ . وهذه الآية قطب القرآن مداره عليها ، والتقوى سبب أضافه تعالى إليه تشريفاً له ، ومعنى وصله به وأكرم عباده عليه تعظيما له ، فقال : ﴿ **لنْ يَنالَ الله لحومُها ولا دماؤُها ولكن ينالُه التقوى منكم**[٣] ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ **إنّ أكرمَكم عند الله أتقاكُم**[٤] ﴾ .

وفى الخبر : إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم ، ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم ، يقول : ياأيها الناس : إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فانصتوا إلى يوم ، فإنما هى أعمالكم ترد عليكم ، أيها الناس : إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً ، فوضعتم نسبى ورفعتم نسبكم قلت إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتم إلا فلان وفلان أغنى من فلان وفلان ، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبى ، أين المتقون ، قال : فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم ، فيدخلهم الجنة بغير حساب[٥] » .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١ .

(٢) سورة النساء آية ١٣١ .

(٣) سورة الحج آية ٣٧ .

(٤) سورة الحجرات آية ١٣ .

(٥) رواه الطبراني فى الأوسط والحاكم فى المستدرك .

والخوف حال من مقام العلم ، وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان ، وهذه جمل مقامات أهل الجنان ، فقال تعالى : ﴿ هدىً ورحمةً للذين هم لربّهم يَرْهَبُون[1] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنما يَخْشَى الله من عباده العلماءُ[2] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ رِضَى الله عنهم ورَضُوا عنْه ذلك لِمَنْ خَشِىَ ربَّه[3] ﴾ .

وفى خبر موسى عليه السلام : « وأما الخائفون فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه » . فأفردهم من غير مشاركة بالرفيق الأعلى ، كما حققهم اليوم بشهادة التصديق ، وهذا مقام من النبوة ، فهم مع الأنبياء فى المزية من قبل أنهم ورثه الأنبياء ، لأنهم هم العلماء ، قال تعالى : ﴿ فأولئك معَ الذينَ أنعَم الله عليهم من النبيّين والصّديقين[4] ﴾ . وقال تعالى فى وصف منازلهم : « وحسن أولئك رفيقاً » . بمعنى رفقاء ، عبر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنهم واحد ، وقد يكون رفيقاً مقاماً فى الجنة من أعلى عليين ، لقول رسول الله ﷺ عند الموت وقد خير بين البقاء فى الدنيا وبين القدوم على الله تعالى فقال : « أسألك الرفيق الأعلى[5] » . وفى خبر موسى عليه السلام المتقدم : « فأولئك لهم الرفيق الأعلى » فدل أنهم مع الأنبياء بتفسير النبى ﷺ لذلك ، وشرف مقامهم فوق كل مقام ، لطلب رسول الله ﷺ ذلك ، فالخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان ، وهو علم الوجود والإتقان ، وهو سبب اجتناب كل نهى ومفتاح كل أمر ، وليس يحرق شهوات النفوق فيزيل آثار آفاتها إلا مقام الخوف .

خوف المؤمن على قدر قربه :

وقال أبو محمد سهل رحمة الله عليه : كمال الإيمان العلم وكمال العلم الخوف . وقال مرة : العلم كسب الإيمان ، والخوف كسب المعرفة . وقال أبو الفيض المصرى : لا يسقى المحب كأس المحبة إلا بعد أن ينضج الخوف فى قلبه وقال : خوف النار عند خوف

---

(١) سورة الأعراف آية ١٥٤ .
(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .
(٣) سورة البينة آية ٧ -٨ .
(٤) سورة النساء آية ٦٩ .
(٥) متفق عليه من حديث عائشة .

الفراق بمنزلة قطرة قطرت فى بحر لجى . وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ، خوفه على قدر قربه فخوف الإسلام اعتقاد العزة والجبرية لله تعالى وتسليم القدرة والسطوة له ، والتصديق لما أخبر به من عذابه وما تهدد به من عقابه . وقال الفضيل إذا قيل لك : تخاف الله فاسكت ، لأنك إن قلت : لا ، كفرت ، وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف من يخاف ، وشكا واعظ إلى بعض الحكماء فقال : ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكرهم فلا يرقون ؟ فقال : وكيف تنفع الموعظة من لم تكن فى قلبه لله تعالى مخافة ؟ وقال تعالى فى تصديق ذلك : ﴿ **سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى**[1] ﴾ . أى يتجنب التذكرة الشقى ، فجعل من عدم الخوف شقياً حرمه التذكرة ، فخوف عموم المؤمنين بظاهر القلب عن باطن العلم بالعقد ، وخوف خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد ، أما خوف اليقين فللصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمن به من الصفات المخوفة . وفى الخبر : « **إذا دخل العبد قبره لم يبق شىء كان يخافه دون الله عز وجل إلا مثل له يفزعه ويرعبه إلى يوم القيامة** » . فأول خوف اليقين الموصوف الذى هو نعت الموصوفين من المؤمنين ، المحاسبة للنفس فى كل وقت ، والمراقبة للرب فى كل حين ، والورع عن الإقدام على الشبهات من كل شىء من العلوم بغير يقين بها ، ومن الأعمال بغير فقه فيها .

ثمرة الخوف :

اليقين بالله عز وجل والحياء من الله عز وجل وهو أعلى سريرات أهل المزيد ، يستبين أحكام ذلك فى معنيين هما جملة العبد ، أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان ، وأن يحفظ بطنه وما وعاه ، وهو القلب و الفرج واليد والرجل ، وهذا خوف العموم وهو أول الحياء ، أما خوف الخصوص فهو . أن لا يجمع ما لا يأكل ، ولا يبنى ما لا يسكن ، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل ، ولا يغفل ولا يفرط عما إليه يرتحل ، وهذا هو الزهد ، وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين .

خوف الخاتمة :

وفى الأخبار : كل من لم يستعمل قلبه فى بدايته ، ويجعل الخوف حشو إرادته لم ينج فى خاتمته ، ولم يكن إماماً للمتقين عند علو معرفته. وأعلى الخوف أن يكون قلبه معلقاً

(١) سورة الأعلى آية ١٠- ١١ .

بخوف الخاتمة ، لا يسكن إلى علم ولا إلى عمل ، ولا يقطع على النجاة بشىء من العلوم وإن علت ، ولا لسبب من أعماله وإن جلت ، لعدم علمه تحقيق الخواتم ، فقد قيل : إنما يوزن من الأعمال خواتمها .

وعن النبى ﷺ : « **أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى يقال أنَّهُ من أهل الجنة**[1] » . وفى خبر : « **حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر ، ثم يسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار** » ، ولا يتأتى فى هذا المقدار من الوقت شىء من عمل الجسم بالجوارح ، إنما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول ، وهو شرك التوحيد الذى لم يكن متحققاً به ، وشك فى اليقين الذى لم يكن فى الحياة الدنيا مشاهداً له ، فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء ، فغلب عليه وصفه وبدت فيه حاله ، كما يظهر له أعماله السيئة فيستحليها قلبه ، أو ينطق بها لسانه ، أو يخامرها وجده ، فتكون هى خاتمته التى تخرج عليها روحه ، وذلك فى سابقته التى سبقت له من الكتاب كما قال تعالى : ﴿ **أولئك يَنَالُهم نَصِيبُهُم مِنَ الكتاب**[2] ﴾ عند مفارقة الروح من الجسد : ﴿ **وإنَّا لَمُوَفُّوهُم نصيبهُم غيرَ مَنْقوص**[3] ﴾ .

وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس :

الطبقة الأولى : أهل البدع والزيغ فى الدين ، لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول ، فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند شهودها فيذهب إيمانه ولا يثبت لمعاينتها ، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح .

الطبقة الثانية : أهل الكبر والإنكار لآيات الله عز وجل ، وكراماته لأوليائه فى الحياة الدنيا ، لأنهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة ويمده الإيمان ، فيعتورهم الشك ويقوى عليهم لفقد اليقين .

الطبقة الثالثة : ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون فى سوء الخاتمة ، وجميعهم دون رتبة الطائفتين المتقدمتين فى سوء الخاتمة ، لأن سوء الختم على مقامات أيضاً ، كمقامات اليقين والشرك فى عمر الحياة ، منهم المدعى المتظاهر ، الذى لم يزل إلى نفسه وعمله ناظراً ، والفاسق المعلن ، والمصر المدمن ، تتصل بهم المعاصى إلى آخر العمر ، ويدوم

(١) رواه أبو هريرة عن ابن مسعود .
(٢) سورة الأعراف آية ٣٧ .
(٣) سورة هود آية ١٠٩ .

تقلبهم فيها إلى كشف الغطاء ، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله بقلوبهم وقد انقطعت أعمال الجوارح ، فليس يتأتى منهم ، فلا تقبل توبتهم ، ولا تقال عثرتهم ، ولا ترحم عبرتهم ، وهم من أهل هذه الآية : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إني تبت الآن**[1] ﴾ فهم مقصودون بقوله تعالى : ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون**[2] ﴾ وهم معنيون بمعنى قوله تعالى : ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده**[3] ﴾ نصوص الآية للكفار ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوى الإصرار من الفاسقين الزائغين ، من حيث اشتركوا فى سوء الخاتمة ثم تفاوتوا فى مقامات منها تظهر لهم شهوات معاصيهم ويعاد عليهم تذكرها ، لخلو قلبهم من الذكر والخوف حتى يختم لهم بشهادتها ، فهذه الأسباب تجلب الخوف وتقطع قلوب ذوى الألباب .

وكان محمد أبو سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصى ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر ، وروى فى معنى ذلك أن عيسى عليه السلام قال : « **يامعشر الحواريين أنتم تخافون المعاصى ، ونحن معشر الأنبياء نخاف الكفر** » والعدو يدخل على العارفين من طريق الإلحاد فى التوحيد ، والتشبيه فى اليقين ، والوسوسة فى صفات الذات . ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشهوات ، فلذلك كان خوف العارفين أعظم .

وقد كان بعض الصحابة عليهم رضوان الله يتمنون أنهم لم يخلقوا بشراً ، وقد بشروا بالجنة يقيناً فى غير خبر ، من ذلك قول أبى بكر رضى الله عنه : ليتنى مثلك ياطير وأنى لم أخلق بشراً . وقول عمر رضى الله عنه : وددت أنى كنت كبشاً ذبحنى أهلى لضيفهم . وغيرهم من الصحابة كأبى ذر وطلحة والزبير رضى الله عنهم وابن مسعود رضى الله عن الجميع ، ونحن فى ارتكاب الكبائر ونحدث نفوسنا بالدرجات العلا ، والقرب من سدرة المنتهى ، ونسينا أن أبانا آدم صلوات الله عليه أخرج من الجنة بعد أن دخلها بذنب واحد ، ونحن لم نرها بعد ، فإنما نضرب فى حديد بارد ، وفى سورة التكوير خواتم المصير ، وهى صفة القيامة لمن أيقن ، وفيها تجلى معانى الغضب لمن عاين ، آخر ذلك قال الله تعالى : ﴿ **وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت علمت نفس ما أحضرت**[4] ﴾

---

(١) سورة النساء آية ١٨ .

(٢) سورة سبأ آية ٥٤ .

(٣) سورة غافر آية ٨٤ .

(٤) سورة التكوير آية ١٢ - ١٤ .

هذا فصل الخطاب عند تسعير النيران ، واقتراب الجنان ، حينئذ يتبين للنفس ما أحضرت من شر يصلح له الجحيم ، أوخير يصلح له النعيم ، وتعلم إذ ذاك من أى أهل الدارين تكون ، وفى أى منزلة من المنزلين تحل ، فكم قلوب قد تقطعت حسرات على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها ، وكم من نفوس تصاعدت زفرات عن يقينها بمعاينة النيران أنها تصيبها ، وكم من أبصار ذليلة خاشعة لمشاهدة الأهوال ، وكم من عقول طائشة لمعاينة الزلزال .

الخوف من مكر الله تعالى :

حدثنا عن محمد أبى سهل رحمه الله قال : رأيت كأنى أدخلت الجنة فلقيت فيها ثلثمائة نبى ، فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة . فالخاتمة هى من مكر الله تعالى الذى لا يوصف ، ولا يفطن له ولا عليه يوقف ، ولا نهاية لمكره ، لأن مشيئته وأحكامه لا غاية لها ، ومن ذلك الخبر المشهور : « **أن النبى ﷺ وجبريل بكيا خوفا من الله تعالى ، فأوحى الله إليهما : لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا : ومن يأمن مكرك ؟**[1] » فلولا أنهما علما أن مكره لا نهاية له لأن حكمه لا غاية له ، لم يقولا : « ومن يأمن مكرك » مع قوله : « قد أمنتكا » ولكان قد انتهى مكره بقوله ، ولكانا قد وقفا على آخر مكره ، ولكن خافا من بقية المكر الذى هو غيب عنهما ، وعلما أنهما لا يقفان على غيب الله تعالى إذ هو علام الغيوب . فلا نهاية للعلام فى علم ، ولا غاية للغيوب بوصف ، فلم يحكم عليهما القول لعنايته بهما ، وفضل نظره إليهما ، لأنهما على مزيد من معرفة الصفات ، إذ المكر عن الوصف وإظهار القول لا يقضى على باطن الوصف ، فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى : « **قد أمنتكما مكرى** » مكراً منه أيضاً بالقول على وصف مخصوص ، عن حكمة قد استأثر بعلمها ، يختبر بذلك حالهما ، وينظر كيف يعملان تعبداً منه لهما به ، إذ الابتلاء وصفه من قبل أن المبتلى اسمه ، فلا يترك مقتضى وصفه لتحقق اسمه ، ولا تبدل سنته التى قد خلت فى عباده ، كما اختبر خليله عليه السلام لما هوى به المنجنيق فى الهواء فقال « **حسبى الله ربى ، فعارضه جبريل عليه السلام فقال ألك حاجة ؟ قال : لا** » وفاء بقوله : « **حسبى الله** » فصدق القول بالعمل فقال تعالى : ﴿ **وإبراهيمَ الذى وَفَّى**[2] ﴾ أى بقوله : « حسبى

---

(١) أخرجه ابن شاهد من حديث عمر .

(٢) سورة النجم آية ٣٧ .

الله » ولأن الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام ، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام ، ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالى ، ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق ، وإن بدل الكلم هو بتبديل منه ، لأن كلامه قائم به فله أن يبدل به ما شاء ، وهو الصادق فى الكلامين ، العدل فى الحكمين ، الحاكم فى الحالين ، لأنه حاكم عليه ولا حكم يلزمه فيه ، لأنه قد جاوز العلوم والعقول التى هى أماكن للحدود من الأمر والنهى ، وفات الرسوم والمعقول التى هى أواسط الأحكام والأقدار .

وفى مشاهدة ما ذكرناه علم دقيق من علوم التوحيد ، ومقام رفيع من أحوال التوحيد ، وبمثل هذا المعنى وصف صفيه موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ **فأوْجَسَ فى نفسِهِ خيفةً موسى**[1] . ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **لا تخافا إننى معكما**[2] ﴾ الآية ، فلم يأمن موسى عليه السلام بخفى المكر أن يكون الوصف قد أسر عنه فى غيبه ، واستثنى فى نفسه سبحانه ما لم يظهره له فى القول ، لمعرفة موسى عليه السلام بخفى المكر وباطن الوصف ، ولعلمه أنه لم يعطه الحكم إذ هو محكوم عليه مقهور ؛ فخاف خوفا ثانياً حتى أمنه أمنا ثانيا بحكم ثان فقال : ﴿ **لا تَخَفْ إنك أنت الأعْلَى**[3] ﴾ فاطمأن إلى القائل ولم يسكن إلى الإظهار الأول ، لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التى لا نهاية لها ، ولأن القول أحكام والحاكم لا تحكم عليه الأحكام ، كما لا تعود عليه الأحكام ، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام ، ثم تعود على المحكومات أبداً ، ولأنه جلت قدرته لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم ، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا عند من عرفه فأجله وعظمه .

ذكرى لمن كان له قلب :

ولا يصلح أن نكشف حقيقة ما فصلناه فى كتاب ، ولا ينبغى أن نرسم ما رمزناه من الخطاب ، خشية الإنكار ، وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعيار ، إلا أن يسأل عنه من أقيم فيه وأريد به من ذوى القوة والأبصار ، فينتقل من قلب إلى قلب ، فحينئذ يتلوه شاهد منه ، أو يكشفه علام الغيوب فى سرائر القلوب بوحى الإلهام ، ويقذفه بنور

---

(١) سورة طه آية ٦٧ .

(٢) سورة طه آية ٤٦ .

(٣) سورة طه آية ٦٨ .

الهدى للأعلام ، والله الموفق لمن شاء من العباد ، لما شاء من الحيطة بالعلم وهو الفتاح العليم ، إذا فتح القلب علمه ، وإذا نوره باليقين ألهمه . ومن خوف العارفين علمهم ، بإن الله تعالى يخوف عباده بمن شاء من عباده الأعلين ، يجعلهم نكالا للأدنيين ، ويخوف العموم من خلقه ، بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده حكمة له وحكما منه ، فعند الخائفين فى علمهم أن الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين نكالا خوف بهم المؤمنين ، ونكل طائفة من الشهداء خوف بهم الصالحين ، وأخرج جماعة من الصديقين خوف بهم الشهداء ، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك ، فأجهل الناس من آمن غير مأمون ، وأعلمهم من خاف فى الأمن حتى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين ، وقد قال تعالى﴿ **إنّ عذابَ ربِّهم غيرُ مَأمون**[1] ﴾ وهذا خوف لا يقوم له شيء ، وكرب لا يوازيه مقام ولا عمل ، لولا أن الله تعالى عدله بالرجاء ، لأخرج إلى القنوط ، ولولا أنه روحه بروح الأنس بحسن الظن ، لأدخل فى الإياس ، ولكن إذا كان هو المعدل وهو المروح ، كيف لا يعتدل الخوف والرجاء ولا يمتزج الكرب بالروح والرضا ؟ حكمة بالغة ، وحكم نافذ لعلم سابق ، وقدر جار ، ما شاء الله تعالى ، لا قوة إلا بالله .

وأقل ما يفيد علم هذا الخائفين ترك النظر إلى أعمالهم ، ورفع السكون إلى علومهم ، وصدق الافتقار فى كل حال ، ودوام الانقطاع بكل هم ، والإزراء على النفس فى كل وصف ، وهذه مقامات لقوم ، فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع ، إذ قد جعل الله التخويف أمنة من الأخذ بالمفاجأة ، وسبباً للرأفة والرحمة لمن ألبسه إياه .

أنواع المخاوف :

خوف الجنايات والاكتساب ، وخوف الوعيد وسر العقاب ، وخوف التقصير فى الأمر ، وخوف مجاوزة الحد ، وخوف سلب المزيد ، وخوف حجاب اليقظة بالغفلة ، وخوف حدوث الفترة بعد الاجتهاد عن المعاملة ، وخوف وهن العزم بعد القوة ، وخوف نكث العهد بنقض التوبة ، وخوف الوقوع فى الابتلاء بالسبب الذى وقعت منه التوبة ، وخوف عود الاعوجاج عن الاستقامة ، وخوف العادة بالشهوة ، وخوف

---

(١) سورة المعارج آية ٢٨ .

الحور بعد الكور ، وهو الرجوع عن الحجة إلى طريق الهوى وحرث الدنيا ، وخوف اطلاع الله تعالى عليهم عند ما سلف من ذنوبهم ، ونظره إليهم على قبيح فعلهم ، فيعرض عنهم ويمقتهم ، وخوف النفاق ، وخوف حبوط الأعمال ، وخوف سلب الإيمان . وهذه كلها مخاوف ، وطرقات لأهل المعارف ، وبعضها أعلى من بعض ، وبعضهم أشد خوفا من بعض .

سادساً : مقام الزهد :

معرفة الزهد متوقفة على معرفة الدنيا أى شيء هى ، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى ، وقد قال رسول الله ﷺ : « **هو الحبل المتين والصراط المستقيم ، من طلب الهدى فى غيره أضله الله**[1] » وقال سبحانه : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله**[2] ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه**[3] ﴾ . فقد ذكر الله جل اسمه فى كتابه أن الدنيا سبعة أشياء ، وهو قوله تعال : ﴿ **زُيِّن للنّاسِ حُبُّ الشّهواتِ من النساءِ والبنينَ والقناطيرِ المُقَنْطَرَةِ من الذهبِ والفضّةِ والخيلِ المَسومَةِ والأنعامِ والحرْثِ** ﴾ ثم قال تعالى فى آخرها : ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا**[4] ﴾ .

فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا ، وأن هذه الدنيا ، هذه الأوصاف السبعة ، وما تفرع من الشهوات رد إلى أصل من هذه الجمل ، فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب ، ومن أحب أصلا منها أو فرعا من أصل ، فقد أحب بعض الدنيا ، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا ، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنيا لأنها تقع ضرورات ، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنها لا تسمى شهوة ، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا . واستند ذلك لخبر عن الله تعالى فى الإسرائيليات : « **أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجة ، فذهب إلى صديق يستقرض منه شيئا فلم**

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير .
(٢) سورة الشورى آية ١٠ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١٣ .
(٤) سورة آل عمران آية ١٤ .

يقرضه ، فرجع مغموما فأوحى الله إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخشيت أن أسألك منها فتمقتني ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا » . ورد سبحانه وتعالى فى آية أخرى السبعة أوصاف المتقدمة إلى خمسة بقوله جل وعلا : ﴿ **اعْلَمُوا أنّما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتفاخُرٌ بَيْنكم وتكاثرٌ**[1] ﴾ فهذه الخمسة هى وصف من أحب تلك السبعة ، ثم اختصر سبحانه الخمسة فى معنيين منها ، هما جامعان للسبعة ، فقال : ﴿ **إنّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ**[2] ﴾ وقد رد الجميع إلى وصف واحد بقوله : ﴿ **ونَهىَ النفْسَ عن الهوَى ، فإنّ الجنةَ هى المأوىَ**[3] ﴾ . فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **فأما مَنْ طَغَى ، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا ، فإنّ الجحيمَ هى المأوى**[4] ﴾ فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا لأن النهى عنه ضد الإيثار له ، فمن نهى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا وإذا لم يؤثر الدنيا فهو الزاهد ، وكانت له الجنة التى هى ضد الجحيم ، فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وإيثاره فى كل شيء ، فينبغى أن يكون الزهد مخالفة الهوى فى كل شيء ، فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع بالجهاد للنفس والإنفاق فى سبيل الله فقد زهد فى الدنيا ، ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ ، ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا ، ولأن الله تعالى يحب من زهد فى الدنيا ، ثم كانت مخالفة الهوى من أفضل الجهاد - لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا - وقد عبر رسول الله ﷺ عن الزهد فى الدنيا فقال : « **ازهد فى الدنيا يحبك الله تعالى**[5] » . فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى ، والراغب فى حب البقاء لنفسه منافق فى دين ربه تعالى ، ومنه الخبر الذى جاء : « **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق**[6] » . وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ محْكَمةٌ وذُكِرَ فيها القتالُ رَأَيْتَ الذين فى قلوبهم مرضٌ** ﴾ . يعنى نفاقاً : ﴿ **يَنْظُرونَ إليك نَظَرَ**

---

(١) سورة الحديد آية ٢٠ .
(٢) سورة محمد آية ٣٦ .
(٣) سورة النازعات آية ٤٠- ٤١ .
(٤) سورة النازعات آية ٣٧ - ٣٩ .
(٥) أخرجه ابن ماجه من حديث سهل بن سعد .
(٦) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

المَغْشِيِّ عليه من الموتِ فأَوْلَى لهم. ﴾ . تهدد ووعيد أى وليهم العذاب وقرب منهم ، ثم قال : ﴿ **طاعةٌ وقولٌ معروفٌ** ﴾ أى يظهر منهم طاعة وقول معرف ﴿ **فإذا عَزَمَ الأمرُ** ﴾ وحققت الحقائق كذبوا ونكثوا : ﴿ **فلو صَدَقُوا الله** ﴾ فى الوفاء : « **لكان خيراً لهم**(١) » .

ولما حقق الله الزهد بغنى النفس وإخراج المال ، فى ذكر المبيع والمشترى فى قوله : ﴿ **يُقاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتلون وَيُقْتلَون**(٢) ﴾ . وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى ، وكان العوض من ذلك الجنة ، كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع نفسه طوعاً قبل أن يخرج نفسه إليه كرها ، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه ، فصار العبد محباً له فجعله من المقربين عنده تعالى ، وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى ، وحب الحياة الدنيئة لمتعة النفس الشهوانية ، كان الراغب فى ذلك آمنا لمكر الله تعالى ، مشتريا للحياة الدنيا بائعاً بذلك الحياة العليا فلم يكن محباً له ، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره ، وحق عليه الخسران والجحيم فى الآخرة ، لأنه ضد الزاهد المقرب ، الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب .

تفصيل حقيقة الزهد :

إذا كان الشيء موجوداً عندك وأنت ممسكه لنفسك ، ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد ، فقد كذبت على نفسك بتسميتك إياها زاهداً ، وكذبتك نفسك بوجوده جهلا منها بالعلم بتسميتها لك زاهداً ، أو كذبك وجدك على العلم جهلا منك بربك عز وجل ، أو موهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد ، وهذا زهد منك فى الزهد ، ورغبة منك أيضاً فى الدنيا . حتى يخرج الشيء الذى تظن أنك زهدت فيه ، وتعتاض منه محبة إليه تعالى ، وطلب مرضاته تبارك وتعالى أو ما عنده من ثوابه ، فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء فتكون صادقاً ، فهناك وصفك الزاهد بالزهد وسماك الزاهدون زاهداً . فأما إذا لم يكن الشيء موجوداً لك فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح ، والزهد فى معدوم باطل ، من قبل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك ، فكذلك لا يصح زهدك فيه ، ولعله لو كان موجوداً تغير قلبك به وتقلب فيه ، إذ ليس الخبر كالمعاينة ، لأن الخبر قد يشتبه ويوهم ، والمعاينة تكشف الحقيقة .

---

(١) سورة محمد آية ٢٠ - ٢١ .
(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

وتحكم على الخلقة ، ولأن النفس ذات بدوات لما طبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية ، فكذلك لا يجعل ظنا معدوما كيقين موجود ، إذ لو كان كيف يكون الأمر ؟ ، ولكن قد يكون لك مقام من المعدود فى المعدوم بقيامك بشرطه ، وهو أن لا تحب وجود الشيء ولا تأس على فقده ، أو تكون مغتبطاً بعدمك ، مسروراً بفقرك ، يعلم الله ذلك منك من غيبك ، ويطلع على سرك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته ، وتخرجه إن دخل عليك ، وأن قلبك قانع بالله سبحانه ، راض عن الله سبحانه وتعالى بحالك التى هى العدم من الدنيا ، غير محبٌ للاستبدال بها من الغنى بصدق يقينك بفضيلة الزهد ، فإذا كنت بهذا الوصف حسب لك جميع ذلك زهدا ، وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين ، وإنْ لم تكن للدنيا واجداً .

وصف الزاهد وفضل الزاهد :

قوة الزهد الذى لا بد منه وبه تظهر صفة الزاهد ، وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس ، ولا يحزن على مفقود من ذلك ، وأن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء ، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة ، ولا يطلب الشيء قبل الحاجة ، وأول الزهد دخول غم الآخرة فى القلب ، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى ، ولا يدخل غم الآخرة إلا بعد خروج هم الدنيا ، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى ، وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه ، ومن ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع فى الدنيا ، ولا يذوق حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى . وخالص الزهد هو إخراج الموجود من القلب ، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد ، وهو عدم الموجود على الاستصغار له ، والاحتقار والتقالل لهوان الدنيا عنده ، وصغرها فى عينه ، فبهذا يتم الزهد ، ثم ينسى زهده فى زهده ؛ فيكون حينئذ زاهداً فى زهده لرغبته فى مزهده ، وبهذا يكمل الزهد وهذا لبه وحقيقته ، وهو أعز الأحوال فى مقامات اليقين ، وهو الزهد فى النفس لا الزهد لأجل النفس ، ولا للرغبة فى الزهد للزهد ، وهذه مشاهدة الصديقين وزهد المقربين عن وجد عين اليقين ، ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظرته إليه ، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين ، وذلك العمل بالزهد عقد وعمل إذا كان الزهد عن الإيمان . والإيمان قول وعمل ، وكذلك الزهد عقد وعمل ، فالعقد خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب ، والفعل بالزهد

إخراج المحبوب من اليد فى سبيل الله ، معتاضاً منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جل وتعالى ، أو قرب جواره فى داره . .

وقد روينا عن رسول الله ﷺ : « **أن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من يحب**[1] » . والذى يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه ، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى ، إذ قد تولاه فيما أعطاه .

سابعاً : مقام التوكل :

هو تسليم الأقدار كلها للقادر ، واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره ، وقبل أن أتكلم على علوم التوكل وفضائلها ومشاهدة المتوكلين ، أذكر مقدمة أبين فيها ما اختلف الناس فيه من سر التوكل .

جهل الناس حقيقة التوكل ، فظنوا أن التوكل ترك الأسباب جملة واحدة توكلا على الوكيل ، وليس هذا من التوكل فى شيء ، لأن الله تعالى قادر حكيم ، فأظهر أشياء عن وصف القدرة ، وأجرى أشياء عن معانى الحكمة ، فإذا كوشف المؤمن بغرائب تصريف القدرة ، وشهد ظهور كل شيء عن قدرة القادر ، رأى لجهله بحكمة الحكيم أن الأسباب كالعمل للكسب والادخار ، والتداوى والمحافظة على الصحة ، والقيام بحقوق الشريعة ينافى التوكل أو يقدح فى التوحيد . والقيام بالأعمال التى اقتضتها الحكمة ، من السعى للنفع واستعمال الأسباب لجلب المنفعة له ولجميع المسلمين ، ودفع المضرة عنهم وعنه ، هو عين التوكل ، وحقيقة التوحيد ، فالمتوكل لا يسقط ما أثبته الله تعالى من حكمته لأجل ما شهد هو من قدرته ، لأن الله تعالى حكيم ، فالحكمة صفته ، ولا يشهد المتوكل الأشياء التى أجرتها الحكمة جاعلة نافعة ضارة بنفسها ، فيشرك فى توحيده ، من جهة أن الله قادر ، والقدرة صفته ، وأنه حاكم جاعل نافع ضار لا شريك له فى أسمائه ، ولا معين له فى أحكامه ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنْ الحُكْمُ إِلَّا لله**[2] ﴾ ﴿ **وَ لا يُشْرِكُ فى حُكْمِه أحَداً**[3] ﴾ .

---

(١) رواه الحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود .

(٢) سورة الأنعام آية ٥٧ .

(٣) سورة الكهف ١١٠ .

فالمتوكل حقيقة هو الذى شاهد قدرة الله على الأشياء ، وأنه منفرد بالتقدير والتدبير قائم بالمالك والمملوك ، وعلم مع تلك المشاهدة وجوه الحكمة فى التصريف والتقليب ، بإظهار الأسباب لإظهار الأشخاص والأشباح ، لحكمة إيقاع الحكم على المحكوم ، وعود الثواب والعقاب على المرسوم ، من حيث أن المتوكل مطالب أن يقوم بأحكام الشريعة ، ومطالبات العلم مع تسليمه الحكم الأول لله ، واعتقاده أن كل شيء بقدر الله ، لأنه سمع الله تعالى يقول : ﴿ **لا يُسْأَلُ عمّا يَفْعل وهم يُسْألونَ**(١) ﴾ .

سر تصريف القدرة وعلم الحكمة :

هذا وإن الله تعالى أخفى قدرته فى جميع ما أظهر فى حكمه ، فظهرت حكمته فى الأشياء لعود الأحكام على من ظهرت على أيديهم ، وبطنت قدرته فى الأشياء لرجوع الأمر كله إليه ، ولإتقان الصنعة الظاهرة لصنع الباطن ، فلذلك قال تعالى : ﴿ **صُنْعَ الله الذى أتْقَن كلّ شيءٍ**(٢) ﴾ أى صنعه الباطن أتقن صنعه الظاهر ، ثم قال سبحانه : ﴿ **وإليهِ يُرْجَعُ الأمرُ كلّهُ** ﴾ من الظاهر والباطن ﴿ **فاعبُدْهُ وَتَوَكّلْ عليه**(٣) ﴾ فى جميع ذلك . فللعارف بالله تعالى المتوكل على جنابه العلى فى سر تصريف القدرة فى الباطن شهادة هى مقامه وهو قائم بها ؛ وله فى الحكمة الظاهرة علم شرع وتسليم اسم ورسم هو عامل به ، وهذا هو شهادة التوحيد ومقام العلماء الربانيين . وكل مؤمن متوكل على الله تعالى ، وتوكل كل عبد على قدر يقينه ، فالعارف توكله ما ذكرنا من مشاهدة القدرة ، وعلم الحكمة ومعانى الرضا ، وتوكل العموم صحة الإيمان بالأقدار خيرها وشرها من الله تعالى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **الله الذى خلقَكم ثم رزقكم ثمُ يميتكم ثم يُحْييكم**(٤) ﴾ فقرن بين هذه الأربع فى نسيج واحد مع ترتيب الحكمة والقدرة ، فكيف يختلف حكمها أو يتبعض وصفها لظهور الأسباب والأواسط .

أنت ترى أباك سبباً فى خلقك ، فهل تقول خلقنى أبى؟ وترى فلاناً سبباً فى إحيائك وإماتتك ، فهل تقول أماتنى فلان أو أحيانى ؟ إذا قتلك أو أنقذك من ظالم لا تقول

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٢) سورة النمل آية ٨٨

(٣) سورة هود آية ١٢٣ .

(٤) سورة الروم آية ٤٠

ذلك ، لأنك تراه شركا ، فلم تنزعج نفسك من أن تقول خلقنى أبى ، أو أحيانى فلان ، أو أماتنى ؟ وهم أسباب فى تلك المعانى ، ولا تنزعج عندما تقول : فلان رزقنى ، وهو سبب ، مع أن الله تعالى قرن الرزق مع الإحياء والإماتة والخلق . فإذا كنت ترى نسبة الخلق لأ بيك أو الإحياء والإماتة لفلان كفراً ، فنسبة الرزق لغير الله كفر ، وإنما هم أواسط لإظهار الحكمة . وقد أضاف الله تعالى الإمناء إلينا والحرث ، وأضاف الخلق والزرع إليه ، لأن الإمناء والحرث أعمال ، ونحن عبيد عمال ، وهى صفاتنا وأحكامها عائدة علينا ، وأضاف الخلق والرزق إليه سبحانه ، لأنها آيات عن قدرته وحكمته والله هو القادر الحكيم ، قال تعالى : ﴿ **أفَرَأيتُمْ ما تَحْرُثُونَ أأنتم تَزْرعُونه أم نحنُ الزارعونَ**[1] ﴾ وقال تعالى : ﴿ **أفرأيتم ما تُمْنُونَ أأنتم تَخْلُقونه أم نحنُ الخالقون**[2] ﴾ ، فأضاف إلينا مالنا ، وأضاف إليه ماله سبحانه وتعالى .

وقد أضاف فى القرآن الكريم إلى الجوارح المجترحة ونسب إلى الأدوات المكتسبة كل الأعمال والاكتساب ، مما أجراه عن معانى الحكمة ، ووصف نفسه بكل ما كان من القدرة والإرادة ، لأنه المريد الأول والقادر الأعلى ، فمن فهم عن الله خطابه فاز برضاه ، ومن لم يفهم عن الله خطابه زاغ قلبه فيما تشابه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **يَمحُو الله ما يَشاءُ ويُثبِتُ**[3] ﴾ يمحو الأسباب من قلوب العارفين ويثبت القدرة ، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين ، ويثبت الأسباب .

فالعارفون يعتبرون بالأسباب ويعجبون من التسبب ، فيزدادون بذلك هدى وإيماناً بشهودهم المعطى المانع واحداً فى العطاء والمنع ، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة ، ثبتت له مقامات الشكر سبحانه وتعالى والصبر عليه ، والغافلون يضطربون ، ولوقوفهم عند الأسباب يثبتون النفع والضر والرزق للأسباب ، فيمدحون الناس ويذمون الناس لغفلتهم . فالعارف لا تلهيه التجارة ولا البيع ولا الزراعة ولا الصناعة عن ذكر الله وإقام الصلاة ، لقيامه بشهادته أنوار القدرة ، وعلمه أسرار الحكمة ، فقد أثبت الله تعالى الأواسط إظهاراً للحكمة ، ونفاها إظهاراً للقدرة ، فأثبتها فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الواقعة آية ٦٣ – ٦٤ .

(٢) سورة الواقعة آية ٥٨ – ٥٩ .

(٣) سورة الرعد آية ٣٩ .

﴿ فاقْتُلُوا المشركين(١) ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قاتلوهم يُعَذِّبهُم الله بأيديكم(٢) ﴾ ثم قال فى التوحيد ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُم ولكنَّ الله قَتَلَهُم(٣) ﴾ ، وقال فى إثبات الأسباب : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلمِ(٤) ﴾ ، ثم قال فى إثبات مشاهدة القدرة : ﴿ الرحمنُ علَّمَ القرآنَ(٥) ﴾ .

وقال سبحانه فى تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعواض كرماً منه وفضلا : ﴿ إنَّ الله اشْتَرَى من المؤمنين أنْفُسَهم وأموالَهم(٦) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أوْ ما مَلَكَتْ أيمانُكم(٧) ﴾ فالمتوكل حقاً يشاهد بعين بصيرته الأشياء كلها عن تصريف القدرة ، وإلا كان مشركاً ، ويعمل بالأحكام عن علم الشريعة وفهم الحكمة ، فيكون عاملا من عمال الله متوكلا على الله قائماً بأحكام الله ، وهو المتوكل حقاً ، لا تحجبه الأسباب عن المسبب فيكون مشركا ، ولا يحجبه شهود القدرة عن أسرار الحكمة والقيام بأحكام الشريعة فيكون متعدياً لحدود الله تعالى .

الأسباب والتصرف فى المعايش :

بهما شهود المتوكل إذا تحقق باطناً بمشاهدة القدرة ، وظاهراً بعلم الحكمة ، ويكون على مزيد من علم التوحيد ومزيد من حاله ، قال الله تعالى ﴿ وجَعَلنْا النهَار معاشاً(٨) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها مَعايِش(٩) ﴾ . وقال ﷺ « أحل ما أكل العبد من كسب يده وكل بيع مبرور(١٠) » ، وقال ابن مسعود : إنى لأكره أن يكون الرجل بطالا ليس فى عمل دنيا ولا فى عمل أخرى .

---

(١) سورة التوبة آية ٥ .
(٢) سورة التوبة آية ١٤ .
(٣) سورة الأنفال آية ١٧ .
(٤) سورة العلق آية ٤ .
(٥) سورة الرحمن آية ١ -٢ .
(٦) سورة التوبة آية ١١١ .
(٧) سورة النساء آية ٣ .
(٨) سورة النبأ آية ١١ .
(٩) سورة الحجر آية ٢ .
(١٠) رواه أحمد من حديث رافع بن خديج .

المتوكلون ثلاثة أنواع :

الأول : رجل حسن توكله على الله تعالى فأقامه فى الأسباب ، فهو يعمل مشاهداً المسبب الأول ، بلطائف قلبه وسر حكمته بظاهره ، وقلبه ساكن إلى الله تعالى ، لم يلابسه السبب فيشغله عن الحق ، وهذا من الأبرار القائمين بأحكام الله ، الناهجين على سنة رسول الله ﷺ .

الثانى : رجل جذبه اليقين الحق بكمال التصديق عن شهود الوكيل سبحانه وتعالى ، والتحقق بولايته تنزهت ذاته ، فاقتطعه بكله إلى جناب الوكيل سبحانه ، وحضرة الولى تقدست ذاته ، ففر من الكون إلى الله مستأنساً بما استوحش به أهل الغرة ، فرحاً بما أحزن أهل البعد ، راضياً بما كرهه أهل الحجاب ، تجلت له أنوار الوكيل الولى فرضى به وكيلا وفوض إليه جميع أموره ، وهو وجد لا تكلف . وقد كان سبعون أو تسعون أو أكثر من أهل الصفة أقامهم الله تعالى مقام التجريد فى عمل الآخرة ، فكان الرجل منهم يتضوع من شدة الجوع ، آنساً راضياً فرحاً مبتهجا ، وهم فى صحبة سيد الرسل الكرام . وكان أنسهم به ، وخلوته معهم ، وبسطه بهم ، وهذا مقام المقربين من خاصة المحبوبين ، المتمكنين من حقيقة التوكل على الله ، المتحققين بكمال التفويض إلى الله ، وقليل ماهم .

الثالث : رجل أقام نفسه فى التجريد ميلا إلى الراحة من عناء الأسباب ورغبة فيما فى أيدى الناس ، وهو المتكلف لا الواجد ، وليس هذا من التوكل فى شيء ، وأهل هذا النوع قال فيهم رسول الله ﷺ : « **لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**[1] . » ، وقال ﷺ : « **استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك**[2] » . يعنى بمضغه .

وتفصيل هذه المسألة ، أن أهل الأسباب المتمكنين فى مشاهداتهم على السنة القويمة السمحاء ، ومن أنكر عليهم فقد أنكر على سنة رسول الله ﷺ ، وأهل التجريد المتمكنين فى تمكين من مشاهدة التوحيد ، ومزيد من أنوار الولى الحميد ، لا ينكر عليهم إلا قادح فى التوحيد ، شاك فى ضمان الرزاق الكريم ، أما أهل الدعاوى من أهل الأسباب والتجريد ممن وقفوا عند الأسباب واحتجبوا عن المسبب ، وممن تجردوا من الأسباب لحظ عاجل ، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

(١) متفق عليه برواية أبى هريرة .

(٢) أخرجه البزار والطبرانى من حديث بن عباس .

والحجة فى ذلك عمل رسول الله ﷺ ، فإنه ﷺ بعثه الله للناس ومنهم المتجرد والمتسبب ، فلم ينكر على نوع منهم ، ولكنه ﷺ بين كل الوجوه التى ينهج عليها كل نوع ، حتى يكون ناجياً ناهجاً على الصراط المستقيم .

الادخار للمتوكل :

المتوكل إما أن يكون ذا عيال أو منفرداً ، فإن كان منفرداً وكان من أهل التوحيد الكامل ، فالإدخار حسن له إذا ادخر مالا أو طعاماً أو ملبساً ، بعد إخراج حق الله منه من فرض ومندوب ، فإنما هو خزانة الله تعالى ، وهو خليفة الله على خزانته ، ينفق منها إذا أمره مالك السموات والأرض ومن فى السموات والأرض وما فى السموات والأرض ، بالإنفاق على نفسه وعلى غيره من منفعة للمسلمين أو خدمة للدين ، ولا يقدح ادخاره فى توكله وتوحيده ، وما ورد من أن رسول الله ﷺ أمر بلالا بترك الادخار وأمر غيره ، فذلك ليبين لأهل المقامات العلية ما به كمال قربهم وصحة توحيدهم . وإن كان المتوكل ذا عيال وأهل ، فالأكمل له الادخار ليسكن قلبه إلى الله تعالى ، ويقبل بكله عليه سبحانه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**[1] ﴾ ، فنهانا الله تعالى عن كل البسط الذى ينفد به كل ما فى أيدينا ، وعمل رسول الله ﷺ هو الحجة البالغة ، والمحجة الواضحة ، فقد ادخر ﷺ لأهله قوت سنة ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وله ثوبان ينسجان .

فالمتوكل الكامل ، الحسن له أن يدخر إذا كان منفرداً ، والأحسن أن يدخر إذا كان ذا عيال وأهل ، فإن المال إذا كان فى أيدى أهل التوكل الموحدين كان كنوزاً للإسلام والمسلمين ، يبذل بعد بذل النفس ، لسد ثغور الدين ، وإحياء السنة وإعلاء كلمة رب العالمين ، وإذا كان أهل مشاهدات التوحيد الموقنون المتوكلون لم يدخروا ، وصارت الأموال فى أيدى عباد الدرهم والدينار ، لا تقوم قائمة الدين ، ولا تحفظ ثغور المسلمين ، ولا تفتح الفتوحات وخصوصاً فى هذا الزمان ، فيتعين على أهل التوحيد المحبين لله ورسوله أن يدخروا أكثر أموالهم عملا بقوله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما**

(١) سورة الإسراء آية ٢٩ .

استطعتم مِنْ قوةٍ ومِن رباطِ الخيلِ[1] ﴾ . وأهل المقامات فى كل زمان بحسب مقتضيات زمانهم . والمتوكل مسارع إلى الأفضل والأكمل لحاله ، فإن كان المسلمون فى أمن وغنى بمزارعهم ومتاجرهم وصنائعهم وقوة سلطانهم ونفوذ كلمتهم على غيرهم ، فالأكمل للمتوكل الإقبال على الله تعالى بكلياته ، وقد استحسن هذا كثير من السلف ، بل ومن الصحابة كأبى ذر الغفارى رضى الله عنه وغيره ، والحسن البصرى وكثير من أهل طبقته ، وجنيد القواريرى وكثير من أهل زمانه . وإذا تغير الحال ، فالأكمل للمتوكل أن تكون عبادته فى الأسباب التى بها يكون المسلمون كما كانوا ، ليكون عاملا من عمال الله تعالى بمقتضى الوقت .

التـــــداوى :

بعض المتوكلين ممن يجهل السنة يرى أن التداوى قدح فى التوحيد ، وهو من التوحيد ، لأنك تشهد فى الدواء سر اسمه الشافى المعافى ، وهو سبحانه هو الذى خلق الداء وخلق الدواء .« **وقد سئل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقى ، هل يرد من قدر ؟ فقال : هى من قدر الله**[2] » ، فالتداوى أكمل للمتوكل ، لأنه السنة العملية والقولية . والأولى للمريض أن يعلم الطبيب بمرضه ، ويكتم عن الناس خشية من شكوى الله للناس .

فضائل التوكل :

التوكل من أعلى مقامات اليقين ، وأشرف أحوال المقربين ، قال الحق المبين : ﴿ **إنَّ الله يُحبُّ المتوكلين**[3] ﴾ .فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته ، وقال عز وجل : ﴿ **وعلَى الله فليتوكلْ المتوكلون**[4] ﴾ . فرفع المتوكلين إليه وجعل مزيدهم منه ، وقال جلت قدرته : ﴿ **ومَن يَتَوَكَّل على الله فهو حَسْبُه**[5] ﴾ . أى كافيه مما سواه ، ومن كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه ، ولا يسأل عما هو فيه ، فقد صار المتوكل على الله من

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٢) أخرجه الترمذى .

(٣) سورة آل عمران آية ٥٩ .

(٤) سورة إبراهيم آية ١٢ .

(٥) سورة الطلاق آية ٣ .

عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة ، ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية ، وهم الذين كفاهم الله فى هذه الدار المهمات ، ووقاهم بتفويضهم إليه السيئات بقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ[1] ﴾ .

وقال بعض الصحابة وغيرهم : التوكل نظام التوحيد وجماع الأمر ، وقال لقمان لابنه : ومن الإيمان بالله عز وجل التوكل على الله ، فإن التوكل على الله يحبب العبد ، وأن التفويض إلى الله من هدى الله ، وبهدى الله يوافق العبد رضوان الله ، وبموافقة رضوان الله ، يستوجب العبد كرامة الله وقال لقمان أيضاً : من يتوكل على الله ويسلم لقضاء الله ويفوض إلى الله ويرضى بقدر الله ، فقد أقام الدين وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير ، وأقام الأخلاق الصالحة التى تصلح للعبد أمره ، وقال أبو يعقوب السوسى : لا تطعنوا على أهل التوكل ، فإنهم خاصة الله الذين خصوا بالخصوصية ، فسكنوا إلى الله واكتفوا به ، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة ، وقال : من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان لأنه مقرون به ، ومن أحب أهل التوكل فقد أحب الله تعالى .

المعرفة بالوكيل سبحانه :

وأول التوكل المعرفة بالوكيل ، وأنه عزيز حكيم ، يعطى لعزه ويمنع لحكمه ، فيعتز العبد بعزه ويرضى بحكمه ، وكذلك أخبر عن نفسه فقال تعالى منبها للمتوكلين : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[2] ﴾ . عز من أعز بعطيته ، ونظر لمن منعه بحكمته . فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل ، قائماً بالقسط والتدبير والتقدير ، عنده خزائن كل شىء : « وكل شىء عنده بمقدار » . ولا ينزله إلا بقدر معلوم ، وشهد الوكيل قابضاً على نواصى المماليك ، له خزائن السموات من الأحكام والأقدار الغائبات ، وله خزائن الأرض من الأيدى والقلوب والأسباب المشاهدات ، فخزائن السموات ما قسمه من الرزق ، وخزائن الأرض ما جعله على أيدى الخلق : ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[3] ﴾ ، ﴿ وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ[4] ﴾ ، ﴿ وَلَكِنَّ

---

(١) سورة الزمر آية ٣٦ .

(٢) سورة الأنفال آية ٤٩ .

(٣) سورة الذاريات آية ٢٢ .

(٤) سورة الذاريات آية ٢٠ .

المنافقين لا يفقهون[١] ﴾ . فأيقن أن فى يده ملكوت كل شىء وأنه يملك السمع والأبصار ويقلب القلوب والأيدى تقليب الليل والنهار ، وأنه حسن التدبير والأحكام للموقنين ، وأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين ﴿ **ومَنْ أحسنُ مِنَ الله حُكْماً لقوم يُوقِنون**[٢] ﴾ ، ﴿ **ثم اسْتَوى على العرْش يُدَبِّرُ الأمرَ ما مِنْ شفَيعَ إلّا مِنْ بَعْدِ إذْنِه**[٣] ﴾ .

عندما نظر العبد الذليل إلى سيده العزيز فقوى بنظره إليه ، وعز بقوته به واستغنى بقربه منه ، وشرف بحضوره عنده ، وكذلك جاء فى الخبر : « كفى باليقين غنى[٤] » حينئذ نظر إليه فى كل شىء ، ووثق به واعتمد عليه دون كل شىء ، وقنع منه بأدنى شىء ، وصبر عليه ورضى عنه ، إذ لا بد له منه ، فلا يطمع فى سواه ، ولا يرجوا إلا إياه ، ولا يشهد فى العطاء إلا يده ، ولا يرى فى المنع إلا حكمته ، ولا يعاين فى القبض والبسط إلا قدرته ، هناك حققت عبادته ، فعرف الخلق من معرفة خالقه ، وطلب الرزق عند معبوده ورازقه ، وقام وخلص توحيده بشهادة ما قال تعالى : ﴿ **إنَّ الذين تَدْعُونَ مِنْ دونِ الله عبادٌ أمثالكم**[٥] ﴾ ﴿ **إنَّ الذين تَعْبُدُون مِن دونِ الله لا يَمْلِكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبُدُوهُ**[٦] ﴾ فعندها لم يحمد خلقاً ، ولم يذمه ولم يمدحه لأجل أنه منعه أو أنه أعطاه ، إذ كان الله هو الأول المعطى ، ولم يشكره إلا لأن مولاه مدحه وأمره بالشكر له تخلقاً بأخلاقه ، واتباعا لسنة رسوله ﷺ ، فإن ذمه أو مقته فلأجل مخالفته لمولاه بموافقته هواه ، لأنه تعالى قد مدح المنفقين وذم الباخلين .

والفرق بين الحمد والشكر أن الحمد مفرد لا ينبغى إلا لله ، وهو الاعتراف بأن النعمة من الله عز وجل وحسن المعاملة بها لوجه الله لا شريك له فيها ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **الحمدُ لله ربِّ العالمين**[٧] ﴾ أى الحمد كله لا يكون ولا ينبغى إلا لله لأنه رب العالمين ، وفى الخبر « **الحمد رداء الرحمن عز وجل** » . والشكر إظهار الثناء

---

(١) سورة المنافقون آية ٧ .

(٢) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٣) سورة يونس آية ٣ .

(٤) رواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر .

(٥) سورة الأعراف آية ١٩٤ .

(٦) سورة العنكبوت آية ١٧ .

(٧) سورة الفاتحة آية ١ .

وإسرار الدعاء للأواسط فهو مشترك ، يدخل فيه الوالدان . وهو أيضاً مخصوص لمن هو أهل أن يشكر من الناس .

وروينا عن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « **من اعتز بالعبيد أذله الله** (١) » . وفى خبر آخر : « **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال** (٢) » ويقال : لا يدخر من الدواب إلا ثلاثة : النملة والفأرة وابن آدم . وقال أبو يعقوب السوسى : المتوكلون على الله تجرى أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب ، وغيرهم مكدودون مشغولون . وقال أيضاً : المتوكل إذا رأى السبب أو مدح أو ذم غافلا فهو مدع لا يصح له التوكل ، وأول التوكل ترك الاختيار ، والمتوكل على صحة قد رفع أذاه عن الخلق ، لا يشكو ما به إليهم ، ولا يذم أحداً منهم ، لأنه يرى المنع والإعطاء من واحد ، فقد شغله عما سواه ، قال الله تعالى : ﴿ **وما مِنْ دابَّةٍ فى الْأرض إلَّا على الله رزْقُها** (٣) ﴾ ، ﴿ **وكأين مِن دابة لا تَحْمِل رزقَها الله يرْزُقُها وإياكُم** (٤) ﴾ .

علم اليقين للمتوكل :

فالمتوكل قد علم بيقينه ، أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها ، أن ذلك رزقة من خالقه ، وأن رزقه هو له ، وأن ماله واصل إليه لا محالة على أى حال كان ، وأن ماله لا يكون لغيره أبداً ، وكذلك ما لغيره من القسم والعطاء لا يكون له أبداً فقد نظر إلى قسمه ونصيبه من مولاه ، بعين يقينه الذى به تولاه من إحدى ثلاث مشاهدات ، وإن دنت مشاهدته نظر إلى قسمه من العطاء فى الصحيفة التى كتبت له عند تصوير خلقة ، فكتب فيها (١) رزقة (٢) وأجله (٣) وأثره شقى أو سعيد ، فكما لا يقدر أحد من الخلق أن يجعله سعيدا إن كان قسمه شقياً ، ولا يقدر أحد أن يجعله شقيا إن كان قسمه سعيداً ، كذلك لا يقدر أحد أن يمنعه ما أعطاه مولاه من القسمة فيجعله محروما ، ولا يعطيه من منعه من الحكم فيجعله مرزوقا لأن ذلك قد

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمر .
(٢) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث عمر .
(٣) سورة هود آية ٦ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٦٠ .

كتب كتبا واحداً ، وجعل مجعلا سواء ، وروى عنه ﷺ : « **أن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله** »[1] وقال ﷺ : « **وإن لكل عبد رزقا هو آتيه لا محالة ، فمن قنع به ورضى بورك له فيه ، ومن لم يقنع به ولم يرض لم يبارك له فيه ولم يسعه** » .[2] **ويقال : لو هرب العبد من رزقة كما هرب من الموت لأدركه .**

وفى وصية النبى ﷺ لابن عباس : « **إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا على ذلك ، ولو جهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله سبحانه لك لم يقدروا على ذلك ، طويت الصحف وجفت الأقلام** » فمن كانت هذه مشاهدته فى القسم سقط عنه جملة من الهموم ، واستراح من النظر إلى الخلق ، واستراح الخلق من أذاه ، وشغل عنهم بخدمة مولاه .

ثامناً : مقام الرضا :

الرضا يختلف عند أهل المقامات ، فالرضا عند المحبوبين المقربين ، سرور القلب بمر القضاء ، للتحقق بأكمل مقامات العبودية ، لا من حيث أنه مؤلم ، بل من حيث أنه يجعله مشاهدا فى نفسه حقيقة معانى العبودية ، الذى يشهده معانى تجليات الربوبية ، فتحل بالقلب نازلة تلجئة لأن يبتهل مضطراً ، والابتهال أكمل حال أكمل العبيد خصوصاً عن مشاهدة . والرضا عند العشاق المهيمين سكون القلب بحب جريان الحكم ، وبين المشاهدتين كما بين أهليهما . وقد رأى بعض العارفين الذين غلب عليهم الوجد أن الرضا نازلة تنزل على القلب عن مقام الحب ، فيكون حالا عن المحبة . والحقيقة أن الرضا مقام من أعلى مقامات اليقين ، يتصدم القلب منه بصدمات عاليه ، حتى يشهد المرحلواً ، والنار برداً وسلاماً ، والألم لذة ، لما ينبعث عن القلب من أحوال مقام الرضا ، وإنما كان سرور القلب أرق من سكونه لتفاوت المشاهدتين . وقد أنكر أهل الحجاب الرضا والمحبة ، وإنا لنرى لهم عذراً فى إنكارهم لأنهم لم يكن لهم نصيب منهما ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

---

(١) رواه الدارقطنى والبيهقى .

(٢) رواه الطبرانى وأبو نعيم عن جابر .

وأهل الرضا قسمان : قسم رضى عن الله تعالى ، وقام بعمل الدنيا وعمل الآخرة طالباً المزيد منهما ، وهذا لا ينقص مقام الرضا ، وهم خاصة أهل اليمين ، وقسم رضى عن الله تعالى رضا جعله آنساً بالله ، فارغ القلب مما سواه ومن سواه ، مقبلا بكليته عليه ، منصباً بجملته إليه ، وهم المحبوبون المقربون ، وقد جهل قوم حقيقة مقام الرضا لغلبة مشاهدة أسرار التوحيد ، فظنوا أن الرضا عن الله تعالى يجب أن يكون عن أحكامه وقدرته وإرادته ، فلم يروا فعلا قبيحاً ولا عملا سيئاً لشهود الكل بقدر الله . وحسن تدبيره ، وهذا من الجهل بعلم الحكمة .

وقد تقدم لى الكلام فى مقام التوكل بما يقوى به يقين أهل اليقين ، والرضا وإن كان عن كمال مشاهدة التوحيد فإنه إنما يكون بالمعانى التى تلم بك أو تؤلمك ، وفى التلذذ بشدائد الأعمال فى ذات الله تعالى ، من الجهادوالصوم وقيام الليل وبذل المال ، وتحمل الأذى من الخلق ، وترك مالك عليهم والمبادرة فى إعطاء مالهم بمزيد ، وان تحسن كل مباح قدم لك ، من أكل وشرب ولباس وزوجة ودابة ومسكن وفراش وخادم وأجرة عمل وجيران ، ويكون الرضا بسروره بكل شىء فى ذاته ، مما ينقص ماله أو جاهه أو منزلته أو نسبه أو علمه فى أعين الناس .

الغضب لله عين الرضا عنه سبحانه :

وليس الرضا هو التحقق بمشاهده التوحيد مع جهل الحكمة وأجزائها حتى يرضى بما قبحه الله وذمه ، وما بغضه ﷺ وكرهه ، فيترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونصيحة المسلمين ، أو يترك طلب الضرورى من الدنيا والمزيد فيها ، أو الآخرة والمزيد فيها ، من المعانى التى هى من كمال الرضا عن الله تعالى ، أو يترك الادخار والكسب ، وإنما يكون الرضا حقيقة عن المتوكل حقيقة ، وليس من الرضا أن يرضى الإنسان بعمل يكرهه الله تعالى يعمله هو أو يعمله غيره . ويظن أن سخطه على عمل المعصية فى نفسه أو فى غيره عدم رضا عن الله تعالى وهو من الجهل بأحكام الله تعالى ، وبحكمته سبحانه وكيف لا ؟ وسيد الراضين ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى ، وغضبه هو عين الرضا عن الله تعالى ، فمن رأى أن الرضا عن الله تعالى أن لا يكره شيئا أو لا يذم شيئا مطلقا فقد جهل ، نعم ، الرضا عن الله تعالى أن لا تكره شيئاً أو لا تذم شيئاً ممَّا أباحه لك الشرع ، أو قدره الله عليك من أنواع البلايا ، والرضا عن الله تعالى أن تذم المعصية ومن يعملها ، ولو كنت عاملها ، وأن تكره مخالفة الله ورسوله والوقوع فيما

نهى عنه ، ولو كنت أنت الفاعل العامل . وإظهار الفقر لا ينقص الرضا إذا رآه نعمة عليه من الله تعالى ، لأن المنع من الله إحسان ، لأنه فى منعه معط ، ولأن المنع حقيقة لا يتحقق إلا فيمن لك عليه شيء أو تستحق منه شيئا ، وهذان المعنيان تنزه الله عنهما ، فهو فى منعه سبحانه وتعالى معط ، فيكون رضاك بالمنع كرضاك بالعطاء لأنهما صفتان من صفاته .

فضـــائـل الـرضـــا :

قال الله تعالى : ﴿ **رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه**[١] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ**[٢] ﴾ . فمن أحسن الرضا عن الله تعالى جازاه الله بالرضا عنه . وقد رفع الله تعالى الرضا على جنات عدن لأنه من أعلى مقامات اليقين ، فرفعه على جنات عدن التى هى من أعلى الجنان ، كما فضل الذكر على الصلاة فقال تعالى : ﴿ **ومساكنَ طيِّبةً فى جناتِ عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبرُ**[٣] ﴾ : كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنَّ الصلاةَ تَنْهَى عن الفَحْشاءِ والمنكرِ ولَذِكْرُ الله أكبر**[٤] ﴾ . والذكر عند الذاكرين الذين هم أهل الذكر هو المشاهدة ، فمشاهدة الله تعالى فى الصلاة أكبر من الصلاة ، وإن فسر هذه الآية بعض العارفين بأن معنى « **ولذكر الله أكبر** » أن الله إذا ذكر العبد كان ذكره أكبر من ذكر العبد لله ، وأستحسن التأويل الأول ، لأن الذكر عند العارفين لا معنى له إلا المشاهدة ، فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر ، لأن الذاكرين ذكروه بالمشاهدة فأعطاهم الرضا عنه عز وجل ، قال رسول الله ﷺ : « **يتجلى لنا ضاحكا** » .

وقد روينا عن النبى ﷺ حديثاً من طرق أهل البيت : « **إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن رضى اصطفاه**[٥] » . وفى أخبار موسى عليه السلام : « **أن بنى إسرائيل قالوا : سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا ، قال موسى : إلهى**

---

(١) سورة المجادلة آية ٢٢ .
(٢) سورة الرحمن آية ٦٠ .
(٣) سورة التوبة آية ٧٢ .
(٤) سورة العنكبوت آية ٤٥ .
(٥) ذكره صاحب الفردوس من حديث على .

فقد سمعت ما يقولون . فقال : ياموسى ، قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم » . وعن نبينا عليه الصلاة والسلام : « **من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده ، فإن الله يُنزل العبد منه بحيث أنزله من نفسه**[1] » . عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان ، يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فيقولون : هل جزتم الصراط فيقولون : ما رأينا الصراط ، فيقال لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول الملائكة : من أمة من أنتم ؟ فيقولون : من أمة محمد ﷺ ، فيقولون : ناشدناكم الله ، حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا إذا خلونا نستحيى أن نعصيه ، ونرضى باليسير مما قسم الله لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا**[2] » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **من رضى من الله بالقليل من الرزق ، رضى الله عنه بالقليل من العمل**[3] » .

وقال بعض علمائنا : أعرف فى الموتى أناساً ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم ، يغدى عليهم ويراح من الجنة بكرة وعشياً ، وهم فى غموم وكروب فى البرزخ ، لوقسمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين . قيل : وما كانت أعمالهم ؟ قال : كانوا مسلمين ، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب .

وفى أخبار داود عليه الصلاة والسلام مالأوليائى والهم بالدنيا ؟ إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم » . **وفى بعضها « ياداود إياك والإهتمام بالدنيا ، محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون ، إياك والغمَّ، ولا تهتم للخير وأنت تريدنى »** .

تفصيل المجمل من مقام الرضا :

فمن الرضا سرور القلب بالمقدور فى جميع الأمور ، وطيب النفس وسكونها فى كل حال ، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا ، وقناعة العبد بكل شىء ،

---

(١) رواه الحاكم من حديث جابر .

(٢) رواه ابن حيان من حديث أنس .

(٣) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن على بن أبى طالب .

واغتباطه بقسمة ربه ، وفرحه بقيام مولاه عليه ، واستسلام العبد للمولى فى كل شىء ، ورضاه منه بأدنى شىء ، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير ، وكمال التقدير فيها ، وتسليم العبد إلى مولاه مافى يديه رضا بحكمه عليه . وأن لايشكو الملك السيد إلى العبد المملوك ، ولا يتبرم بفعل الحبيب ، ولا يفقد فى كل شىء حسن صنع القريب ، ومن الرضا عند أهل الرضا أن لايقول العبد : هذا يوم شديد الحر ، ولا هذا يوم شديد البرد ، ولا يقول : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم تعب ، والاحتراف كد ومشقة . بل يرضى القلب ويسلم ، ويسكن العقل ويستسلم بوجود حلاوة التدبير ، واستحسان حكم التقدير . وأول الرضا الصبر ، ثم القناعة ، ثم الزهد ثم المحبة ثم التوكل ، فالرضا حينئذ حال المتوكل ، والتوكل مقام الرضا .

إعلم أن الرضا فى مقامات اليقين ، وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين ، وهو داخل فى كل أفعال الله سبحانه وتعالى لأنها عن قضائه ، ولايكون فى ملكه إلا ماقضاه ، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء ، ثم يرد ذلك إلى تفصيل العلم وترتيب الأحكام ، فما كان من خير وبر ، أمر به أو ندب إليه ، رضى به العبد وأحبه شرعاً وفعلًا ، ووجب عليه الشكر ، وما كان من شر ، نهى عنه وتهدد عليه ، فعلى العبد أن يرضى به عدلا وقدراً ويسلمه لمولاه حكمة وحكماً ، وعليه أن يصبر عنه ويقر به ذنباً ، ويعترف به لنفسه ظلما ، ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب ، وأنه اجترحه بجوارحه اكتساباً ورضا بأن لله الحجة البالغة عليه ، وأن لا عذر له فيه ، ويرضى بأنه فى مشيئة الله عز وجل ، من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء ، أو عقوبة له بعدله وحقه إن شاء ، وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقدا إلا من نفسه فعلا ، ويرضى به عن الله ولا يرضى به من نفسه ، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا ينكرون إنكار المعاصى وكراهتها بالألسنة والقلوب ، من قبل أن الإيمان فرضها والشرع ورد بها ، ولأن الحبيب كرهها ، فكانوا معه فيما كره ، كما كانوا معه فيما أحب . ومقام اليقين لا يسقط فرائض الإيمان ، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول ، ولا تسقط اتباعه ، فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله ، وكذب على الموقنين والمحبين ، ألم تر أن الله تعالى ذم قوماً رضوا بالدنيا ، رضوا بالمعاصى ، رضوا بالتخلف عن السوابق . فقال سبحانة : ﴿ **وَرَضُوا بالحياةِ الدنيا واطمَأنُّوا بها**[١] ﴾ . فذمهم بذلك ، وقال

(١) سورة يونس آية ٧ .

تعالى : ﴿ **وَلتَصغَى إليه أفْئدةُ الذين لا يؤمِنون بالآخرةِ وليرضوْهُ وليقْتَرِفوا ما هم مُقْتَرِفُونَ**[١] ﴾ . فعابهم به ، وقال تعالى : ﴿ **رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالِفِ**[٢] ﴾ ، يعنى النساء وهذا جمع التأنيث ﴿ **وَطُبِعَ على قلوبِهم فهم لا يَفْقَهُونَ**[٣] ﴾ .

الرضا بالمعاصى والمنكرات جهل :

فمن رضى بالمعاصى والمناكير منه أو من غيره ، وأحب لأجلها ووالى ونصر عليها ، أو ادعى أن ذلك فى مقام الرضا الذى يجازى عليه بالرضا ، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم فهو مع هؤلاء الذين ذم الله ومقت . وفى الخبر : « **الدال على الشر كفاعله**[٤] » . وعن ابن مسعود : أن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر فاعله ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : يبلغه فيرضى به . وقد جاء فى الحديث : « **لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضى بقتله آخر فى المغرب كان شريكا فى قتله** » وقد روينا حديثاً حسناً عن النبى ﷺ من طريق مرسل : « **من نظر إلى من فوقه فى الدين وإلى من دونه فى الدنيا كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن نظر إلى من دونه فى الدين ومن فوقه فى الدنيا لم يكتبه الله صابراً ولا شاكراً**[٥] » ، وقد غلط فى باب الرضا بعض الطالبين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين ، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه من معصية وهوى لجهله بالتفصيل ، وقلة فهمه بعلم التأويل ، و لاتباعه ما تشابه من التنزيل ، طلباً للفتنة وغربة الحال ، وابتداعاً فى القول والفعال ، لأن أوقاته قد ذهبت فلا يذهب وقت غيره بذكرها ، وبطلان قول هذا عند العلماء أظهر من أن يدل على فساده ، والاشتغال بالبطال بطالة ، وإنما الرضا فيما كان غير مخالفة لله ولا معصية ، مثل ما يكون من نقص الدنيا ونقص الأموال والأنفس من الأهل والولد ، وفيما على النفس فيه مشقة ولها منه كراهة ، وفيما كان مزيداً فى الآخرة لا عقوبة فيه من الله ، ولا وعيد عليه ، ولاذم لفاعليه .

وقد يحتج أيضاً بطال لبخله وقلة مواساته وبذله ، أو يعتل لا تساعه فى أمر الدنيا واستئثاره على الفقر ، إن الذى يمنعه من البذل والإيثار ، والزهد فيما فى يده

(١) سورة الأنعام آية ١١٣ .
(٢ ، ٣) سورة التوبة آية ٨٧ .
(٤) أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث أنس .
(٥) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمر .

والإخراج ، رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مجريه فيه ، وأن هذا مقام من مقامات الرضا خص به عند نفسه ، وهو قول لاعب ذى هوى ، وهو من خدع النفوس وأمانيها ، ومن غرور العدو ومكايده ، لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضى بفضل الزهد وأوصافه كيف يكون . فالراضى لا يأمر بالاستيثار والاتساع لما كره من النعمة والاستكثار ، لأن الرضا لا يوقف عما ندب العبد إليه ولا يحمل على ما كره له ، وهذا اعتذار من النفس ، وتمويه على الخلق ليسلم منهم ، ولا عذر بهذا عند مالكه ، ولا سلامة له فيه من خالقه .

ومجمل ما ذكرناه أن الرضا لا يصح إلا فيما يحسن الصبر عليه ، والشكر عليه ، لأن الرضا مقام فوق الصبر والشكر ومزيد الصابرين والشاكرين ، فأما أن يكون العبد على نقصان من الدين ، وفى مزيد من الدنيا ، ثم رضى بحاله ، فرضاه بحاله شر من أعماله لمخالفة الأمر . قال الله عز وجل : ﴿ **اتقوا الله وابتغوا اليه الوَسِيلَةَ**[1] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **يَبْتَغُونَ إلى رَبهِّم الوسيلةَ أَيُّهُمْ أقربُ**[2] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرةٍ مِنْ ربِّكم**[3] ﴾ . ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وفى ذلك فلْيَتَنَافَسِ المتنافسون**[4] ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **يُسارعون فى الخيراتِ وهم لها سابقون**[5] ﴾ . فندب إلى المسارعة والمسابقة وذم التخلف عنها ، والتثبيط بالعوائق ، فعلى هذا طريق المؤمنين وفيه مقامات الموقنين .

صفات الراضى عن الله المتمكن فى المشهدين :

جاء فى الخبر : « **من لم يهتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين**[6] » . وفى الخبر المشهور : « **أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فيه**[7] » . فجعل ذلك من أوثق العرى ، لأنه منوط بالإيمان لا يستطيع الشيطان حله ولا سلطان له عليه ، كما لا سبيل له

---

(١) سورة المائدة آية ٣٥ .
(٢) سورة الإسراء آية ٥٧ .
(٣) سورة الحديد آية ٢١ .
(٤) سورة المطففين آية ٢٦
(٥) سورة المؤمنون آية ٦١ .
(٦) رواه الحاكم من حديث حديفة .
(٧) رواه أحمد .

على حل عقد الإيمان ، لأن الله يحول بينه وبينه ، وقد تولى الله تأييد الإيمان بروح القدس بعد كتبه فى القلوب برحمته ، وفى الحب لله الولاية والنصرة بالنفس والمال والفعل والمقال ، وفى البغض فى الله ترك ذلك ، فبغض المبتدع والفاجر والمجاهر والظالم المعتدى وترك موالاتهم ونصرتهم واجب على المؤمنين ، فلأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء الله تعالى ، والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان ، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك بتسليط العدو وغلبة هواك ، إلا أنك تبغض العاصين ولا تواليهم على المعاصى ولا تحبهم لأجلها ، من قبل أن العدو لم يسلط على حل عقد إيمانك كما سلط على فعله من نفسك ، كما أنه لم يسلط على حل عقد إيمانك كما سلط على حل المراقبة والخوف منك ، ولم يسلط أيضاً عليك فى استحلال المحارم ولا استحسانها ولا التدين بها ولا فى ترك التوبة منها ولا بالرضا بها ، كما سلط عليك باقترافها .

فإن سلط على مثل هذا منك العدو حتى تحب الفساق وتواليهم ، وتنصرهم على فسقهم ، أو تستحل ما ارتكب من الحرام ، أو ترضى به ، أو تدين به ، فقد انسلخ منك الإيمان كما انسلخ النهار من الليل ، فلست منه فى كثير ولا قليل ، لأن هذه العقود منوطة بعرى الإيمان ، وهم فى قرن واحد مقترنان ، ألم تسمع الله تعالى يقول : ﴿ **لا يَتَّخِذِ المؤمنونَ الكافرين أَوْلياءَ من دون المؤمنين . ومن يَفْعلْ ذلك فليس من الله فى شيءٍ**[1] ﴾ ، أو ما سمعته تعالى يقول : ﴿ **لَا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنصارى أولياءَ ، بعضُهم أولياءُ بعضٍ ، ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ منكم فإنه منهم**[2] ﴾ . ومثله : ﴿ **لا تتخذُوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سُلطانا مبيناً**[3] ﴾ ، أى حجة قاطعة أن يجمعكم وإياهم فى النار ، وكذلك قال تعالى : ﴿ **وإنَّ الظالمينَ بَعْضُهُم أولياءُ بعضٍ والله وليُّ المتقين**[4] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وكذلك نُوَلِّى بعضَ الظالمِين بعضاً بما كانوا يكسبون**[5] ﴾ . ثم قال : ﴿ **وَيتَّبِعْ غيرَ سبيل المؤمنين نُوَلِّهِ ما تَولَّى ونُصْلِه جهنمَ**[6] ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٧ .
(٢) سورة المائدة آية ٥١ .
(٣) سورة النساء آية ١٤٣ .
(٤) سورة الجاثية آية ١٩ .
(٥) سورة الأنعام آية ١٢٩ .
(٦) سورة النساء آية ١١٥ .

وقد روينا أن الله تعالى أخذ على كل مؤمن فى الميثاق أن يبغض كل منافق ، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن . وفى الخبر المشهور « **المرء مع من أحب وله ما اكتسب**[1] » ، وفى حديث آخر : « **من أحب قوما ووالاهم فى الدنيا جاء معهم يوم القيامة**[2] » . وفى معنى قوله : « **أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فيه**[3] » ، وجه خفى ، هو أن يحبك المؤمنون ويبغضك المنافقون ، فيكون ذلك علامة وثيقة عرى إيمانك ، لأن قوله الحب فى الله يصلح أن يبغضك المنافقون كما تبغضهم أنت ، فكأنك تتحبب إلى المؤمنين حتى يحبوك وتتبغض إلى المنافقين حتى يبغضوك ، بإظهار التباعد عنهم وبترك الموالاة لهم وبنصحك إياهم ، فيدل ذلك على قوة إيمانك . لم تأخذك فى الله لومة لائم منهم ، كما وصف تعالى بذلك من يحبهم ويحبونه . ويكون ذلك أبعد لك من المداهنة والنفاق وأقرب إلى الورع والإخلاص ، فاذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك ، فهذا على معنى ما قاله تعالى : ﴿ **أشدّاءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم**[4] ﴾ وقوله سبحانه ، ﴿ **أذلةٍ على المؤمنينَ أعزَّةٍ على الكافرين**[5] ﴾ . وكما أمر نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قاتلوا الذين يَلونكم من الكفارِ ولْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً**[6] ﴾ .

وسائل نوال الرضا :

وقال بعض المريدين : قلت لبعض أهل المعرفة : إنى كثير الغفلة عن الله قليل المسارعة إلى مرضاته ، أوصنى بشيء أعمله أدرك به ما يفوتنى من هذا ، قال ياأخى : إن استطعت أن تتحبب إلى أولياء الله وتتقرب من قلوبهم فافعل ، لعلهم يحبونك فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه فى كل يوم سبعين نظرة ، فلعله أن ينظر إليك فى قلوبهم لمحبتهم لك ، فيجيرك حيرة الدنيا والآخرة إذا لم تكن ممن ينظر إليه كفاحا . وكذلك يقال : إن الله عز وجل ينظر إلى قلوب الصديقين والشهداء مواجهة ، ثم ينظر إلى قلوب قوم فى قلوب قوم ، وإلى قلوب قوم من قلوب آخرين . فهكذا عندى من عزائم الدين ،

(١) رواه الترمذى عن أنس .
(٢) رواه الطبرانى من حديث جابر .
(٣) رواه أحمد .
(٤) سورة الفتح آية ٢٩ .
(٥) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٦) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وسبيل الورعين أن تتبغض إلى أعدائه وتتمقت إليهم من المبتدعين والظالمين ليبغضوك ويمقتوك ، فيكون لك من القربة كحب أوليائه لك وحبك لهم ، فهذا من أسباب ولاية الله .

وقد روينا عن النبى ﷺ : « **اللهم لا تجعل لفاجر عندى يداً فيحبه قلبى**[1] » . ووصل بعض الأمراء أبا هريرة بألف دينار وعشرة أثواب فردها عليه ، وقال : ما كنت لأقبل منه ، يأخذ المال من غير حله ويضعه فى غير حقه ، وقد قال ﷺ ، « **ردوا هدية الفاجر عليه لا يرى أنكم ترضون عمله** » .

وقد جعل الله من أراد أن يحبه الفاسقون ويأمن فيهم ، وجعل من يسارع بالإدهان وأظهار المتابعة للظالمين خشية دور الدوائر عليه علمين من أعلام النفاق فقال تعالى : ﴿ **سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُون أَنْ يَأْمَنُوكُم ويَأْمَنُوا قومَهم كُلَّما رُدُّوا إلى الفتنة أُرْكِسُوا فيها**[2] ﴾ وقال تعالى فى المعنى الثانى : ﴿ **فترى الذين فى قلوبِهم مرضٌ** ﴾ يعنى المنافقين : ﴿ **يُسَارِعون فيهم** ﴾ . يعنى يواطئون الكافرين سراً : ﴿ **يقولون نَخشَى أَنْ تُصيبنَا دائرةٌ** ﴾ أى نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين . قال الله تعالى : ﴿ **فعسى الله أَنْ يَأْتِىَ بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِنْ عندِه فيصبِحوا على ما أَسَرُّوا فى أنفسهِم نادمين**[3] ﴾ . فينبغى لمن آمن فى المؤمنين وأهل السنة وأحبوه ، أن يخاف فى المنافقين وأهل البدع ، وأن يبغضوه ، وينبغى لمن سارع فى مواطأة المؤمنين أن ينى ويبطىء فى مداهنة الظالمين ومتابعتهم ، حتى يخلص له إيمانه من النفاق ، وتستقيم طريقه من الضلال .

وقد نفى الله الإيمان عمن أحب من حاده وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه ، فقال تعالى : ﴿ **لا تَجِدُ قوما يُؤْمِنونَ بالله واليوم الآخِرِ يُوَادُّونَ من حَادَّ الله ورسولَه**[4] ﴾ . الآية . فأما من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه أو من سواه كما يكون فى الطاعات ، فقد جعل المعاصى والمخالفات من القربات وسوى بينهما ، وفى هذا هدم شرائع الأنبياء وإبطال تفصيل ما أحل الله لنا مما حرم علينا ، وما

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث معاذ بن جبل .
(٢) سورة النساء آية ٩١ .
(٣) سورة المائدة آية ٥٢ .
(٤) سورة المجادلة آية ٢٢ .

أمرنا به مما نهانا عنه . وقد روى فى خبر : « **من شر الناس منزلة عند الله من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته** » ، وقال بعض العلماء : من حمل شاذ العلماء فقد حمل شراً كثيراً .

ومن حسن الأدب فى المعاملة ، إذا عملت صالحاً فقل : ياسيدى أنت استعملتنى ، وبحولك وقوتك وحسن توفيقك أطعتك ، لأن جوارحى جنودك،وإذا عملت سيئاً ظلمت نفسى ، وبهواى وشهوتى اجترحت جوارحى وهى صفاتى ، ثم تعتقد فى ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضاه ، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك ، وتكون فى الحالين عاملا بما يرضيه بالقول والعقود وينتفى عنك العجب فى أعمال برك ، ويصح منك المقت لنفسك واعترافك بظلمك ، وقد ثقلت هذه المشاهدة على الجاهل .

تاسعاً : مقام المحبة :

لما كانت مقامات اليقين عن مشاهدات ، وعلومها عن مواجيد حقه ، كانت أحكامها ومسائلها تحتاج إلى تسليم كامل ، لأن أحكام العقل المكتسب وعلوم أهل النظر التى اكتسبت من المقدمات اليقينية أو الظنية أو الحدسية قاصرة على كشف خواص الكونيات . وليس للعقل ولا لقوة النظر أن تدرك المشاهد القدسية ، أو تسلم بتلك المقامات العلية ، فالمحبة عند أهل النظر والكلام هى الإرادة ، والإرادة لا تتعلق بالقديم الأول ، ولذلك أنكروا المحبة فلو أننا قبل أن نتكلم فى شرح المحبة جارينا المنكرين لمحبة الله تعالى ، وأقمنا عليهم الحجة بتعريفهم المحبة بكونها الإرادة ، فنقول لهم محبة الله للعبد هى إرادة الله تعالى أن يخصه بالقرب ، وأن يجمله بالأحوال العالية ، كما أن إرادة الله تعالى أن يوصل إلى العبد الإنعام والثواب هى رحمة الله تعالى . وإرادته سبحانه تعالى صفة واحدة ، وتختلف أسماؤها بحسب تفاوت متعلقاتها ، فاذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً ، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإذا تعلقت بخصوص النعم تسمى محبة ، وأما المحبة بمعنى الميل ، فلم يقل به أحد من الصوفية لأن الله تنزه عن ذلك ، كما أن الرحمة بمعنى انفعال القلب بالعاطفة لا يقول بها أحد من المسلمين ، وهو الرحمن الرحيم ، فإنكارهم المحبة على أهلها بمدلولها الذى وقفوا عنده مؤد إلى إنكار أكثر الصفات التى ثبتت بالقرآن العظيم وبكلام رسول الله ﷺ ، فإن الله تعالى قال﴿ **قُلْ إِن**

كنتم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ[1] ﴾ . وقال :﴿ يُحِبُّهم ويُحبُّونَهُ[2] ﴾ . كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً[3] ﴾ .

فأهل النظر وعلماء الكلام أثبتوا صفة الكلام لله وأنكروا صفة المحبة ، وإنى لأعذرهم لأن محبة الله للعبد فضل الله العظيم عليه ، ولو منحهم شمة من المحبة لانصبوا بكليتهم على جناب القدس الأعلى ، ولتمزقت أغشية قلوبهم تألها للجميل الأول ، الجليل الأكبر ، وقد تأولها بعضهم بأنها امتثال أوامر الله تعالى ، لأنهم رأوا أن المحبة لا تكون إلا بالمجانسة والمشاكلة والمشابهة ، والحق تنزه عن الشبيه ، والمثيل ، ويرد عليهم أن النفوس الزكية تعشق الصفات الجميلة الكاملة الجليلة المقدسة ، وتنجذب إليها بتأله وولع ، والمحبة أخفى من أن تعرف ، وأدق من أن توصف ، لأنها عن مكاشفة معانى منـزه على جميل جليل « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير**[4] » .

أمثلة من مواجيد الصحابة :

وقد اعترض بعض المتكلمين بأن الصحابة رضوان الله عليهم لم تظهر عليهم هذه الأحوال ، وهذا الاعتراض لجهل المعترض بأحوال الصحابة رضوان الله عليهم ومواجيدهم الصادقة . أذكر أمثلة من مواجيدهم :

أولا : نوم على بن أبى طالب رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ ليقتله المشركون .

ثانياً : وضع أبى بكر رضى الله عنه قدمه على الحية عند خروجها من جحرها ، وهو فى الغار ورسول الله ﷺ نائم على فخذه خشية من أن ينزعج رسول الله ﷺ من نومه .

ثالثاً : ما كان يفعله المشركون ببلال رضى الله عنه لما كانوا يلقونه على الأرض ويدوسون عليه بأقدامهم حتى يخرج لسانه ليرتد .

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٢) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٣) سورة النساء آية ١٦٤ .
(٤) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

رابعاً : هجرة كثير من الصحابة إلى الحبشة مشاة على أقدامهم مع الجوع والعطش فراراً بدينهم .

خامساً : بذل الأموال والأنفس ومعاداة الوالدين والأولاد وقتل الأقارب وتحمل الشدائد التى لا تطيقها الجبال مع السرور والبهجة والفرح ، ومشاطرة الأموال كما فعل الأنصار مع المهاجرين حتى كان الرجل يطلق إحدى زوجتيه ليزوجها لأخيه ، والرضا بالجوع والعطش والعرى السنين الطوال مع البهجة والسرور كما فعل أهل الصفة ، والإقدام على الجهاد بالفتح والتلذذ بقطع اليد والرجل وضياع العين فى سبيل الله تعالى ، ولهم فى المحبة عبارات تسكر الأرواح قال الصديق رضى الله عنه : من ذاق شيئا من خالص محبة الله تعالى ألهاه ذلك عن كل ما سواه .

وهذه قطرة صغيرة من محيط عظيم من أحوال الصحابة رضى الله عنهم ومواجيدهم مما دل على امتلاء بواطنهم بحب الله تعالى ، ومشاهدته ، وأن قلوبهم تألهت بحب الله تعالى ولكن من لم يذق المحبة كيف يفهم أسرارها أو يسلم أحوالها ؟ هذه مقدمة قدمتها ليطمئن بها قلب من سبقت له الحسنى بذوق المحبة فإن المحبة ترمى بالعامة إلى أرقى مراتب الخاصة وإن لم يعملوا عملا .

المحبـــــة :

هى المقام التاسع من مقامات علوم اليقين ، والمحبة من أعلى مقامات العارفين .

تعريفها : محبة الله للعبد إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين ، بهذا الإيثار يرفع إلى مقام المقربين ومعية رب العالمين وعندية المليك المقتدر فى مقعد صدق ، كما قال إخوة يوسف ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا**[1] ﴾ . محبة العبد لله تعالى إيثار العبد ربه على كل شىء حتى يتأله له دون كل شىء ، ويشتغل بذكره عمن سواه ، ويحترق حبا فيه حتى يكشف له الحجب فيراه . ومحبة الله تعالى للعبد يكون معها نهاية الفضل العظيم لعبده ، قال الله تعالى : « **يحبهم ويحبونه**[2] » ثم قال تعالى ﴿ **ذَلك فَضَلُ الله يؤْتيه من يشَاءُ**[3] ﴾ وهذا

(١) سورة يوسف آية ٩١ .
(٢ -٣) سورة المائدة آية ٥٤ .

الخبر متصل بالابتداء فى المعنى ، لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم ، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين . وروى عنه ﷺ : « **ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار**(١) » ، وقال تعالى مصداق قول نبيه عليه السلام رداً على من ادعى محبته ، واحتجاجا عليهم : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكم بِذُنُوبِكُمْ بلْ أنتم بشرٌ ممّنْ خَلَقَ**(٢) ﴾ .

قال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اصنع ما شئت فقد غفرت لك . وروينا عنه ﷺ أنه قال : « **إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم تلا**(٣) » : ﴿ **إنَّ الله يُحِبُّ التَّوابين ويحب المُتطَهِّرين**(٤) ﴾ . وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنوب بقوله : ﴿ **يُحْبِبكم الله ويَغْفِرْ لكمَ ذُنوبَكم**(٥) ﴾ ، فكل مؤمن بالله فهو محب لله ، ولكن محبته على قدر إيمانه وكشف مشاهدته وتجلى المحبوب له على وصف من أوصافه ، دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد ، والتزام أمره وتسليم حكمه ، ثم تفاوتهم فى مشاهدات التوحيد ، وفى دوام الالتزام للأوامر وفى تسليم الأحكام ، فليس ذلك يكون إلا عن محبة ، وإن تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب وليس يقصر عن المحبة صغير ، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف ، ولا يكبر عن التوبة كبير ، ولو كان على كل العلوم قد أوقف ، لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى : ﴿ **والّذين آمنوا أشدُّ حُبًّا لله**(٦) ﴾ ، وفى قوله أشد دليل على تفاوتهم فى المحبة لأن المعنى أشد فأشد ، ولم يقل شديدوا الحب فى الله ، فأشبه هذا الخطاب قوله تعالى : ﴿ **إنَّ أكرمَكم عند الله أتقاكُم**(٧) ﴾ . فدل على تفاوتهم فى الإكرام على قدر تفاضلهم فى التقوى ، ولم يقل إن الكرام المتقون ، وقال ﷺ « **إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الإيمان إلا من يحب**(٨) » فالمؤمنون متزايدون فى الحب فى الله عز وجل عن تزايدهم فى المعرفة به والمشاهدة له .

---

(١) رواه ابن ماجه .
(٢) سورة المائدة آية ١٨ .
(٣) أخرجه صاحب الفردوس .
(٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .
(٥) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٦) سورة البقرة آية ١٦٤ .
(٧) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٨) رواه الحاكم والبيهقى عن ابن مسعود .

الحب لله من شروط الايمان :

وقد جعل عليه الصلاة والسلام الحب لله من شرط الإيمان قال : « **أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**[1] » ، وفى حديث : « **لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**[2] » وفى خبر آخر أشد توكيداً وأبلغ من هذين قوله : « **والله لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين**[3] » ، وفى خبر : « **ومن نفسك** » وقد أمر ﷺ بالمحبة لله فيما شرعه من الأحكام فقال : « **أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه وأحبونى لحب الله**[4] » ، فدل ذلك على فرض الحب لله وإن تفاضل المؤمنون فى نهايات فضائله . ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه ، المعرفة به ، فأفضل الحب له ما كان عن المشاهدة .

من مراتب المحبين :

والمحبون لله على مراتب من المحبة ، بعضها أفضل من بعض ، فأشدهم حباً لله أحسنهم تخلقاً بأخلاقه مثل العلم والحلم والعفو وحسن الخلق والستر على الخلق ، وأعرفهم بمعانى صفاته ، وأتركهم منازعة له فى معانى الصفات ، كى لا يشركوه فيها مثل الكبر والحمد وحب المدح وحب الغنى والعز وطلب الذكر ، ثم أشدهم حباً لرسوله إذ كان حبيب الحبيب ، وأتبعهم لآثاره أشبههم هديا لشمائله .

وقد روى : « **أن رجلا قال : يارسول الله إنى أحبك ، فقال : استعد للفقر ، فقال : إنى أحب الله ، فقال : استعد للبلاء**[5] » والفرق بينهما أن البلاء من أخلاق المبلى وهو الله تعالى المبتلى ، فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه كما قال تعالى : ﴿ **ولِرَبِّكَ فاصْبِرْ**[6] ﴾ ، فدل على أحكامه وبلائه ، والفقر من أوصاف رسول الله ﷺ ، فلما ذكر محبته دل على اتباع أوصافه ليقتفى آثاره لقوله عليه السلام : « **أحينى مسكيناً وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين**[7] » .

(١) أخرجه أحمد من حديث رزين العقيلى .
(٢) متفق عليه من حديث أنس .
(٣) متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم .
(٤) رواه الترمذى من حديث ابن عباس .
(٥) رواه الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل .
(٦) سورة المدثر آية ٧
(٧) رواه الترمذى من حديث أنس .

الذكر من علامات المحبة :

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب ، وهو دليل محبة المولى لعبده ، وهو من أفضل مننه على خلقه ، وفى الخبر : « **إن الله فى كل يوم صدقة يمن بها على خلقه ، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره**[1] » . وأمر ﷺ بكثرة الذكر لله ، كما أمر بمحبة الله لأن الذكر مقتضى المحبة فقال : « **أكثر من ذكر الله حتى يقال إنك مجنون**[2] » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **أكثروا من ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤن**[3] » ، وقال من حديث طويل : « **من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر وضعه ومن أكثر ذكر الله أحبه الله**[4] » ، وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون ، ورفعهم إلى مقام النبوة فى وضع الوزر ورفع الذكر إن كان الذكر موجب الحب فى قوله : « **سيروا سبق المفردون ، قيل من المفردون ؟ قال : المشتغلون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم ، يردون القيامة خفافا**[5] » . ومن أعلام المحبة حب لقاء الحبيب على العيان ، والكشف فى دار السلام ومحل القرب ، وهو الاشتياق إلى الموت لأنه مفتاح اللقاء وباب الدخول لا المعاينة ، وفى الحديث : « **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**[6] » . وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتل فى سبيله : وأخبر أنه يحب قتل محبوبه فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الله يُحبُّ الذين يُقَاتِلونَ فى سبيلِه صفّاً كأنهم بنيانٌ مَرْصُوصٌ**[7] ﴾ بعد قوله تقريعاً لهم : ﴿ **لِمَ تقولون ما لا تفعلون**[8] ﴾ حيث قالوا : إنا نحب الله فجعل القتل محنة محبته وعلامة أخذ مال محبوبه ونفسه ، إذ يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يُقَاتِلون فى سبيل الله فَيَقْتلُونَ وُيقتَلونَ**[9] ﴾ .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا عن أبى ذر .
(٢) رواه أحمد وأبو يعلى .
(٣) رواه الطبرانى والبيهقى عن ابن عباس .
(٤) رواه ابن ماجه من حديث أبى سعيد .
(٥) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .
(٦) متفق عليه من حديث أبى هريرة .
(٧) سورة الصف آية ٤ .
(٨) سورة الصف آية ٢ .
(٩) سورة التوبة آية ١١١ .

وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله عنهما : « الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه » . قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب يعنى عن الفؤاد ، كان المؤمن يحب الله حباً متوسطاً ، فإذا دخل الإيمان باطن القلب فكان فى سويدائه أحبه الحب البالغ ، وعلامة ذلك أن ينظر . فإن كان يؤثر الله على جميع هواه ويغلب محبته على هوى العبد حتى تصير محبة الله هى محبة العبد من كل شىء ، فهو محب لله حقاً ، كما أنه مؤمن به حقا وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك ، فأدل علامات المحبة الإيثار للمحبوب على ذخائر القلوب ، ومحبة الإسلام مفترضة على الخلق ، وهى متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم طاعة لله ومحبة له . أما محبة المقربين فعن مشاهدة معانى الصفات ، وبعد معرفة أخلاق الذات ، وهى مخصوصة بمخصوصين ، والأصل فى هذا أن المحبة إذا كانت عن المعرفة فإن المعرفة عموم وخصوص ، فلخصوص العارفين خاصة المحبة ، ولعمومهم عموم المحبة .

وقال الفضيل بن عياض فى فرض المحبة : إذا قيل لك تحب الله فاسكت ، فإن قلت لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين . فاحذر المقت ، وقال عالم : كل أهل المقامات يرجى أن يعفى عنهم ويسمح لهم ، إلا من ادعى المعرفة والمحبة فإنهم يطالبون بكل شعرة مطالبة ، وبكل حركة وسكون ، وكل نظرة وخطرة لله وفى الله ومع الله .

بيان محبة الله للعبد :

إعلم أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق ، إذ محبة الخلق تكون حادثة لأحد سبع معان : لطبع أو لجنس أو لنفع أو لوصف أو لهوى أو لرحم ماسة أو لتقرب بذلك إلى الله ، فهذه حدود الشىء الذى يشبهه الشىء . والله يتعالى عن جميع ذلك . لا يوصف بشىء منه ، إذ ليس كمثله شىء فى كل شىء ، ولأن هذه أسباب محدثة فى الخلق لمعان حادثة ومتولدة من المحبين لأسباب عليهم داخلة ، وقد تتغير الأوقات وتنقلب لانقلاب الأوصاف ، محبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى ، قديمة قبل الحادثات ، عن عنايته العليا ، لا تتغير أبداً ولا تنقلب لأجل ما بدا لقوله تعالى : ﴿ إنَّ

الذين سَبَقتْ لهم منّا الحُسْنى[1] ﴾ يعنى الكلمة الحسنى ، وقيل : المنزلة الحسنى ، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم بل قد سبقت كل سابقة تكون كقوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيْنا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وكنا به عالمين**[2] ﴾ ، فكذلك قال : ﴿ **هُوَ سمّاكُم المسْلمين مِن قبل**[3] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **لهم قَدَمُ صِدْقٍ عند ربِّهم**[4] ﴾ ، وقال تعالى فى آخر آياتهم : ﴿ **فى مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مليكٍ مُقْتدِرْ**[5] ﴾ . ولا يصلح أن يكون قبل قدم الصدق منهم قدم ، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عمل بهم منهم ، لأن علمه سبق المعلوم ، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه ومعاملتهم له ، ثم هى مع ذلك خاصية حكم من أحكامه ، ومزيد من فضل أقسامه ، وتتمة من سابغ إنعامه خالصة لمخلصين ، ومؤثرة لمؤثرين بقدم صدق سابق لخالصين ، يئول لمقعد صدق عند صادق لسابقين ، ليس لذلك سبب معقول ، ولا لأجل عمل معمول ، بل يجرى مجرى القدر ، ولطف القادر . وإفشاء سر القدر كفر ، ولا يعلمه إلا نبى أو صديق ولا يطلع عليه إلا من يظهره الله عليه ، وما ظهر فى الأخبار من الأسباب فإنما هو طريق الأحباب ، ومقامات أهل القرب من أولى الألباب .

وإنما تستبين المحبة وتظهر للعبد لحسن توفيقه وكلاءة عصمته ، ولطائف تعليمه من غرائب علمه ، وخفايا لطفه فى سرعة ردهم إليه فى كل شيء ، ووقوفهم عنده ، ونظرهم إليه دون كل شيء ، وقربه منهم أقرب من كل شيء ، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته ، وكشف اطلاعهم على معانى صفاته ، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسراره ، وفتوحه لأفكارهم من بواطن إنعامه ، واستخراجه منهم خالص شكره وحقيقة ذكره ، فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطلاعه لهم من عين اليقين ، يقال : إذا أحب الله العبد استخدمه فاذا استخدمه اقتطعه . وقيل : إذا أحب الله عبداً نظر إليه وإذا نظر الله إلى عبده لم يعذبه . فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول ، وهو الله لعبده ، وأحكام تظهر من المحبوب وهو العبد فى حسن معاملته ، أو حقيقة علم يهبه له ، وقالت الرسل :

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٠١ .
(٢) سورة الأنبياء آية ٥١ .
(٣) سورة الحج آية ٧٨ .
(٤) سورة يونس آية ٢ .
(٥) سورة القمر آية ٥٥ .

﴿ إنْ نَحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكم وَلَكِنَّ الله يَمُنُّ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه[1] ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ الله يَصْطَفِى مِن الملائكةِ رُسلا ومِن الناسِ[2] ﴾ ، وفى الخبر : « **إذا أحب الله عبداً ابتلاه – يعنى اختبره – فان صبر اجتباه وإن رضى اصطفاه**[3] » ومن دلائل المحبة حب كلام الحبيب ، وتكريره على الأسماع والقلوب . ومن علامة حب القرآن ، حب أهل القرآن وكثرة تلاوته آناء الليل وأطراف النهار .

وقال سهل بن عبد الله : علامة حب الله حب القرآن . وعلامة حُبُّ القرآن حبُّ الله ، وحب النبى عليه الصلاة والسلام ، وعلامة حب النبى ﷺ حب السنة . وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا . وعلامة بغض الدنيا ، أن لا يأخذ منها إلازاداً يوصله إلى الآخرة . ومن علامة حب المولى ، تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس ، والمبادرة بأوامر المحبوب ثم إيثار محبته على هواك ، واتباع رسول الله ﷺ فيما أمرك به ونهاك عنه ، والذل لأوليائه من العلماء به العاملين ، ثم التعزز على أبناء الدنيا ، ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن ، ثم الطمأنينة إلى الحبيب ، وعكوف الهم على القريب ، ودوام النظر وسياحة الفكر ، لأن من عرفه أحبه ، ومن أحبه نظر إليه ، ومن نظر إليه عكف عليه . ومن المحبة التناصح بالحق والتواصى به والصبر على ذلك .

المحبـوبْ :

لما كان المحبوب مراد ذات الله تعالى ، المجمل بجمال عواطفه سبحانه ، المحلى بحلل إحسانه ، المنظور بأعين حنانه ، كان له من مشاهد الكمالات قوام ، ومن منازلات الجمالات مزاج ، كانت المواجهات الجمالية والمنازلات الإحسانية لا تحجب لطائف قلبه عن الإشراف على لوامع عظمة الذات الأحدية ، وبوارق الكبرياء والجبروت ، فكان لما يواجه به من الجمالات العلية عن وصف قريب محبب ، تجعله عاشقاً متألهاً ، وما يشرف عليه من معانى عزة وجبروت ، وعظمة وكبرياء ، وجلال وكمال ، يجعله دائم الرهبة والخوف ، والخشية والخشوع ، وما يعلمه باليقين الحق من علو المحبوب عن المثيل والنظير والضد والند ، وأنه غنى غنى مطلقا بذاته عمن سواه ، وأنه لا يسئل عما

(١) سورة إبراهيم آية ١١ .
(٢) سورة الحج آية ٧٥ .
(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث على .

يفعل ، المشيئة مشيئته ، إن شاء أن يواجه كل شيء واجه كل شيء ، وإن شاء أن يحجب عنه كل شيء حجب عنه كل شيء ، فمن اجتمعت عليه كل المعانى الثلاث ، دل العشق مع طمع العاشق فى نوال رضا المعشوق ، والرهبة من العظمة والجبروت والكبرياء ، والتحقيق بأن المحبوب غنى على عظيم لا يسئل عما يفعل ، تلك المعانى إذا استولت على قلب أذابت أغشيته ، ولذلك فللمحبين بحسب مراتبهم فى المحبة رهبة .

المخـــاوف :

المخاوف سبعة خاصة بالمحب بعضها فوق بعض ، أولها : خوف الإعتراض . وأشد منه : خوف الحجاب . وأعظم من هذا : خوف البعد ، وهذا المعنى فى سورة هود ، هو الذى شيب الحبيب إذ سمع المحبوب يقول : ﴿ **أَلَا بُعْداً لِثمودَ**[1] ﴾ ، ﴿ **أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كماَ بعِدتْ ثَمودُ**[2] ﴾ ، فذكر البعد فى البعد يشيب أهل القرب فى القرب . ثم : خوف السلب للمريد والإيقاف مع التجديد ، وهذا يكون للخصوص فى الإظهار والاختيار منهم ، فيسلبون حقيقة ذلك عقوبة لهم . ثم : خوف الفوت الذى لا درك له . وأشد من الفوت : خوف السلو ، وهذا أخوف ما يخافون ، لأن حبه لهم وحبهم له كان به لا بهم ، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها ، فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شيء ، فكذلك سلوهم عنه يكون كما كان حبهم له ، فيدخل عليهم السلو عنه من حيث لا يشعرون ، من مكان ما دخل عليهم الحب له من حيث لا يعلمون . وأشد من هذا كله : خوف الاستبدال ، لأنه لا مثوبة فيه ، وهذا حقيقة الاستدراج يقع عن نهاية المقت من المحبوب ، وغاية البغض منه ، والبعد والسلو مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب بداية ذلك كله . والقبض عن الذكر وضيق الصدر بالبر أسباب هذه المعانى المبعدة ، والمدارج المدرجة ، إذا قويت وتزايدت أخرجت إلى هذا كله وإذا تناقصت وبدت بها الصالحات والحسنات أدخلت فى مقامات المحبة والقربات ، فالعاكف على هواه مقيت الله ، والخوف من هذه المعانى علامة المعرفة بأخلاقه الملونة ، ولايصح شرح هذه المقامات فى كتاب ، ولاتفصيلها برسم خطاب ، إنما يشرح فى قلب بيقينه قد شرح ، ويفصل لعبد من نفسه قد فصل ، فأما قلب مشترك وعبد فى هواه مرتبك ، فليس لذلك أهلا والله المستعان .

---

(١) سورة هود آية ٦٨ .

(٢) سورة هود آية ٩٥ .

كشـف الابـرار :

وقال بعض العلماء : من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقربه وعلمه ومكنه . وليس العجب من خوف الخائفين ، وإنما العجب من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه ، وشهدوا من تعطفه وألطافه ما لم يعرف الخائفون ، ثم هم مع حبهم يهابونه ، وعلى أنفسهم يخافونه ، وفى فزعهم منه يشتاقون إليه ، وفى بسطه لهم ينقبضون بين يديه ، وفى إعزازه لهم يذلون له . فللمحبين الانقباض فى البسط وللخائفين الانقباض فى القبض ، وللمحبين الذل مع العز والكرامة ، وللخائفين الذلة مع الهيبة والمهانة . فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظم المعارف ، إذا كانت أوائل أحوالهم المخاوف ، فكل محب لله خائف وليس كل خائف محباً ، وهذا كشف الأبرار وهو حجاب المقربين ، لأن المحبين لهم من الخوف قوت ومن المحبة اتساع ، والخائفون لهم من الخوف اتساع ، ومن المحبة قوت .

وفى سبق ترتيب المقامات من الله تعالى حكم غريب ، وحكمة لطيفة لا يعرفها إلا من أعطى يقين شهادتها ، إن سبق إلى العبد بمقام الخوف كان محباً حب المقربين العارفين ، وإن سبق إليه بمقام المحبة كان محباً محبة أصحاب اليمين ، ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين فى مقامات المقربين ، وكل هؤلاء موقنون صالحون ، وإن خرجت أحوالهم عن ترتيب علوم أهل الظاهر ، لأن المنكر لهم أكثر من المقر : ﴿ **والله غَالِبٌ على أمْرِه ولكن أكثرَ الناسِ لا يَعْلمون**[1] ﴾ ، ﴿ **هم دَرجاتٌ عند الله والله بصيرٌ بما يَعْمَلون**[2] ﴾ . ومن علم المحبة سهر الليل بمناجاة الجليل ، والحنين إلى الغروب شوقاً إلى الخلوة بالمحبوب ، ومناجاة القلب سرائر الوجد ومطالعه الغيب ، والمناجاة عند أهل المصافاة إنما هى بالقلوب ، وهى مطالعتها بواطن الغيوب ، وجولاتها فى سر الملكوت ، وعلوها فى معانى الجبروت ، بأنوار أرواحها يحملها شعاع أنواره ، فيوقعها على خزائن أسراره .

---

(١) من الآية ٢١ من سورة يوسف .
(٢) الآية ١٦٣ من سورة آل عمران .

الشـــــوق :

أما الشوق فإنه مقام رفيع من مقامات المحبة ، وليس يبقى الشوق للعبد راحة ولا نعيما فى غير مشوقه ، والمشتاقون مقربون بما أشهدوا من الشوق إليه ، وهم المأمور بطلبهم ، الموجود الحبيب عندهم ، مثوبة منه لهم ، لما شوقهم إليه فى قوله لموسى عليه السلام : « **اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى** » . هم المشتاقون من المحبين ، وذلك أن الحبيب قرب منهم بوصفه تكرماً ، ففرحوا بقربه وعاشوا بمشاهدته ونعموا لحضورهم عنده ، ثم احتجب غيرة على نفسه لعزه ، فانكسرت قلوبهم لأجله فاشتاقوا إلى ما عودهم منه ، فثبتت لديه حرمتهم ، فأمر أوليائه بطلبهم ، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده ، ففرح هؤلاء من المحبين بقربه لا يوصف ، وانكسارهم وحزنهم لأجله لا يعرف ، والله سبحانه وتعالى قد يعرض عن محبيه تعززاً ليزعجهم الشوق إليه ، ويقلقهم الأسف عليه ، وينظر إليهم فى إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون ، لينظروا إليه من حيث يعلمون ، فيسكنون بالأدب بين يديه .

وفى خبر وهب بن منبه : « **أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إنك تكثر مسألتى ، ولا تسألنى أن أهب لك الشوق ، قال : يارب وما الشوق ؟ قال : إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ، وأتممتها بنور وجهى ، فجعلت أسرارهم موضع نظرى إلى الأرض ، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى عجائب قدرتى فيزدادون فى كل يوم شوقاً إلىَّ ، ثم أدعو نجباء ملائكتى ، فإذا أتونى خروا إلى سجداً ، فأقول : إنى لم أدعكم لعبادتى ارفعوا رءوسكم أركم قلوب المشتاقين إلى ، فوعزتى وجلالى إن سمواتى لتضىء من نور قلوبهم كما تضىء الشمس لأهل الدنيا** » .

وإنما ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه ، فلما أخبره به أعطاه مقام الشوق إليه فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين ، وأن يجعل ذلك على لسانه ليريه فضل مكانه ، ويظهر له ذلك عن مسألته ليفضله ويشرفه بسرعة إجابته ، وسكت عليه السلام بين يديـه استحياء منه ، واعترف لديه بالجهل لأنه عند علام الغيوب ، وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه لأنه أصدق القائلين ، وأمدح الواصفين .

الغيـــــرة :

أما الغيرة فحال سنية من أحوال المحبين ، لأنه قد أظهرهم على معانى نفسه فضنُّوا بها

لما امتلأت بها قلوبهم ، وحارت فيها عقولهم ، إلا أن هؤلاء خصوص أصحاب اليمين ، وهم عموم المحبين ، إلا أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية والانفراد بالفردانية ، نظروا فإذا هو لم يعط منه لسواه شيئا ، ولا أظهر من معانيه وصفاً ، فانطوت الغيرة فى توحيدهم لما عرفوا بيقين التوحيد أنه ما نظر إليه سواه ، ولا عرفه إلا أياه ، فتسقط هممهم بالغيرة عليه ، وعرفوا حكمته بتعريفه أنواع ما يظهر ، وأقسام ما ينشر ، وأنه فى غيب غيبه لا يظهر عليه سواه ، وفى سر سره لا يشهده إلا إياه ، فقام لهم مقام المعرفة بالتوحيد مقام الغيرة عليه ، فهذا إذا طولعوا به مقام الموحدين من الصديقين .وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هى أوصاف المحبين ، وكل محب لله فعن محبة الله ، لأن وجود العبد لمحبة الله علامة غيب محبة الله له ، يبين ذلك الغيب له فى هذه الشهادة .

مقامات فى المحبة والمشاهدة :

إلا أن فى المحبة مقامان : مقام تعريف ، ومقام تعرف . فمقام التعريف هو معرفة العموم ، وهذا قبل المحبة الخاصة ، ومقام التعرف هو معرفة الخصوص وهذا بعد محبة العموم ، وهو مزيد الحب الأول وهذا محبة خصوص .

وكذلك فى المحبة مقامان : مقام محب ، وأعلى منه مقام محبوب ، وهذا كما عبروا عن قولهم : مريد ومراد ، وعلى الحقيقة كل مريد لله تعالى فهو مراد بذلك ، إلا أنهم جعلوا اسم مراد بوصف مخصوص يعرف به ، تمتاز معه المبتدى من المبادى ، والمنيب من المجتبى ، والطالب من المطلوب ، والراغب من المرغوب ، والحافظ من المحفوظ ، فكذلك لَعمرى ليس الحامل مثل المحمول ، ولا الزائر كالمزور ، ولا الاشتياق كالحضور ، ولا المحب مثل المحبوب .

وفى المشاهدة مقامان ، مقام شوق ومقام أنس ، فالشوق حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة ، ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف ، وفى هذا المقام الحزن والانكسار . والأنس حال من القرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة ، وفى هذا المقام السرور والاستبشار ، وفى مقام الأنس يكون التملق والمناجاة ، ومعه تكون المحادثة والمجالسة ومعنى من البسط .

المحب والمحبوب :

ومثل المحبوب من المحب : مثل مقام المصطفى ﷺ من مقام موسى عليه السلام ، قال موسى : ﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِى**[1] ﴾ ، وقال لمحمد : ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**[2] ﴾ ، وقال موسى : ﴿ **واجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ، هَارُونَ أَخِى**[3] ﴾ وقال لمحمد : ﴿ **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**[4] ﴾ أى تقرن بى فى الشهادة والأذان لا أوازرك بغيرى . لأنك من أهلى ، والوزير القرين والظهير أى فأنا ظهيرك ومعينك لا أشد أزرك بغيرى ، فأشبه هذا ما رويناه عن ليث عن مجاهد فى قوله عز وجل : ﴿ **عسَى أن يَبْعثك ربُّك مَقاماً مَحْموداً**[5] ﴾ قال : يقعده على العرش ، فكان العرش مكان الربوبية بمشيئته فى الدنيا ، وهو مستغنى عنه بقدرته فوهبه لحبيبه فى الآخرة ، فجعله مكانه تفضيلا له وتشريفاً ، ليكون هناك فوق المرسلين فى الجلالة كما كان ههنا آخرهم فى الرسالة ، وقال لموسى عليه السلام بعد المقام : ﴿ **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ، وَلَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىَ**[6] ﴾ . ففى هذا تحديد ، وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام بعد المقامات : ﴿ **وقلْ رِبِّ زِدْنِى عِلْماً**[7] ﴾ ، فلم يحد له حداً فهذا غاية المزيد ، وقال موسى عليه السلام : ﴿ **رَبِّ أَرِنِى أَنْظرْ إِلَيْك**[8] ﴾ أى فى محل العبودية ، وقال لمحمد ﷺ : « **ما زَاغَ الْبَصَرُ وَماَ طَغَى**[9] » ، ﴿ **فكان قابَ قَوْسينِ أَوْ أدْنَى**[10] ﴾ أى مكان الربوبية ، فبين المحب والمحبوب فى التقليب ، كما بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فى التقريب ، كم بين من رأى ما رأى عند نفسه فى مكانه ، وبين من رأى ربه عند ربه فى علوه ، كم بين من عجل إليه شوقاً منه ليرضى عنه ، وبين من عجل به شوقاً إليه ليرضاه إليه لرضاه عنه ، كم بين من رأى ما رأى فلم يثبت ففاضت عليه الأنوار لضيقه ، وبين

---

(١) سورة طه آية ٢٥ .
(٢) سورة الإنشراح آية ١.
(٣) سورة طه آية ٢٩ - ٣٠ .
(٤) سورة الانشراح آية ٤ .
(٥) سورة الإسراء آية ٧٩ .
(٦) سورة طه آية ٣٦ - ٣٧ .
(٧) سورة طه آية ١١٤ .
(٨) سورة الأعراف آية ١٤٣ .
(٩) سورة النجم آية ١٧ .
(١٠) سورة النجم آية ٩ .

من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته ، فقد جاوز المحبوب مقام المحب فى التمكين ، كما جاوز محمد ﷺ مقام موسى عليه السلام فى المكان ، أدخل بينه وبين موسى لام الملك ، وأقام محمداً ﷺ مقامه فى الملك ، وقال تعالى لموسى عليه السلام : ﴿ **واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**[١] ﴾ وقال لحبيبه ﷺ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ**[٢] ﴾ فكم بين من صنعه لنفسه ، وبين من جعله بدلا من نفسه تفضلا وتعظيما .

ومن وصف مقام المحبوب ما قيل لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه : صف لنا أصحابك ، فقال : عن أيهم تسألون ؟ قالوا : عن سلمان ، قال : أدرك علم الأول والآخر ، قالوا : فعمار ، قال : ملىء إيماناً إلى مشاشه ، قالوا : حذيفة ، قال : صاحب السر أُعطى علم المنافقين ، قالوا : فأخبرنا عن نفسك ، فقال : « إياى أردتم ، بهذا كنت ، إذا سَألت أُعطيت ، وإذا سَكتُّ ابتُدئتُ » ، فهذا مقام محبوب ، لأنه إذا سأل سُمع منه فاستجُيب له ، وإذا سكت نُظر إليه فعُطف عليه .

ومن المحبة كتمان المحبة إجلالا للحبيب ، وهيبة له وتعزيزاً وتعظيما له ، وحياء منه ، وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين ، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء . إذا كانت المحبة سر المحبوب فى غاية القلوب فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها ، وليس من الأدب ولا الحياء النسبة إليها ولا الإشارة بها ، لأن فى ذلك اشتهاراً فتدخل عليه دقائق الدعوى والاستكبار .

ومن المحبة كتمان بلاء الحبيب بعد الرضا به ، لأن ذلك من السر عنده وحسن الأدب لديه ، وليس يمكننا وصف المحبوب إذ كان حاله يجل عن الوصف ، وكيف يوصف من يسمع ويبصر من يحبه ويبطش ويعقل عن محبوبه فيكون هو سمعه وبصره وقلبه ويده ومؤيده ؟ كما جاء فى الخبر : « **إذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وقلبه الذى يعقل به ، إن سألنى أعطيته ، وإن سكت ادخرت له ، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم** »[٣] . هذا كله مقام محبوب ، ويقال : إن هذه الآيات والقدر من سرائر الغيوب ، وخفايا الملكوت التى تسميها العامة المعجزات والآيات ، ويسميها العلماء الكرامات والإجابات ، وهى آيات

(١) سورة طه آية ٤١ .
(٢) سورة الفتح آية ١٠ .
(٣) رواه البخارى من حديث أبى هريرة .

الله فى أرضه مودعة ، وقدرته فى عباده جارية ، وعنايات له فى ملكه مستقرة ، ليس للعباد منها إلا كشفها ونظرهم إليها إذا أقيموا مقام الأنس فى مقام محبوب . فجميع تلك الأسرار من الغيوب التى تكنها الحجب والأستار ، لا يظهر عليها إلا مطلوب ، والمطلوب عن نفسه مسلوب ، فمن بقيت عليه من نفسه بقية ، أو نظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية ، فسترها عليه رحمة له ، لأنه لو كوشف هلك فى الحيرة وغرق فى حيرة الهوى وغرق فى بحر الدنيا ، ونفس حبه لها وعين طلبه إياها حجابها عنه ، واستتارها منه ، حتى يكون كارها لظهورها ، كراهته لظهور الخلق عليه فى معصيته ، وخائفاً منها ، خيفته من نفسه فى تظاهرها عليه بهلكته ، فإذا بقى بباق ، وحيى بحياة حى ، صرفا منه وصرفا عنه ، بلا طلب ولا نظر ولا سبب ، ولا فكر أدى لعجائبه ، وفتح له كنوز غرائبه ، ويفعل الله ما يشاء .

ومقام الحبيب أعز من أن يظهر وأخفى من أن يعرف ، غيرة منه عليهم ، سترهم بأفعالهم ، وضناً منه بهم حجبهم بأوصافهم ، أهل المقامات يشتاقون إليه وهو يشتاق إليهم ، وأهل القرب ينظرون إليه ، وهو ينظر إليهم . وأهل المحبة يحبون أن يسمعوا كلامه ، وهو يحب أن يسمع كلامهم . وأهل الأحوال يسألونه وهو حسبهم ، ويحب أن يسألوه وأهل المشاهدات يزورونه وهو فى قلوبهم يزورهم ، وأهل الآخرة ينظرون إليه فى الآخرة ، وهو ينظر إليهم فى الدنيا ﴿ **ذلك فَضْل الله يُؤْتيهِ مَن يَشاءُ**[1] ﴾ .

(١) الآية ٥٤ سورة المائدة .

الفصل الرابع

الأخوة فى الله

إعلم أن الأخوة مشهد من مشاهد التوحيد الكامل ، التى بها تتجلى معانى الكمالات والنزاهة لذات الأحد سبحانه ، من حيث أنه تنزه غنى عن الخلق قائم بذاته ، منزه عن المعين والصاحب والوالد والولد وعن التركيب والأعضاء والأجزاء ، وأنت المفتقر إلى الأعضاء والجوارح والولد والصاحب والمعين والوكيل والوزير ، فالأخوة أكمل جمالات رتبتك ، بها تتميز الحضرتان وتظهر المكانتان ، حتى تحقق عين يقين من أنت ومن ربك .

الإخوان فى الله عز وجل :

هم المعراج إلى حضرة الحق تعالى ، بهم تتجدد معالم الحق وتعلو كلمته وتقام حدوده وتحفظ مناسكه وينتشر الأمن والعدل ، قال الله تعالى : ﴿ **يأيها النبىُّ حَسْبُكَ الله ومَنِ اتَّبعك من المؤمنين**[1] ﴾ ، فالأخوة تشهدك فى نفسك أنك عبد مضطر مفتقر ذليل ، فتعلم بها معانى كمالات ربك القدير ، وتشهدك معونة الله وإمداداته ، ووُدَّ الله لك وإحسانه بما يجريه على يدهم لك من الخير والمزيد والنصر والقوة ، والأخ فى الحقيقة هو أنت ، وكلما أكثرت من الإخوة كلما كنت كثيراً ، وبقدرهم يكون لك ألسن وآذان وأعين وأيد وأرجل وكنوز وخزن ، ذكر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم فى الدين ، إذ ألف بين قلوبهم بعد أن كانوا متفرقين ، فأصبحوا بنعمته إخواناً بالألفة متفقين ، وعلى البر والتقوى مضطجعين ، ثم ضم التذكِرة بالنعمة عليهم إلى تقواه ، وأمر بالاعتصام بحبله وهداه ، ونهى عن التفرق إذ جمعتهم الدار ، وقرن ذلك بالمنة منه

(١) سورة الأنفال آية ٦٤ .

عليهم إذ أنقذهم من شفاحفرة النار ، وقد جعل ذلك كله من آياته الدالة عليه سبحانه ، وقد كانت المؤاخاة فى الله تعالى والصحبة لأجله والمحبة له فى الحضر والسفر طرائق للعاملين لما جاء فيه من الأمر والندب ، إذ كان الحب فى الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان ، وكانت الألفة والصحبة لأجله ، والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين .

وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان فى الله عز وجل ، بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين ، لأن ذلك زين فى الرخاء ، وعون فى الشدائد ، وتعاون على البر والتقوى والألفة فى الدين ، قال تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلا وَأنتُم مسْلِمُون ، واعتصموا بَحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفرّقُوا ، واذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكمُ إذْ كُنْتُم أعْدَاءً فَألّفَ بَيْنُ قُلوبِكُمْ فأصْبحْتَمْ بنعْمتهَ إخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النارِ فَأنقَذكُم مِنهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكمْ آياتِهِ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ**[1] ﴾ ، وقال رسول الله ﷺ : « **إن أقربكم منى مجلساً أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا ، الذين يألفون ويُؤلفون**[2] » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى مؤمنان إلا أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيراً**[3] » ، وقال ﷺ : «**من آخى أخا فى الله عز وجل ، رفعه الله عز وجل درجة فى الجنة لا ينالها بشىء من عمله**[4] » . ويقال : إن الأخوين فى الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر ، رفع الأعلى مقاما أخيه معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض .

وقال الله تعالى مخبراً عمن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته : ﴿ **فما لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيم**[5] ﴾ وقال ﷺ : «**المؤمن كثير بأخيه**[6] » ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : ما أعطى عبد بعد الإسلام خيراً من أخ صالح . وفى الأخبار السابقة عن داود عليه السلام : « **إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه يادواد مالى أراك منتبذاً وحيدا ، قال : إلهى قليت الخلق من أجلك ، فأوحى الله عز وجل إليه . يا داود كن**

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٢) رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق .

(٣) رواه السلمى وأبو منصور الديلمى من حديث أنس .

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث أنس .

(٥) الآية ١٠٠ – ١٠١ سورة االشعراء .

(٦) رواه الديلمى والقضاعى عن أنس .

يقظانا مرتاداً لنفسك إخوانا ، فكل خدن لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه ، فإنه لك عدو ويقسى قلبك ويباعدك منى» ، وقال رسول الله ﷺ : « **كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين** » . وفى أخبار داود ﷺ أنه قال : « **يارب كيف لى أن يحبنى الناس كلهم ، وأسلم فيما بينى وبينك ؟ قال : خالق الناس بأخلاقهم ، وأحسن فيما بينى وبينك** » ، وفى بعضها : « **خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة** » .

وقال محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً ، حتى يجعل الله عز وجل منه فرجاً » ، ويقال : أن أحد الأخوين فى الله عز وجل إذا مات قبل صاحبه ، وقيل له ادخل الجنة سأل عن منزلة أخيه ، فإن كان دونه لم يدخل الجنة ، حتى يعطى أخوه مثل منازله ، ولا يزال يسأل له من كذا وكذا فيقال : إنه لم يكن يعمل مثل عملك فيقول : إنى كنت أعمل لى وله ، فيعطى جميع ما سأل له ، ويرفع أخوه إلى درجته معه . ويقال : ما حسد العدو متعاونين على بر ، حسده متآخيين فى الله عز وجل ، ومتحابين فيه ، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ**[1] ﴾ . وقال عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام :﴿ **مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ . الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى** ﴾ .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عليك بإخوان الصدق تعش فى أكنافهم ، فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء ، وضع ما يغلبك من أمر أخيك على الحسنة حتى يحبك ، واعتزل عدوك ، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين ، ولا أمين إلّا من خشى الله عز وجل ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم فجوره ، ولا تطلعه على سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى » . وقال الأحنف : من حق الصديق أن يحتمل له ثلاث : أن يجاوز عن ظلم الغضب وظلم الهفوة وظلم الدالة . « والدالة : الجرأة » وقال : الإخاء جوهرة رقيقة ، فهى مالم ترق عليها وتحرسها كانت معرضة للآفات ، فارض الإخاء بالذلة حتى تصل إلى فوقه ، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ، ولا من أخيك التقصير . وقال أسماء بن خارجة الفزارى : ما شمت أحداً قط . لأنه إنما يسأمنى أحد رجلين ، كريم كانت منه

(١) سورة الإسراء آية ٥٣ .

زلة وهفوة ، فأنا أحق من غفرها ، وآخذ عليها بالفضل فيها ، أولئم فلم أكن أجعل عرضى له غرضاً .

عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه**[1] » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق**[2] » .

فضائل الأخوة فى الله :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **المتحابون فى الله عز وجل على عمود من ياقوتة حمراء ، فى رأس العمود سبعون ألف غرفة ، مشرفون على أهل الجنة ، يضىء حسنهم لأهل الجنة ، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا ، عليهم ثياب سندس خضر ، مكتوب على جباههم : هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل**[3] » ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء ، فقالوا : يارسول الله صفهم لنا ، فقال : هم المتحابون فى الله عز وجل ، والمتجالسون فى الله تعالى ، والمتزاورون فى الله تعالى**[4] » . وقال رسول الله ﷺ : « **سبعة يظلهم الله عز وجل فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، منهم – كذا وكذا – واثنان تآخيا فى الله عز وجل ، اجتمعا على ذلك وتفرقا**[5] » . وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول : نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة .

بم تصح الأخوة فى الله

لا تصح الأخوة فى الله عز وجل إلا بما شرط فيها من الرحمة فى الاجتماع ، والخلطة عند الافتراق بظهور النصيحة ، واجتناب الغيبة وتمام الوفاء ، ووجود الأنس وفقد

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه أبو يعلى الموصلى والطبرانى من حديث أبى هريره .
(٣) رواه الحكيم الترمذى فى النوادر من حديث مسعود .
(٤) رواه النسائى فى سننه الكبرى .
(٥) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

الجفاء ، وارتفاع الوحشة ، ووجود الانبساط ، وزوال الاحتشام . وقال عليه الصلاة والسلام : « **أحب الإخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه**[1] » . وقال ابن عباس فى وصيته لمجاهد : لا تذكر أخاك إذا تغيب عنك إلا بمثل ما تحب أن تذكر به إذا غبت ، واعفه بما تحب أن تعفى به ، وقال آخر : ما ذكر أخ لى فى غيبته إلا تصورت نفسى فى صورته ، فقلت فيه ما أحب أن يقال فىَّ ، فهذا حقيقة فى صدق الإسلام ، لا يكون مسلما حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه .

وعن بعض الحكماء : من جعل نفسه فوق قدره عند الإخوان أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه فى قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا . وفى الأخبار : اثنان عزيزان ولا يزدادان إلا عزة ، درهم حلال ، وأخ تسكن إليه . وقد كان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحاله عما كان فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وفى حديث عمر وقد سأل عن أخ كان قد آخاه ، فخرج إلى الشام ، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال : ذاك أخو الشيطان ، قال : مه ، قال : إنه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر ، فقال : إذا أردت الخروج فأخبرنى ، قال فكتب إليه ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، حَم تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِن الله الْعَزيز العليم غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ**[2]﴾. الآية، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله ، فلما قرأ الكتاب قال: صدق الله ونصح لى عمر ، قال : فتاب ورجع . وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكرونا الدنيا ، والإخوان يذكرونا الآخرة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **مازار رجل أخاه فى الله عز وجل شوقاً إليه ورغبة فى لقائه ، إلا ناداه ملك من خلفه : طبت وطابت لك الجنة**[3] » ، وعن عطاء كان يقول : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث ، فإن كانوا مرضى فعودوهم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم ، وإن كانوا نسوا فذكروهم ، وقال الأحنف بن قيس : ثلاث خلال تجلب بهن المحبة ، الإنصاف فى المعاشرة ، والمواساة فى الشدة ، والانطواء على المودة . فأول ما تصح المحبة فى الله أن لا يكون لضد ذلك من صحبة لأجل معصيته ، ولا على حظ من دنياه ، ولا لسبب موافقته على هواه ، ولا لأجل ارتفاقه اليوم لمنافعه ومصالحه فى

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس .

(٢) سورة غافر اية١ – ٣ .

(٣) أخرجه ابن عدى من حديث أنس .

أحواله ، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسان أحسن به إليه ، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها ، فهذه ليس فيها طريق إلى الله تعالى ولا للآخرة ، لأنها طرقات الدنيا ولأسباب الهوى ، فإذا سلم من هذه المعانى فهذا أول المحبة لله تعالى ، ولا يقدح فى الإخوة لله تبارك وتعالى أن يحبه لحسن خلقه ، وفضل أدبه ، وحسن حلمه ، وكمال عقله ، وكثرة احتماله وصبره ، أو لوجود الأنس به ، وارتفاع الوحشة منه ، وإنما يخرجه عن حقيقة الحب فى الله أن يحبه لما يكون دخلا فى الدين ، ووليجة فى طرائق المؤمنين ، ولما انفصل عنه ولم يكن متصلا به مثل الإنعام والإفضال ووجود الارتفاق ، فهذا الحب لا يمنع القلب وجده لما جبل الطبع عليه ، ولبغض من كان بضده ممن أساء اليه . وحقيقة الحب فى الله عز وجل أن لا يحسده على دين ولادنيا ، كما لا يحسد نفسه عليهما ، وأن يؤثره بالدين والدنيا إذا كان محتاجا إليهما كنفسه ، وهذان شرطا الحب فى الله عز وجل اللذان ذكرهما الله تعالى فى قوله : ﴿ **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ**[1] .

ثم وصف محبتهم إذ يصف حقاً ويمدح محقاً فقال تعالى : ﴿ **ولَا يجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا** ﴾ ، يعنى من دين ودنيا ، ثم قال تعالى فى الشرط الثانى : ﴿ **ويُؤْثِرُونَ عَلَى أنفسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**[2] ﴾ ، ولا تصح مؤاخاة مبتدع فى الله تعالى ، ولا محبة فاسق يصحب على فسوقه ، ولا محبة فقير أحب غنياً لأجل دنياه ، ولا ما يناله من عاجل مناه ، وليس الإخاء كف الأذى لأن هذا واجب ، ولكن الإخاء الصبر على الأذى .

وكانت طائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربع معان ، لا يترجح بعضها على بعض ، ولا يكون فيها اعتراض من بعض وهى :

١ - إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم .

٢ - وإن صلى الليل أجمع لم يقل له أحد نم بعضه .

٣ - وتستوى حالاته عنده فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه ، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه ، فإذا كان عنده يزيد بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين .

٤ - وقد كان الإخوان يتباينون على العلوم والأعمال وعلى التلاوة والأذكار .

---

(١) سورة الحشر آية ٩ .

(٢) سورة الحشر آية ٩ .

وبهذه المعانى تحسن الصحبة وتحق المحبة ، وكانوا يجدون من المزيد من ذلك والنفع به فى العاجل والآجل ما لا يجدونه فى التخلى والانفراد ، من تحسين الأخلاق ، وتلقيح العقول ، ومذاكرة العلوم ، وهذا لا يصح إلا لأهله ، وهم أهل سلامة الصدور ، والرضا بالميسور مع وجود الرحمة ، وفقد الحسد ووجد التناصر ، وعدم التظاهر ، وسقوط التكلف ودوام التآلف ، وقد ضم الله عز وجل الصديق إلى الأهل ووصله بهم ، ثم رفع الأخ وقدمه على الصديق وهو قوله عز وجل : ﴿ **أَوْ مَا مَلَكْتُم مَفَاتِحهُ**[1] ﴾ .

كان الأخ يدفع مفاتيح خزائنه إلى أخيه ويتصرف فى الحضر ، ويتقلب فى السفر ، ويقول لأخيه حكمك فيما أملك كحكمى ، وملكى له كملكك ، ثم نسق الأقارب على ترتيب الأحكام ، وضم إليهم الأخ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه ، فأقام ذلك مقام ملك أخيه لأنه أقام أخاه مقامه فقال تعالى : ﴿ **أَوْ مَامَلَكتمْ مَفَاتحَهُ** ﴾ ، ثم أخر الصديق بعده إذ لم يكن بحقيقة وصفه ، ثم قال عز وجل : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلوا جَمِيعاً** ﴾ . بحضرة الإخوان ﴿ **أَوْ أَشْتَاتاً** ﴾ فى حال تفرقهم ، فسوى بين غيبتهم وشهودهم لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم ، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم فى البذل والمحبة .

---

(١) سورة النور آية ٦١ .

الفصل الخامس

الأخلاق وآفاتها

اعلم أن مشاهدات اليقين عن كمال التوحيد لا يتجمل بها إنسان إلا بعد أن يخرج أخلاق الحيوانات ، وأوصاف الشياطين ، ويخرج من كثير مما لا بد له منه حتى يبدل المشاهد القدسية بعد أن يكون بدلا عن النبوة ، فلم نطنب فى الأخلاق فى علوم اليقين لا ندماجها فى طى تلك العلوم ، لأن طالب علوم اليقين إنسان كامل ، وغيره من عامة المسلمين يحتاج إلى الزواجر والرغائب فاستحسنت أن أكتب تلك المواضيع على غير ترتيب بأن أذكر رذيلة ثم أعقبها بفضيلة تنشيطاً للقارىء ، والله الموفق .

العقوق وقطيعة الرحم :

قال الله تعالى : ﴿ **وَقَضَى ربُّك ألَّا تَعْبُدُوا إلَّا إياهُ وَبِالْوَالِدَيْن إِحْساناً إما يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلَاهُمَا فلَا تَقُلْ لَهُمَا أفٍ ولا تَنْهَرْهُمَا وقُل لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً ، وَاخْفِض لَهُمَا جناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيانِى صَغيراً**[1] » ، وقال تعالى : ﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ والْأَرْحَامَ** [2] ﴾ ، أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها . عن عبد الرحمن بن عوف قال : قال النبى ﷺ : « **قال الله تبارك وتعالى :«أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من إسمى فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته**[3]» ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر**[4] » .

---

(١) سورة الإسراء آية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء آية ١ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى .

(٤) رواه أحمد والبزار عن أنس .

إخوانى : احذروا العقوق وقطيعة الرحم فإنهما يعجلان العقوبة فى الدنيا مع عقوبة الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان فيوقعكم فيهما فتذوقوا عذاباً شديداً ، وأذهبوا عن قلوبكم هاتين العلتين بذكر آفاتهما ، وذكر ثواب البر والصلة . ففى الصحيحين قال ﷺ ، « **مَنْ أحبَّ أن يبسط له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره ، فليصل رحمه**[1] » .

إخوانى : فروا من العقوق والقطيعة ، إلى البر والصلة ، تظفروا فى الجنة بالنعم الجزيلة ، وكونوا على حذر من مفاجأة الموت على الغفلة .

إخوانى : خلصوا نفوسكم من أسر الذنوب ، وتأهبوا فإنكم مطلوبون ، وتذكروا بقلوبكم يوم تقلب القلوب ، قبل أن يمسك اللسان ويتحير الإنسان . العقوق هو أن يقسم والداه عليه فى حق فلا يبر قسمهما ، وأن يسألاه فى حاجة فلا يعطيهما ، وأن يؤمناه فيخونهما ، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما ، وأن يسباه فيضربهما ، وأصل العقوق أن تقى مالك بمالهما ، وتوفر مالك وتأكل مالهما ، وأصل البر بالوالدين أن تقى مالهما بمالك ، وتؤخر مالهما وتطعمهما من مالك .

الإحسان فى معاملة أهل الحقوق :

قال تعالى : ﴿ **وَاعْبُدُوا الله وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى والمَسَاكِين وَالْجارِ ذِى القُرْبَى وَالْجارِ الْجنُبِ والصَّاحِبِ بالْجَنبِ وابنِ السَّبِيلِ ومَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**[2] » . وقال ﷺ : « **إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه ، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه**[3] » . وعنه ﷺ : « **كفى بالرجل إثما أن يحبس عمن يملك قوته**[4] » ، وفى رواية : « **كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت**[5] » . قال ﷺ : « **والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن ، قيل : من**

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أنس .

(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

(٣) متفق عليه عن أبى ذر .

(٤) رواه مسلم وذكره النووى .

(٥) رواه أبو داود عن ابن عمرو .

يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه[١] » ، وقال ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره[٢] » .

الشفقـــــة

قال ﷺ « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو كهذا ، وضم أصابعه[٣] » . وقال ﷺ : « ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن[٤] » . وقال ﷺ : « من ابتلى من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن ، كن له سترا من النار[٥] » ، وعنه ﷺ : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس[٦] » .

وقال ﷺ : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر[٧] » ، وعنه ﷺ أنه قال : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه[٨] » ، وقال ﷺ : « المؤمنون كرجل واحد ، إن اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله[٩] » ، وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه[١٠] » ، وعن معاوية أنه كتب إلى عائشة أن اكتبى إلى كتاباً توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت : سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » والسلام عليك[١١].

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) رواه الترمذى .
(٣) رواه مسلم عن أنس .
(٤) أخرجه الترمذى .
(٥) رواه البخارى .
(٦) متفق عليه عن جبريل بن عبد الله .
(٧) أخرجه البخارى وأبو داود .
(٨) رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة .
(٩) أخرجه مسلم وابن حنبل عن النعمان بن بشير .
(١٠) رواه مسلم عن أبى هريرة .
(١١) رواه الترمذى وابن حبان .

الخمــــــــر :

قال الله تعالى :﴿ **يأَيُّها الذّينَ آمنُوا إنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**[١] ﴾ . « **ولعن رسول الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه**[٢] » . وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل مسكر حرام ومن شرب الخمر فى الدنيا فمات وهو يدمنها لم يشربها فى الآخرة**[٣] » ، وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى بعثنى رحمة للعالمين وهدى للعالمين ، وأمرنى ربى عز وجل بمحق المعازف والمزامير والأوثان والصلب وأمر الجاهلية ، وحلف ربى عز وجل قائلا : بعزتى لا يشربن عبد من عبيدى جرعة من خمر ، إلا سقيته من الصديد مثلها ، ولا يتركها من مخافتى إلا سقيته من حياض القدس**[٤] » . وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « **ثلاثة حرم الله عليهم الجنة ، مدمن الخمر ، والعاق ، والديوث الذى يقر فى أهله الخبث**[٥] » ، وما يغير العقل كالبنج والأفيون والحشيشة يعزر عليها ، والصواب تحريم بيعها والتجارة فيها لأنها مسكرة مخدرة مفسدة للعقول والأبدان والأديان . فاتقوا الله عباد الله فى إزالة العقل ، فإن الله تعالى وهبكم العقل لتميزوا به الحسن عن القبيح فى أمرى الدنيا والآخرة وميزكم بالعقل عن الحيوان .

فقد روى البيهقى عن النبى ﷺ قال : « **أول ما خلق الله عز وجل العقل ، فقال له : أقبل ، فأقبل فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال عز من قائل : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب**[٦] » ، فالعقل نعمة عظيمة ومنة جسيمة منَّ الله تعالى بها على الإنسان ، فمن أزال عقله بأكل المنهى عنه فقد أزال عنه نعمته التى بها صلاح الدنيا والدين ، فصار أخس من كلب لا يميز بين الطعام الحسن والجيفة القذرة ، كيف لا ؟ وأن الكلب لا عقوبة عليه ويطيع

---

(١) سورة المائدة آية ٩٠ .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه أحمد .

(٥) رواه أحمد .

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى إمامة وأبو نعيم عن عائشة .

مطعمه ، وهذا ترك طاعة خالقه الذى يطعمه ويكسوه ويعطيه جميع النعم ، ومال إلى ما نهى عنه مما يصيبه به العذاب الأليم الذى لا يطيقه .

الـــزنـــا :

قال الله تعالى :﴿ **ولا تقْرَبوا الزِّنا إنَّه كان فاحِشَةً** ﴾ أى أقبح المعاصى ، ﴿ **وساءَ سبيلا**[1] ﴾ أى بئس مسلكا . عن ابن مسعود رضى الله عنه « **قلت : يانبى الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : ان تزانى حليلة جارك**[2] » . فأنزل الله تصديقاً : ﴿ **والّذِين لَا يَدْعُونَ مَعَ الله إلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلونَ النفْس الّتِى حَرَّمَ الله إلّا بِالْحقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يفعل ذَلِكَ يَلْقَ أثَاماً**[3] ﴾ ، أى واديا فى النار من دم وقيح ويقال جباً ، ﴿ **يُضَاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً**[4] » . عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى الله ﷺ يقول لما نزلت آية الملاعنة : « **أيمَا امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس الخلائق فى الأولين والآخرين**[5] » . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو أمته تزنى ، ياأمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً** » ، وقال رسول الله ﷺ : « **رأيت رجلين أتيانى فأخذا بيدى فأخرجانى إلى أرض مقدسة حتى أتينا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع ، يتوقد تحته نار فإذا وقدت ارتفعوا حتى كادوا يخرجون منها وإذا خمدت رجعوا فيها ، وفيها رجال ونساء عراة ، فقلت ما هذا ؟ قالا : هم الزناة**[6] » .

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٢ .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣ ، ٤) سورة الفرقان آية ٦٨ - ٦٩ .
(٥) أخرجه أبو داود والنسائى .
(٦) رواه البخارى عن سمرة بن جندب .

عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالسنة ، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرعب**[١] » ، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **فى الزنا ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، فأما التى فى الدنيا فيذهب بنور الوجه ، ويقطع الرزق ، ويسرع الفناء . وأما التى فى الآخرة فغضب الرب ، وسوء الحساب ، والدخول فى النار**[٢] » ، وقال ﷺ : « **لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها**[٣] » . واعلم أن الزنا من أقبح المعاصى وأشنعها ، فعلى العاقل أن يحرس نفسه من هذه الخصلة الذميمة المحرمة فى ملل جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الغضب والكبر والحسد والحقد :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « **قال رسول الله ﷺ : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**[٤] » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « **ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم** » ، وفى رواية « **ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ، شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر**[٥] » . وعن ابن عمر قال : قال ﷺ : « **ما تجرع عبد أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى**[٦] » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **إن الغضب ليفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل**[٧] » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ**[٨] ﴾ . الصبر عند الغضب ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم . ﴿ **كَأَنَّه وَلِىٌّ حَمِيمٌ**[٩] ﴾ أى قريب . وعنه ﷺ قال : « **يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة وهم رجال فى صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم**

---

(١) رواه أحمد عن عمرو بن العاص .
(٢) رواه ابن أبى الدنيا عن على وعمر .
(٣) رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه عن ابن عباس .
(٤) متفق عليه . رواه البخارى ومسلم .
(٥) رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة .
(٦) رواه ابن ماجه عن ابن عمر .
(٧) رواه الطبرانى .
(٨، ٩) سورة فصلت آية ٣٤ .

على الله تعالى حتى يقضى بين الناس ، ثم يقال : اذهب بهم إلى نار الأنيار ، قيل : يارسول الله وما نار الأنيار ؟ قال : عصارة أهل النار [١] » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس [٢] » . أى دفع الحق واحتقار الناس . وقال ﷺ : « ثلاثٌ منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الغنى والفقر . وأما المهلكات فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه وهو أشدهن [٣] » .

واعلم أن الكبر أول معصية عصى الله تعالى بها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى واسْتَكْبَرَ [٤] ﴾ فمن تكبر شارك إبليس فى ذنب أورثه الطرد والبعد والعذاب الذى لا آخر له . فلا يأمن على نفسه سوء الخاتمة .

الحسـد :

اعلم أن الحسد من نتائج الحقد ، الذى هو من نتائج الغضب ، فهو فرع الغضب ، وقد ورد ذم الحسد فى آيات وأخبار كثيرة ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِه [٥] ﴾ ، وذلك فى معرض الإنكار . وقال تعالى : ﴿ ومِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ [٦] ﴾ ، وعنه صلى الله عليه قال : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا [٧] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم ، الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ولا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين [٨] » . الحسد هو تمنى زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت النعمة

---

(١) رواه الترمذى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البزار والطبرانى .
(٤) سورة البقرة آية ٣٤ .
(٥) سورة النساء آية ٥٤ .
(٦) سورة الفلق آية ٥ .
(٧) متفق عليه عن أبى هريرة .
(٨) رواه الترمذى عن الزبير .

ديناً أو دنيا فاحذره ياأخى ، فإنه يؤدى إلى محظور عظيم ، لأنه منازعة فى الربوبية وعدم رضا بما قسمه الله لعبده من خزائنه بعلمه وحكمته .

وقال ﷺ : « **إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**(١) » . ويكون الحسد غالباً بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها ، ويتواردون فى الأغراض ، فإذا خالف واحد صاحبه فى غرض من أغراضه نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه ، كما يكون الحسد بين عدو وعدو له ؛ أو يكون إقبال الناس عليه أكثر منه ، أو يكون موصوفاً عند الناس بالحلم والعلم والفضل فيحسده على ذلك ، وأكثر ما يكون الحسد بين الأقارب والأمثال ، وينشأ الحسد عن أمور منها الكبر والعجب والرياسة وحب المنزلة والعداوة والبغضاء ، وعلاج الحسد أن تكفَّ جوارحك من أن تعمل بمقتضى ما فى قلبك الحسد ، حتى لا يظهر على جوارحك شيء مما يؤلم المحسود .

الكظـــم :

قال تعالى : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ والْعافِينَ عَنِ النَّاسِ**(٢) ﴾ ، قال المفسرون : هم الذين يمسكون غيظهم فى نفوسهم على ما فيها من هومهم ، ولا يصرحون من كرب ذلك بقول ولا بعمل لا يحل لهم كما يفعله المتغيظون من الأشرار . والأسباب المهيجة للغيظ والغضب ومباشرتهما هى الكبر والعجب والهزل والتعيير والمماراة وشدة الحرص على فضول الدنيا والجاه وهى بأجمعها صفات رديئة وأخلاق مذمومة ، ولا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا بد من إزالة هذه الأسباب بالاتصاف بأضدادها ، فينبغى أن يميت الكبر بالتواضع . ويميت العجب بمعرفة نفسه ، وبالجد فى طلب الفضائل الذاتية وتصحيح القصد فى طلبها ، والعمل الصالح وتهذيب الأخلاق . أما تعيير الناس فيزيله بالحذر عن الكلام الفاحش والأقوال القبيحة ، مع صيانة اللسان عن سوء الخطاب . وشدة الحرص على فضول الدنيا ، فيزيله بالقناعة بقدر الضرورة ليصون نفسه عن ذل الحاجة .

---

(١) رواه أبو داود من حديث أبى هريرة .

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٤ .

واعلم أن آفة الغضب عظيمة ، وكيف لا تعظم آفته وهو يحمل الجوارح الظاهرة على القتل والضرب والشتم وإطالة اللسان ، ويحمل القلب على الحقد والحسد وإضمار السوء أو الشماته ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر ، والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته ، وكل واحد من هذه الخبائث سم قاتل مهلك . وقال السرى رحمة الله عليه : ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان :

(١) من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا رضى لم يخرجه رضاه إلى الباطل .

(٢) إذا قدر لم يتناول ما ليس له .

(٣) ضبط الغضب عند الهيجان كالكظم ، ويعين عليه علم وعمل ، أما العلم فهو أن يعلم أنه لا سبب لغضبه إلا أنه أنكر أن يجرى على مراد الله لا على مراده وهذا غاية الجهل ، وإلا من يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه ، وأن فضل الله أكثر ، وكم عصاه وخالف أمره فلم يغضب إن خالفه غيره ، فليس أمره ألزم على عبده وأهله ورفيقه من أمر الله تعالى . وأما العمل فهو أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن لم يسكن غضبه بذلك جلس إن كان قائماً ، فإن لم يسكن فليتوضأ ، ورد ذلك الخبر عن النبى ﷺ .

الحقـــد :

الحقد من الغل ، وهو من الرذائل المبعدة عن رضوان الله تعالى والخبائث الموجبة لسخطه تعالى . روى أن النبى ﷺ قال : « **المؤمن ليس بحقود**[1] » ، الموجب للحقد هو أن الإنسان إذا أو ذى بشيء فظهر عليه الغضب وعجز عن السعي فى الحال ، رجع الغضب إلى الباطن واختفى واحتقن وصار حقداً ، والحقد يثمر أموراً منها الحسد وتمنى زوال النعمة ، والشماتة والغيبة فيه ، والنميمة عليه ، والشتم والضرب والبغض له ، والنفور عنه ، ولا يكون علاجه إلا بتعاطى الحلم والعفو والصفح وذكر ما ورد فى ذلك كقوله تعالى ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**[2] ﴾ . وقوله تعالى :

---

(١) الإحياء للغزالى .
(٢) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

﴿ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** [1] ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ** [2] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ** [3] ﴾ ، وقوله ﷺ : « **صِل من قطعك واعفُ عمن ظلمك** [4] » .

الـريـاء :

الرياء هو طلب المنزلة فى قلوب الناس بإراءتهم الخصال المحمودة ، قال الله عز وجل : ﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بعبادة ربِّه أحداً** [5] ﴾ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **تعوذوا بالله من جُب الحزن ، قالوا : يارسول الله وما جب الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة ، قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراؤن بأعمالهم** [6] » . روى ابن أبى الدنيا : « **أن المرائى ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائى ضل عملك وحبط أجرك** [7] » . والرياء قسمان ، رياء محض وهو أن الإنسان يريد بعمل الآخرة نفع الدنيا ، ورياء تخليط وهو أن يريد نفع الدنيا ونفع الآخرة وكلاهما محبط للأجر ، ويكون الرياء بخمسة ، بالبدن ، والهيئة والثياب ، والقول ز وصفات الأعمال ، وقال بعضهم : الإخلاص التقرب إلى الله عز وجل دون التصنع للخلق ، أو تحصيل أن يحمد عند الناس ، أو قصد معنى من المعانى غير التقرب إلى الله عز وجل ، قالوا : وللإخلاص علامات ، منها استواء المدح والذم ، ومنها أن ينسى أن يرى عمله فى حالة طاعته ، ومنها طلب ثواب الآخرة .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٧ .
(٣) سورة النور آية ٢٢ .
(٤) رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر .
(٥) سورة الكهف آية ١١٠ .
(٦) رواه الترمذى .
(٧) رواه ابن أبى الدنيا .

واعلم أن الرياء والحسد والكبر وغيرها من المعاصى كالظلم وترك الزكاة والربا ونحوها تتشعب من حب الدنيا ، ولذلك قال ﷺ : « **حب الدنيا رأس كل خطيئة**[1] » .

إخوانى : استغفروا الله من الذنوب ، وطهروا منها ضمائر القلوب ، واعجبا لمن يطهر منظر الخلق ولا يطهر منظر الخالق ، ويستحيى من الناس ولا يستحيى من الله . الله عندك أصغر من الناس ، أم نار جهنم أهون عليك من حر الظهير ؟ كلا ، ولكن شملت الغفلة فاستحكمت على القلوب أقفالها .

الأمـــل :

هو الداء العضال الذى يوقع الخلق فى أنواع البليات ، قال الله تعالى :﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ**[2] ﴾ . وعن النبى ﷺ أنه قال : « **بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً وغنى مُطْغِياً ومرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر**[3] » . ويروى عن على كرم الله وجهه : أخوف ما أخاف عليكم اثنان ، طول الأمل ، واتباع الهوى ، ألا وإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن الحق . ولقد صدق داود الطائى ، رحمه الله تعالى حيث قال : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن أطاع أمله أساء عمله . وقال بعضهم : الأمل قاطع عن كل خير ، والطمع مانع من كل حق ، والصبر صائر إلى كل ظفر ، والنفس داعية إلى كل شر ، والأمل قسمان : أمل العامة ، وأمل الخاصة ، فأمل العامة يريدون الحياة الدنيا والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها ، وهذه معصية محضة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ . أما أمل الخاصة فإنهم يريدون البقاء لإتمام عمل خير وإصلاح عبادة وطاعة .

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى من رواية الحسن .
(٢) سورة الحديد آية ١٦ .
(٣) رواه الترمذى عن أبى هريرة .

واعلم أن مما يخلص من الأمل فى أمور الدنيا الاستثناء بالمشيئة ، فإذا قال : أفعل كذا فى وقت كذا إن شاء الله ، لم يكن ذلك الأمل مذموماً لأنه لم يجزم ببقائه إلى ذلك الوقت . بل قيده بمشيئة الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ**[1] ﴾ .

الأدب النبوى : السلام :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، قال : فزادوه ورحمة الله ، قال : فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن**[2] » . عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « **أن رجلا سأل النبى** ﷺ أى الإسلام خير ؟ **قال : تطعم الطعام وتقرىء السلام على من عرفت ومن لم تعرف**[3] » ، وقال « **للمؤمن على المؤمن ست خصال : يعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، ويجيبه إذا دعاه ، ويسلم عليه إذا لقيه ، ويشمته إذا عطس ، وينصح له إذا غاب أو شهد**[4] » .

وقال ﷺ : « **لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم**[5] » ، وقال : « **يسلم الراكب على الماشى ، والماشى على القاعد ، والقليل على الكثير**[6] » . وقال : « **يسلم الصغير على الكبير ، والمارُّ على القاعد والقليل على الكثير** » ، « **ومرَّرسول الله** ﷺ **على الغلمان**

---

(١) سورة الكهف آية ٢٢ - ٢٣ .

(٢) متفق عليه عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٦) متفق عليه عن أبى هريرة .

فسلم عليهم[١] » . وقال : « لا تبتدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه[٢] » . وقال : « إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليك ، فقل : عليك » . وقال : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم[٣] » ، « ومر رسول الله ﷺ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فسلم عليهم[٤] » .

وعن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : « إياكم والجلوس بالطرقات ، فقالوا : يارسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها ، قال : فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[٥] » . وروى أبو هريرة : « وإرشاد السبيل » . ورواه عمر : « وتغيثوا الملهوف ، وتهدوا الضال » . عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة تدار عليها الخمر[٦] » .

عن جرير : أن النبى ﷺ مر على نسوة فسلم عليهن ، وقال ﷺ : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تتشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع ، وتسليم النصارى الإشارة بالكف[٧] » . وقال عليه السلام : « إذا دخلتم بيتاً فسلموا على أهله فإذا خرجتم فودعوا أهله بالسلام » . وروى : « أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : إن أبى يقرؤك السلام ، فقال : عليك وعلى أبيك السلام » .

حفظ اللسان من الغيبة والشتم :

قال النبى ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت[٨] » .

(١) متفق عليه .
(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .
(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن أنس .
(٤) متفق عليه عن أسامه .
(٥) رواه البخارى ومسلم وأبو داود .
(٦) أخرجه الترمذى .
(٧) رواه الترمذى والطبرانى عن عمرو بن شعيب هن أبيه عن جده .
(٨) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

وقال ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى فى جهنم[1] » ويروى : « يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب[2] » . وقال ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[3] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة[4] » . وقال ﷺ : « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم[5] » . وقال ﷺ : « تجدون أشر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[6] » . وقال ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً[7] » . وفى رواية : « إن الصدق بِرٌّ والبر يهدى إلى الجنة ، وإن الكذب فُجور والفجور يهدى إلى النار[8] » . وقال : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً » . وقال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب[9] » . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهته[10] » . وعن أبى هريرة أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى معاف إلا المجاهرين ، فإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا

---

(١) رواه مالك والبخارى .
(٢) رواه البخارى ومسلم والنسائى .
(٣) متفق عليه من حديث بن مسعود .
(٤) من حديث أبى الدرداء .
(٥) رواه مسلم وأبو داود عن أبى هريرة .
(٦)متفق عليه عن أبى هريرة .
(٧) متفق عليه عن ابن مسعود .
(٨) رواه ابن حيان عن أبى بكر الصديق .
(٩)رواه مسلم عن المقداد .
(١٠) رواه مسلم عن أبى هريرة .

ثم يصبح وقد ستره الله فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه[1] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ تقوى الله وحسن الخلق ، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ الأجوفان الفرج ، والفم[2] » . وقال ﷺ : « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع[3] » . وسئل ﷺ : « ما النجاة ؟ فقال : أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك[4] » . وقال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[5] » . وقال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذىء[6] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما كان الفحش فى شىء إلا شانه ، وما كان الحياء فى شىء إلا زانه[7] » . وقال : « من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله[8] » . وقال : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك[9] » .

المـزاح :

عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « إن كان النبىُّ ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير ياأبا عمير ما فعل النغير لأنه له نغراً يلعب به فمات[10] » . والنغر : البلبل . عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « قالوا يارسول الله إنك تداعبنا ، قال : إنى لا أقول إلا حقاً[11] » . وعن أنس رضى الله عنه : « أن النبى ﷺ قال له : ياذا الأذنين[12] » .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة .
(٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة .
(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة .
(٤) رواه الترمذى عن عقبة بن عامر .
(٥) رواه الترمذى والواقدى عن أبى هريرة .
(٦) رواه الترمذى من حديث ابن مسعود .
(٧) رواه ابن ماجه والترمذى عن أنس .
(٨) رواه الترمذى عن معاذ بن جبل .
(٩) رواه الترمذى والطبرانى عن واثلة .
(١٠) متفق عليه .
(١١) رواه الترمذى والطبرانى .
(١٢) رواه الترمذى .

وروى عنه ﷺ قال لعجوز : « **إن الجنة لا يدخلها العجوز فولت تبكى ، قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز**[١] » . إن الله تعالى يقول : ﴿ **إنَّا أنشأناهُنَّ إنْشاءً فجعلْناهُنّ أبْكاراً**[٢] ﴾ . عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه**[٣] » .

المفـــاخرة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ : « **أى الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألونى ، قالوا : نعم ، قال : خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا**[٤]» . عن البراء ابن عازب أنه قال : « **فى يوم حنين كان أبو سفيان بن الحرث آخذا بعنان بغلته ، يعنى بغلة رسول الله ﷺ ، فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب**[٥] » . قال : « **فما رؤى من الناس يومئذ أشد منه** » .

وقال رسول الله ﷺ : « **إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد**[٦] » . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم : فحم من جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذى يدهده الخرء بأنفه ، إن الله قد أذهب عنكم عبِّيّة الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب**[٧] » . قال ﷺ : « **الحسب المال ، والتقوى الكرم**[٨] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا**[٩] » . أى

---

(١) رواه الترمذى عن أنس .
(٢) سورة الواقعة آية ٣٥ - ٣٦ .
(٣) رواه الترمذى .
(٤) رواه ابن عساكر .
(٥) رواه الشيخان عن البراء بن عازب .
(٦) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .
(٧) رواه أبو داود والترمذى عن أبى هريرة .
(٨) رواه أحمد والترمذى والطبرانى والطيالسى عن أبى هريرة .
(٩) رواه العسكرى عن عمر .

فعيروه . وقال ﷺ : « **من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذى تردى فى البئر فهو ينزع بذنبه** » . عن واثلة بن الأسقع أنه قال : « **قلت يارسول الله ما العصبية ؟ قال : أن تعين قومك على الظلم**[١] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم** » . وقال ﷺ : « **ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس منا من مات على عصبية** » .

المصافحة والمعانقة والضحك :

. عن قتادة رضى الله عنه ، قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة فى أصحاب النبى ﷺ ؟ قال : نعم . عن البراء بن عازب رضى الله عنه أنه قال : قال النبى ﷺ : « **ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا**[٢] » ، وفى رواية : « **إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما**[٣] » ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « **خرجت مع رسول الله ﷺ حتى أتى جناب فاطمة ، فقال : أثم لكع يعنى حسناً ، فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه** » . وقالت أم هانىء : « **ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح ، فقال : مرحباً بأم هانىء**[٤] » . وعن أبى هريرة : « **أنه ﷺ قبل الحسن بن على وعنده الأقرع ابن حابس ، فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً ، فنظر إليه ﷺ ثم قال : من لا يَرحم لا يُرحم**[٥] » . عن أنس رضى الله عنه قال : « **قال رجل : يارسول الله ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا ، قال : أفيأخذ بيده يصافحه ؟ قال : نعم**[٦] » . وعن أبى أمامة رضى الله عنه : « **أن رسول الله ﷺ قال : تمام عيادة المريض ، أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده فيسأله كيف هو ، وتمام تحياتكم بينكم المصافحة**[٧] » .

---

(١) رواه البيهقى فى السنن .
(٢) رواه أبو داود .
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه الترمذى .
(٥) متفق عليه عن أبى هريرة .
(٦) رواه الترمذى .
(٧) رواه الترمذى عن أبى إمامة .

وعن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فى قصة رجوعه من أرض الحبشةقال : « **فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقانى رسول الله ﷺ فاعتنقنى ثم قال : ما أدرى بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر** » . ووافق ذلك فتح خيبر . وقال زارع وكان فى وفد عبد القيس ، فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد رسول الله ﷺ ورجله .

وعن عائشة رضى الله عنها : « **أن النبى ﷺ أتى بصبى فقبله فقال : أما أنهم مبخلة مجبنة ، وإنهم لمن ريحان الله تعالى** » . عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « **ما رأيت النبى ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم**[1] » ، عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال : « **ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ**[2] » . عن جابر بن سمرة أنه قال : « **كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت الشمس قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون فى أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم**[3] » . ويروى : « **يتناشدون الشعر** » .

الحب فى الله ومن الله :

قال رسول الله ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف**[4] » . وقال : « **إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إنى أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماءفيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء فى الأرض**[5] » . وقال : « **إن الله يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى**[6] » . عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ : « **أن رجلا زار أخا له فى**

---

(١) رواه البخارى .

(٢) الصحيحين .

(٣) رواه مسلم عن جابر بن سمرة .

(٤) رواه البخارى عن عائشة ومسلم وأبو داود عن أبى هريرة .

(٥) أخرجه مسلم عن أبى هريرة .

(٦) رواه مسلم عن أبى هريرة .

قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تَرِبُها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله ، قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه[1] » .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب[2] » . وقال ﷺ : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة[3] » . عن أبى مالك الأشعرى أنه قال : « كنت عند النبى ﷺ إذ قال : إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة ، فقال أعرابى : حدثنا يارسول الله من هم ؟ فقال : هم عباد من عباد الله ، من بلدان شتى ، وقبائل شتى ، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ، ولا دنيا يتباذلون بها ، يتحابون بروح الله يجعل الله وجوههم نوراً وتجعل لهم منابر من نور أمام عرش الرحمن ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون[4] » . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر : « يأبا ذر أى عرى الإيمان أوثق ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : الموالاة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله[5] » . قال ﷺ : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه[6] » . وقال رسول الله ﷺ : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى[7] » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « المرء مع خليله فلينظر أحدكم من يخالل[8] » . وورد عنه ﷺ أنه قال : « إذا آخى الرجل الرجل فليسائله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ، فإنه أوصل للمودة[9] » .

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة .
(٢) أخرجه النسائى وأبو داود وفى الصحيحين عن ابن مسعود .
(٣) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى .
(٤) رواه أحمد والطبرانى والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى .
(٥) رواه الطبرانى والسيوطى فى الجامع الكبير .
(٦) رواه أبو داود والترمذى .
(٧) رواه الترمذى عن أبى سعيد .
(٨) رواه أبو داود والترمذى .
(٩) أخرجه البخارى والترمذى .

النهى عن التهاجر والتقاطع واتباع العورات :

قال ﷺ : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام**(١) » . وقال : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً** » . ويروى : « **ولا تنافسوا** » . وقال : « **تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً ، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال : أنظروا هذين حتى يصطلحا**(٢) ».

وروى عنه ﷺ قال : « **لا يحل الكذب إلا فى ثلاث ، كذب الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب فى الحرب ، والكذب ليصلح بين الناس**(٣) » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فمن هجر فوق وثلاث ومات دخل النار**(٤) » . وعنه ﷺ قال : « **من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه**(٥) » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، فإن مرت به ثلاثة فليلقه فليسلم عليه ، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا فى الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجر**(٦) » . وقال عليه الصلاة والسلام : « **من ضار ضار الله به ، ومن شاق شاق الله عليه**(٧) » .

عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به**(٨) » . عن ابن عمر أنه قال : « **صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : يامعشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله**

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم عن أبى أيوب .
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .
(٣) رواه مسلم عن أم كلثوم .
(٤) رواه أبو داود والنسائى .
(٥) رواه أبو داود والبيهقى .
(٦) رواه أبو داود .
(٧) أخرجه الترمذى .
(٨) رواه الترمذى عن أبى بكر الصديق .

عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله[١] » . وعنه ﷺ قال : « إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق[٢] » . وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « من حمى مؤمناً من منافق يعيبه ، بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن قفا مسلماً بشيء يريد شينه به ، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[٣] » . وقال ﷺ : « حسن الظن بالله من حسن العبادة[٤] » .

الحذر والتأنى فى الأمور :

قال رسول الله ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين[٥] » . وقال لأشج عبد القيس : « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة[٦] » . عن أنس رضى الله عنه قال : « إن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى ، فقال : « خذ الأمر بالتدبير فإن رأيت فى عاقبته خيراً فأمضه ، وإن خفت غيا فأمسك[٧] » . وقال ﷺ : « التؤدة فى كل شيء إلا فى عمل الآخرة[٨] » . وقال : « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة ، مجالس سفك دم حرام ، أو فرج حرام ، أو اقتطاع مال بغير حق » وقال : « إن من أعظم الأمانة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم يفشى سرها[٩] » .

الرفق والحياء وحسن الخلق :

عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى على الرفق ما

---

(١) رواه أبو داود من حديث أبى برزة .
(٢) رواه البارودى وابن منبه وأبو نعيم عن وهب .
(٣) أخرجه البخارى وأبو داود والحاكم عن عقبة بن عامر .
(٤) رواه أبو داود وابن حبان والترمذى والحاكم عن أبى هريرة .
(٥) رواه الشيخان وأبو داود وابى ماجه .
(٦) رواه الترمذى عن ابن عباس .
(٧) رواه عبد الرازق وابن عدى عن أنس .
(٨) رواه أبو داود والحاكم .
(٩) رواه مسلم عن أبى سعيد .

لا يعطى على العنف وما لا يعطى على ما سواه[1] » . وقال لعائشة رضى الله عنها : « عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش ، إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه[2] » . وقال ﷺ : « من أعطى حظه من الرفق أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة[3] » . وقال ﷺ : « إن الحياء من الإيمان[4] » . وقال : « الحياء لا يأتى إلا بخير[5] » . ويروى : « الحياء خير كله[6] » . وقال : « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت[7] » .

« وسئل رسول الله ﷺ عن البر ، فقال : حسن الخلق ، وعن الإثم فقال : ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس[8] » . وقال « إن من أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً[9] » . وقال : « إن من خياركم أحسنكم خلقاً[10] » . عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن[11] » . وقال ﷺ : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار ، وبمن تحرم النار عليه ، على كل هين لين قريب سهل[12] » . عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : قال : « المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم[13] » .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه مسلم عن عائشة .
(٣) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة .
(٤) رواه البخارى ومسلم عن عمران بن حصين .
(٥) رواه الشيخان .
(٦) رواه الشيخان وأبو داود .
(٧) رواه البخارى عن أبى مسعود .
(٨) رواه مسلم والترمذى عن النواس بن سمعان .
(٩) رواه أحمد وابن حبان عن عبد الله بن عمر .
(١٠) رواه الشيخان ومسلم والترمذى عن عبد الله بن عمرو .
(١١) رواه الترمذى .
(١٢) رواه الترمذى عن ابن مسعود .
(١٣) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عمر .

الشفـــاعة :

عن أنس أن النبى ﷺ قال : « يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده واسكنك جنته ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصاب وهى أكله من الشجرة وقد نهى عنها ولكن ائتوا نوحا أول نبى بعثه الله إلى الأرض ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ويذكر خطيئته الذى أصاب وهى سؤاله ربه بغير علم ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن ، قال : فيأتون إبراهيم فيقول : إنى لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوارة وكلمه وقربه نجيا ، قال : فيأتون موسى فيقول : إنى لست هناكم ويذكر خطيئته الذى أصاب وهى قتله النفس ، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته ، قال : فيأتون عيسى فيقول : لست هناكم ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : فيأتونى فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع ، وسل تعطه ، قال : فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى احداً فأخرج فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأستأذن على ربى فى داره ، فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقول : ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع ، وسل تعطه ، قال : فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حداً فأخرج فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربى فى داره فيؤذن لى عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ثم يقول : ارفع محمد ، وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه ، قال : فأرفع رأسى فأثنى على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه فيحد لى حداً فأخرج ، فأدخلهم الجنة ، حتى ما يبقى فى النار إلا من قد حبسه القرآن ، أى وجب عليه الخلود[1] » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً[2] ﴾ . قال : « وهذا المقام المحمود الذى وعده نبيكم » . وعن أبى

(١) رواه مسلم والبخارى عن أنس .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٩ .

هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه[1] » . عن عبد الله بن عمرو بن العاص : « أن النبى ﷺ تلا قول الله تعالى فى إبراهيم » : ﴿ رَبِّ انهنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنى فَإِنَّهُ مِنِّى[2] ﴾ . وقال عيسى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُم فَإِنَّهُم عِبَادُكَ[3] ﴾ . فرفع يديه فقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : ياجبريل إذهب إلى محمد فسله ما يبكيه - وربك أعلم - فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال ، فقال الله لجبريل : إذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسؤك[4] » . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « أن أناساً قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم ، هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب ، وهل تضارون فى رؤية القمر صحوا ليس فيها سحاب ،

قالوا لا يارسول الله ، قال : ما تضارون فى رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد ما . كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين قال : فماذا تنتظرون يتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : ياربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم[5] » . وفى رواية أبى هريرة رضى الله عنه : فيقولون : « هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا عرفناه » . وفى رواية أبى سعيد رضى الله عنه : « فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه ؟ فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ، ويقولون : اللهم سلّم سلّم ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذى نفسى بيده ما

---

(١) سورة البخارى عن أبى هريرة .
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٦ .
(٣) سورة المائدة آية ١١٨ .
(٤) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٥) رواه مسلم والبخارى .

من أحد منكم بأشد مناشدة فى الحق – وقد تبين لكم – من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون : ربنا ، كانوا يصومون معنا ويصلون معنا ويحجون معنا ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا . ثم يقول : ارجعوا فما وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه . فيخرجون خلقاً كثيراً : ثم يقول : ارجعوا فما وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيراً ، فيقول الله : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط : قد عادوا حمما فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتم ، فيقول أهل الجنة : هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، فيقال لهم : لكم ما رأيتم ومثله معه » .

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، اللهم لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، اللهم إنى أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك ، أنك الأحد الصمد ، المريد لما تشاء الفاعل المختار ، لا شريك لك فى الإيجاد والإمداد ، تقيم من تشاء ، فيما تشاء بسابق مشيئتك ، وتكاشف من تشاء بما تشاء ، بسابق إرادتك ، أنت ذو الحول والطول ، والنعمة والجلال والإكرام ، وأشهدك اللهم على نفسى ، وأشهد ملائكتك وأشهد حملة عرشك ، أنى على يقين أن ما وضعته فى هذا الكتاب ، إن كان نوراً وهدى ، فهو من روح قدسك وفتحك وإحسانك وإمدادك ، فاجعله ياإلهى خالصاً لذاتك الأحدية نافعاً نفعاً عاماً ، وإن كان فيه ما يخالف ذلك ، فهو منى بالعجلة والسهو والنسيان ، على أنى أبرأ إليك ياإلهى ، من حولى ومن قوتى ، فأسألك ياكريم العفو أن تغفر لى ما سقط منى فى عجلتى وسهوى ونسيانى وخطئى ، وأن تحفظ إخوانى المسلمين من أن ينالهم مضرة بعملى أو قولى أو حالى ، ووفق اللهم لما فى هذا الكتاب من السهو أو النسيان أو الغلط ، رجالا مخلصين من أهل الخير يصححون ما تحرف منه ، ويبينون ما خفى ، ويفصلون ما أجمل ، ويوضحون ما أبهم ، إنك مجيب الدعاء .

اللهم إنى أسألك مزيداً من العلم ، وتوفيقاً للعمل ، وأعذنى ياإلهى من أن يكون العلم حجة على يوم لقائك ، ومن أن يكون عملى مشوباً بما يجعله غير مقبول لديك يارب العالمين .

اللهم إنى لست أهلا لأن أنال فضلك ، ولا محلا لأن أنال المعرفة بجنابك العلى ، ولكنك ياربى إذا شئت أن تحيط الجمادات علما بك لأحطت ، وإن شئت أن تواجهها بعلى جمالك واجهتها ، أو تتجلى لها بعظيم جلالك لتجليت لها ، ولا تسئل عما تفعل بيدك الفضل ، وأنت على كل شىء قدير .

أسألك بغناك المطلق عمن سواك ، وباضطرار كل من سواك إلى عطاك ، وبكمال الذات الأحدية المنزهة عن أن تحوم حول فناء عظمتها الأرواح المجردة العلية ، أو تشرق على حجب عزتها وكبريائها النفوس الزكية ، أن تمنحنى ياإلهى فضلك العظيم فى الدنيا بأكمل معانيه ، وفى الآخرة بأجمل مجاليه ، حتى أكون العبد المتصف بأكمل معانى العبودية لذاتك ، المتجمل بأخلاقك الربانية ، المتحلى بالحلل الطاهرة المحمدية ، وامنحنى الشوق ودوامه إلى ذاتك الأحدية ، واجعلنى ياإلهى شاكراً دائم الشكر ، وأتبعنى ذريتى بإحسان ، وانفع بى فى حياتى وبعد مماتى ، واجعلنى ممن سبقت لهم منك الحسنى حتى أنتقل من جمال فضلك فى الدنيا إلى أجمل دار فى الآخرة ، وانفع أهلى وأولادى وإخوانى واحفظنى واحفظهم ياألله من التفرقة ، ومن البدعة المضلة يارب العالمين ، وأعذنى وأعذهم من مخالفة سنة حبيبك محمد ﷺ ، ومن شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وسوء الحال والمآل ، وأسالك ياإلهى أن تتوفنا مسلمين ، وتلحقنا بالصالحين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الخويدم المسكين
محمد ماضى أبو العزائم

« تم بعون الله وحسن توفيقه ومعونته »

فهرست كتاب أصول الوصول لمعية الرسول



رقم الإيداع ٢٤٩٩ / ١٩٨٦

طبع بمطابع

دار المدينـــة المنـــورة

١١٤ شارع مجلس الشعـــب القاهرة



دَعْوتنا

أُفق أعلى للدعوة الإسلامية
وآية صادقة لهدي السلف
الصالح ودعوة وسطية لا نتبع
سبيل البغاة لأننا هداة ندعو
إلى الله بالحكمة والموعظة
الحسنة ولا ننهج مسالك الغلاة
لأننا حماة للإسلام من
دعاة الجهالة .